أطلس القارات الضبابية

Telegram:@mbooks90

رواية

إحسان أوقطاي أنار

ترجمة: جهاد الأماسي

صوفيا
Sofia

أطلس القارّات الضبابيّة

المؤلف: إحسان أوقطاي أنار

ترجمها عن التركية: جهاد الأماسي

لوحة الغلاف: رائف أيدن Raif Aydın

تصميم الغلاف: أسماء العنزي

2021

ISBN 978-9921-721-35-5

جميع الحقوق محفوظة

صوفيا Σοφία

الكويت - حولي - الدائري الثالث - مجمع بروميناد - ميزانين 2

البريد الإلكتروني: info.sophiakw@gmail.com

هاتف: 52224643-965+

@sophia_kwt

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إحسان أوقطاي أنار، من مواليد مدينة يوزغات عام 1960. أتمّ البكالوريوس والماجستير والدكتوراة بتخصص الفلسفة في جامعة إيجة. وعمل بالتدريس فيها حتى تقاعد في 2011. له ثماني روايات منشورة. صدرت أولاها، أطلس القارات الضبابية، في 1995، واكتسبت فور صدورها صدى واهتمامًا كبيرين بين القراء والنقاد، انعكس على عدد الطبعات التي بلغت الواحدة والسبعين في عام 2020. كما ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة، من بينها الفرنسية والألمانية والفارسية والكورية والسويدية. وفازت في 2009 بجائزة أردال أوز التركية للأعمال الأدبية.

ملاحظة المترجم

بما أنّ الرواية مليئة بالمصطلحات التاريخية العثمانية والتركية والتي يصعب فهم بعض أجزاء الرواية من دونها، وبأسماء الأماكن التي قد يرغب أحد برؤيتها أو زيارتها، ولاختصار الوقت على القارئ، رأيت أن أرفق معاني المصطلحات وأسماء الأماكن في الحواشي. وقد استعنت لمعرفة معانيها بالمعجم الجامع للمصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية والمعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية وويكيبيديا ومصادر أخرى متفرقة لا أذكرها جميعها. كما ساعدتني في ما صعب عليّ من الكلمات الزميلتان سمية بولات ومليحة إرَم جليك، فلهنّ جزيل الشكر.

بضعة نفر في القسطنطينية

أعلن وروى، كما بيّن وحكى، العلماء والجهلاء وأهل المكر والشرفاء وجلساء الشراب وأرباب الملاوطة أنه بعد خلق الكون بـ ٧٠٧٩ سنة، وبعد ميلاد المسيح بـ ١٦٨١ سنة، وبعد الهجرة بـ١٠٩٢ سنة، كانت هناك مدينة عمّت شهرتها الآفاق، تدعى القسطنطينية.

يُروى أن نورسا يطير في الظلام كان أول من دل سفن الجنويين (نسبة إلى مدينة جنوا) إليها. وقد تعقبه وصاده، بعد وصولهم لليابسة سالمين، قبطانهم الكافر المدعو بوندوس ظنًا بأنّه المسيح، ثمّ شواه وأكله لأنّ أكل لحم المسيح سنّة محببة عندهم.

ويروي الأقدمون أنّ الجنويين بنوا مكان عش ذلك النورس برجًا مهيبا اشتهر باسم غلاطة في زمن لاحق. يقال أنه يمكن للمسنين من همته رؤية جبل أولوداغ في بورصا بالمنظار، بينما يستطيع الشباب فعلَ ذلك بالعين المجردة. لكن تبين لاحقًا أنّها مجرد شائعة يروونها مراقبو الحرائق في البرج للسيّاح من أجل البقشيش.

Telegram:@mbooks90

يُذكر أنّ مراقبي الحريق هؤلاء كانوا يتقاضون من الخزينة الهمايونية(1) أجرًا يوميًا قدره عشر أقجات، ويُكافَؤون بعشرين أقجة إن رصدوا حريقًا في وقته، أمّا في حال تأخرهم عن رصده فإنّهم ينالون ضربًا بالعصي مقداره عشرين ضربة لكلّ ساعة استمر فيها الحريق.

في ليلة قارسة البرد لجأ فيها عسس الأحياء إلى أتانين(2) الحمامات بحثًا

عن الدفء، وكز راصد الحريق في برج غلاطة زميله النائم بجانبه على الحصير بمنظار إفرنجي(3) وهمس له وكأنّه يبوح له بسرٍّ، أنّ سفينة قادس إحسان العربي(4) قد دخلت الخليج (القرن الذهبي). لكنّ زميله الذي لم يستيقظ تماما لم يهتمّ لذلك، بل نظر إليه بعين مفتوحة وأخرى مغلقة دون أن يدري أيّهما كانت تعكس الواقع، ثم تلحّف بالبطانية وتقلب إلى جنبه الآخر.

لكنّ تصلب عضوه بسبب حاجته الملحة للتبول منعه من العودة للنوم ثانية؛ لذا نهض رغم أنّ النوم يتقاطر من عينيه. وبينما كان يفك نطاق سرواله بجانب الجدار نظر إلى سفينة القادس(5) وهي تمخر في الخليج قبالة بوابة العذاب(6).

كان صوت الطبل -الذي يضبط إيقاع المجدفين ويحدّد سرعة السفينة- يُسمع من بعيد. ولم يكن من الممكن التأكد من شكل السفينة ما إذا كانت هي حقًّا سفينة إحسان العربي أم لا. لكنّ الراصد أصرّ على رأيه، فقرّب وجهه من وجه زميله الذي لا يصدّقه، لكنّ الراصد كان مصرًّا على رأيه. اقترب من صاحبه وهو يشد جفن عينه إلى الأسفل ويقول بأنّ هذه العين ترى حتى النجوم في السماء السابعة، وأنّها كانت السبب الحقيقي لتعرضه لخطر الفصل من عمله، لأنّ رأس العسس شك بأنّها تحرق أخشاب القسطنطينية. لكنّ صاحبه كان يعرف أنّه لا يرى أكثر مما يستطيع أن يرى هو. فكيف لا تُسمع الشتائم المعهودة لإحسان العربي إذا كان هذا القادس هو المركب المقصود حقًا، فقد كان معتادًا على إلقائها أثناء مروره من أمام قاراكوي مستقصدًا إهانة رأس الجمركيين في رجولته. وما من شك أنّ ذلك الصوت الذي لم تصبه البرداء أبدًا كان ليُسمع من الضفة الأخرى للخليج بوضوح. لكن يبدو أنّ الراصد الماكر كان طامعًا في الذهبيات اللامعة في

صرّة صاحبه عن طريق استفزازه إلى رهانٍ غادر.

قبل مسافة بسيطة من رصيف السفن لامس قعر القادس القاع. فقد كان الماء قد تسرب للسفينة من فتحة في جهة الراية تسببت بها قذيفة مدفع قولومبورنة برأس تنين، مما زاد من ثقلها والقسم الواقع في الماء منها. لكن ذلك لم يكن سبب ثقلها الوحيد، فقد تلقّى جسدها عددًا لا يحصى من رصاصات مسدسات فيلينتا وبنادق القربينة. كما كانت فوق ذلك تحمل في عدة جوانب منها آثار حرائق لم تُطفأ إلّا بشق الأنفس.

استغرق سحب الأسرى القادمين من مصنع السفن للسفينةَ بالحبال على ظهورهم إلى المرسى وقتًا طويلًا جدًا. بعدها باشر حدادو الغجر بكسر أصفاد المجدفين. وقبّل البحّارة الأرض بعد قفزهم من السفينة بصناديق الغنائم على أكتافهم. وقد كان ذلك البحار الفتوّة الخمسيني العظيم أكثرهم انفعالًا في تقبيله للأرض عند نزوله.

كان قد بلغه أثناء تواجده في مالطا خبر الحريق الذي اشتعل في سماطية وحوّل جميع حاناتها إلى رماد فغمّه ذلك كثيرًا، كيف لا وهو ابن حيّ قوجا مصطفى باشا(7). فبعدها لا تتبقى له إلّا حانات فنر وغلاطة. صحيح أنّ الأثانين المتاحة للمبيت كثيرة في فنر، ولكن لا يمكن له التسكع في الحانات هناك بسبب الخصومات التي كانت له مع معظم فتوّاتها.

أمّا غلاطة فلم يكن فيها أتون للمبيت، كما أنّه من المحتمل أن يحدث شجار لو صادف الغليونجي(8) المدعو گوللاطوبوق(9). لكن ليس عليه أن يقلق كثيرا بشأن ذلك. فبإمكانه المبيت عند ابن أخته الذي يسكن هناك. أمّا بشأن

گوللاطوبوق، فسيتصالحان عاجلًا أو آجلًا، هذا إن لم يكن قد قُتل في أحد الشجارات بعد.

توقّف إحسان العربي أمام دلو الماء الذي كان الغجر المشتغلون بفك الأصفاد يبردون مسامير البراشيم فيه ثمّ خلع طاقيته وغسل يديه ووجهه بالماء العذب لأول مرة منذ أشهر. ثمّ نزع قميصه وتجفّف بعد أن عصر خصلة الشعر المتبقية في رأسه المحلوق.

كان صدره كثيف الشعر مثل فراء وعليه الكثير من ندوب المعارك وآثارها. وكانت شعرات عظمة القص مزينة بعناية بخرزات زجاجية ملونة وعدة حبات من اللؤلؤ. مسح على حاجبيه الكثيفين المتدليين والحاجبين للرؤية جزئيًا وعدّلهما بأصابعه. وبرم شاربيه المعقوفين النافرين من فتحتي أنفه كخنجرين. فعاد البريق المتلألئ الذي يرهب العدو وقت النزال إلى عينيه.

كان يتمنطق مشملًا(10) مرصعًا لامعًا منقوشةً عليه آياتٌ كريمة بالفضة. وكان حتى في أكثر الأجواء برودة يتمشى بشروال(11) قصير وقدمين حافيتين، ويستعرض بكعبيه العاريين في ميادين القسطنطينية السبعة وأتانينها الإثنين والسبعين.

كانت في رباط زنده الأيسر تمائم تحميه من رصاص بنادق القربينة وسهام التتار وقذائف الروم ومدافع البندقيين وعين الحاسدين والحمى السوداء والصفراء ووحوش البحر المفتوح وأوجاع الضرس. وموشوم على عضلة زنده المشدودة عبارة «آه من العشق»، وعلى الأخرى «ومن الغرائب».

كان العبد الذي غنمه في غارة قاموا بها في المغرب قبل عشرين يومًا قد بدأ

يضرّ بهيبته. وقد كان طفلًا غير مختونٍ يحلف أيمانًا أنّ اسمه عليباز، وعمره سبعة سنوات على أكثر تقدير. أفسد هذا الشقيّ معوز المدفع أثناء استعدادهم لإطلاق القذيفة في بحر مالطة خلال حملتهم على فرقاطة تابعة للبندقية صادفوها في طريقهم، مما جعل التصويب متعذرًا.

وبعد أن تلقى صفعة كعقاب له راح يبكي ففضح مكانهم للأعداء وسط الضباب الكثيف. ولمّا أخذوا يلاحقونه عبث بمدورة الرحوية وأنزل الأشرعة. وبعد أن نجوا من ذلك المأزق تسبب باشتعال حريق في قمرة القبطان. كما كان هو من ثقب الطبلة التي تعطي المجدفين إيقاعًا للتجديف. كلّ ذلك فعله هذا الحشرة.

وحتى يردعوه أخبروه بأنّهم سيسلخون جلده ليرقعوا به الطلبة وأخذوا يشحذون سكاكينهم، فراح يتوسل ويحلف لهم أيمانا أنه لن يعود للمشاغبة مرة ثانية. لكنّه لم يستطع أن يحفظ وعده إلّا إلى المساء.

وكانت نتيجة شقاوته هذه أن خُفّضت حصّة إحسان العربي من الغنائم إلى واحد في السبعين لأنّه لم يعرف كيف يضربه جيدًا رغم أنّ بطشه شديد بالعادة. لذلك لم يبق له بعد أن حُرم من غنائم غارات مصر وغزوات البندقية سوى صندوق مليء بالخرائط والكثير من القروش السوداء بدل الدوقات المعتادة.

عندما صعد إلى الأعلى من أجل أخذ الصندوق رأى منظرًا جعله يفقد صوابه. كان عليباز قد فتح الصندوق وأخذ يقلّب في الخرائط. ولم يكن في تقليبه ذلك حذرًا ولا لطيفًا. كان جالسًا بثوب خفيف في تلك الليلة الباردة تحت إنارة فنار مرسى حوض السفن، يقلّب الأوراق مُفسدًا وممزقًا لها من دون قصد. يطمس ما لا يلفت نظره من رسمات الجبال والبحار والسفن والوحوش بلعابه دون أن

يلاحظ، ويبقع بالحبر الملتصق بإصبعه أسماء البلدات والموانئ والقلاع.

جنّ جنون إحسان الذي كان ينوي وضع علامات صليب على هذه الخرائط ويبيعها على منقبي الكنوز. لكنّه شدّ قبضة يده كاتمًا غيظه من جديد قائلًا «ولد! يا ابن الزنا! اترك الأغراض!». فابتسم عليباز في الظلام مبرزًا أسنانه اللامعة كلآلئ وهو سعيد بما فعل. ثمّ رفع خريطة القارة الشمالية صوب ضوء الفنار حتى يرى سيده ذلك جيدًا، ثمّ أخذ يمزقها إلى قطع صغيرة ببطء وهو يبتسم.

ثارت ثائرة إحسان، فرفع الطفل من كعب قدمه مقلوبًا في الهواء وكأنّه عود فتساقطت من ثوبه دوقات البندقية وقروش إسبانية وذهبيات أسدية وزلوطات(12) ومنقورات(13). وعندها عُرف سبب نقصان الغنائم في كلّ مرّة كانوا يحصونها فيها.

في الوقت الذي كانت فيه أيدِ المؤذنين على آذانهم لإعلان أذان صلاة الفجر، كان إحسان العربي قد وصل إلى بوابة العذاب التي تؤدي إلى حوض السفن في الأسوار المحيطة بغلاطة. كان يحمل صندوق الغنيمة على كتفه ويده الأخرى مطبقة على أذن عليباز. مشيا على الطرق المتحولة إلى محيط من الأوحال بفعل أمطار البارحة.

عند مرورهما من بوابة العذاب الداخلية كان أذان الفجر قد بدأ. قطعا الأزقّة الحلزونية بدءًا من مسجد العرب، مرورًا بالبيوت الخشبية القديمة المائلة والمنحنية التي لم تعد توائم استقامة الشاقول(14) وكأنّها تتحدّى قانون الجاذبية. وكانا في مشيهما يتحاشيان أن يدوسا على جثث الجرذان والكلاب والجماجم حادة العظام وسط الأوحال.

كان عليباز يتأمل المدينة التي لم يرها من قبل في ذهول. لما انعطفا عند أحد الأزقة رأيا رجلًا مسنًا بثياب نومه وطاقيته خارجا من بيته وبيده إبريق وهو في طريقه لقضاء حاجته. ألقى الرجل عليهم بنظرة مستغربة ثمّ ولج إلى بيت الخلاء. بعد ابتعادهما قليلًا تناول عليباز حجرًا ثقيلًا وألقى به بكل قوته على بيت الخلاء ما جعل خشبه يصدر فرقعة عالية. وقد تسبب تصرفه ذلك بفركٍ إذنه بقوة أكبر.

في النهاية توقفا أمام بيت خشبيّ من طابقين محاذ لخان الشراعيين(15) وقريب من بوابة كوركجو(16) ، أخذ إحسان العربي يطرق بابه بقبضته حتى فُتح.

رأى بنيامين في حلمه نفس المشهد المعهود؛ إنكشاريون يحملون مشاعلًا ويمشون وسط الضباب صوب جهة مجهولة. كانت زُرُود(17) جواشنهم(18) الحديديّة قد صدئت منذ زمن طويل. كانت وجوههم مغطاة بأقنعة حديدية، وأنفيّات خوذاتهم مُنزَلة. كما كانت تروسهم متعفنة وسيوفهم ومشاملهم صدئة.

استفاق بنيامين من الحلم الذي أصبح يراه في الأيام الأخيرة كثيرًا على جلبة طَزق عنيف للباب لم يبد أنّها ستوقظ أباه الذي خلد إلى النوم ليلة البارحة من أجل أن يحلّ بعض المسائل النظرية في أحلامه.

تناول الفتى الأسمر كستنائي الشاربين واسع العينين الذي لا يشبه أباه في شيء مشمله من تحت فراشه احتياطًا، وهبط إلى الأسفل. كان الباب ما يزال يُقرع بعنف وإصرار. عندما صرخ «من بالباب!» كفّ الرجل عن ضرب الباب بقبضته وراح يركله بقدمه، ولا يمكن أن يكون ذلك إلّا تصرف شخصٍ واحد،

والذي كان خال أبيه، إحسان العربي.

نظر إحسان العربي إلى المشمل في يد الفتى قائلًا «ما هذا يا بنيامين؟ أستقطّع خال أبيك بهذا المشمل؟ إذا كنت تريد ذبح أحدهم فهاك هذا الولد، لقد تسبب في خسارتي لثلاثمئة ذهبية أسدية بالتمام. لكن حذار، فهو قبطي»(19).

سحب عليباز من أذنه دافعا إياه نحو بنيامين فتسمّر ولم يعرف ما يفعل. عاش لحظتها عليباز الرعب بشكل حقيقي لأول مرة، لأنّه اعتقد بأنّه سيذبحه بالمشمل حقًا. لكنّه تنفس الصعداء عندما رأى بنيامين يترك مشمله ويقبّل يد إحسان العربي. واعتراه فضول شديد لمّا ظهر فجأة قرد طويل الذيل يقفز على الدرج. وفي اللحظة التي هبّ فيها ليلاحقه قبضت اليد الكماشة تلك على أذنه من جديد.

قال إحسان لبنيامين:

- «أيقظ أباك البائس حتى أصعد لأراه. لكن أحضر طستًا أولًا لنغسل أقدامنا».

كان عليباز يبالغ في الضغط على ثؤلول الإصبع الصغير لقدم إحسان وهو يغسلها. بعدها ظهرت قدمان طويلتا الإصبعين الأوسطين، باطنهما قاس كجلد مدبوغ وكأنّهما مدرعتان. لم يكن النائم بالأعلى قد استيقظ بعد رغم كلّ الضجّة التي أحدثوها.

صعد إحسان إلى الأعلى بخطوات ثقيلة تجعل السلّم الخشبي يصدر طقطقة عالية في الوقت الذي كان بنيامين فيه يحضّر القهوة في المطبخ. ثمّ ولج إلى غرفةٍ يصدر منها صوت شخيرٍ خفيف.

كانت الغرفة عبارة عن مساحة شديدة الفوضى تستخدم للنوم والعمل. كما كانت ملأى بشتّى الأغراض المبعثرة، كإسطرلاب وسدس فخري وبوصلات قبلة وأدوات وآلات فلكية وبحرية بمؤشرات عاكسة وعدسات مكبرة وساعات زمبركية بندولية وزجاجات ملونة لا تُعرف فائدتها. وعلى أرفف جدرانها كانت العديد من الرِقاق ولفافات الخرائط ومخطوطات كثيرة لم يتمكن الدود من القضاء عليها بعد. أمّا الطاولة التي كانت أمام النافذة فعليها العديد من أنواع الفرجارات وألوان الأحبار والأقلام والفرش والأوراق المكتوب عليها.

وسط هذه الفوضى كان والد بنيامين يغطّ في نوم لا تُعرف درجته، وتغطيه البطانية حتى رقبته. كان ضيّقَ العينين، بارز تفاحة آدم، وخفيف الشارب. وقد سُمّي إحسانًا تيمّنًا بخاله إحسان العربي، ويلقبه الناس بالطويل لطول قامته. كان لعابه الذي يسيلُ من فمه كعلامة على عمق نومه، قد جعل وسادته مبتلة تمامًا.

أطال إحسان العربي النظر إلى ابن أخيه النائم على فراش من ريش الطيور الناعم، والذي بلغه أنّه تأثر بالمستكشفين الفرنجة وألهبت لبّه فكرة رسم خريطة للعالم انطلاقًا من جبل قاف وعودةً إليه. فكّر بأنّ البائس هذا ليس لديه ما يؤهله ليجوب عُشر هذا العالم حتى. فلا يمكنه بيديه الناعمتين هاتين شدّ حبل سفينة ولا أكل اللحوم المدوّدة والكعك المجفف المتعفن. كما أنّ بشرته الحساسة لا يمكنها تحمّل الشمس الحارقة والماء المالح أبدًا.

أخذ يضغط على يد ابن أخيه التي كانت فوق البطانية بإصبعه ليرى ما إذا كان محقًّا في تفكيره. لم يكن مخطئًا؛ فقد كانت بشرته شديدة النعومة حقًّا، لو حاول شدّ حبل شراع قلمي(20) نفختْه الرياح فستتسلخ يداه وتدميان. حتى لو أبحر مرةً فرضًا، فمن المؤكد أنّه لم يكن ليتجاوز بحر مرمرة؛ لأنّه سيتجمد من الخوف

في أول مواجهة لهجمة قراصنة، ولأنّه لم يكن له مظهر مهيب ولو قليلًا. كما كان في لحيته التي أعفاها بلا خجل العديد من الفراغات وكأنّ عثّة أكلتها.

صعد بنيامين إلى الأعلى وهو يتأبط خبزًا ويحمل في يده قصعة لبن رائب، وبجانبه عليباز يحمل قصعة عسل. ولما رأى خال أبيه يتحدث مع أبيه ظنّ أنّ الإرهاق قد أثر على تفكيره. كان إحسان العربي يقول لابن أخيه الذي كان يشخر ولعابه يسيل:

أيّها الأعمى! افتح عينيك واستفق من أحلامك. اخرج وتأمّل عصفورًا صغيرًا على الأقلّ إن لم تكن قادرًا على رؤية السيمورغ(21). انطلق إلى السهول إن لم يكن بوسعك الوصول إلى جبل قاف؛ تفرج على الحشرات والطيور والأزهار والتلال. دع عنك رسم خريطة العالم! قم بشيء مفيد ولو لمرة في حياتك، ضع لبنة على لبنة. كيف لرجل أن يرى الدنيا وهو لا يرى الورود والأزهار؟

بينما كان خاله يخاطبه بذلك في عالم اليقظة، كان إحسان أفندي الطويل يرى في حلمه قرصانًا عظيمًا. كان حلمه يعجّ بالمشامل وقذائف الروم(22) وصليل السيوف. كان القرصان يقفز من سفينة إلى أخرى عاضًّا على مشمله بأسنانه، يشعل المدافع ويتحكم بالدفّة خلال العواصف الهوجاء، ويقضي لياليه سهرانًا دون أن ينال أيّ راحة. وقد كان هذا القرصان العظيم هو خاله إحسان العربي.

كان يريه في الحلم آثارًا لا تحصى لضربات سياط على ظهره، والتي كانت نتيجة وقوعه في الأسر وعمله في التجديف كثيرًا. تلك الندوب والآثار الحمراء كانت هي ما يلهم إحسان أفندي الطويل لرسم خارطة العالم. إلّا أنّ خارطة خاله وبخلاف الخارطة التي رسمها هو كانت دقيقة القياسات، فقد كان يعيش وسط

هذه الخارطة ويفتخر بذلك.

كان خاله في حلمه تارة يرمي بالنرد في الباربوت(23) فيستحسن إحسان الطويل كلّ رقم يظهر من رميته. وتارة يركض متفاديًا ملاحقة السهام والرصاصات له وهو يضحك. فجأة ظهر له ابنه بنيامين في حلمه. كان يخوض مغامرة طويلة وملونة كأفعى. وكان يبدو وسيمًا كالعادة بشاربه الكستنائي وخطوط وجهه المتناسقة. فجأة داهم الحلم ضباب كثيف. وبينما تاه هو وخاله والأخرين وسطه كان بنيامين يمشي بخطىً واثقة ناحية الضوء.

وفي نهاية المغامرة التي كانت بطول أفعى سامة، تعرّف بنيامين على ألوان الأفعى واحدًا تلو الآخر وسحق رأسها فتحول إلى بطل من أبطال الحكايات. وبمجرد هلاكها أحاط به وسط ذلك الضباب الكثيف المئات والآلاف من العميان وراحوا يمسحون على ظهره ويقبلون يده ويتوسلون إليه أن يجد حلولًا لهمومهم ومشاكلهم.

سمع إحسان أفندي الطويل في حلمه خاله يقول له شيئًا. فأراد أن يجيبه وأن يخبره بأنّه لا يستطيع رؤية شيءٍ غير الأحلام لكونه أعمى، بيد أنّ قوة ما عقدت لسانه وحالت بينه وبين القدرة على الكلام. لكن ما يدور بخلده كان واضحًا.

أيقظ بنيامين أباه عندما رآه يهذي متقلبًا على فراشه. وردّد إحسان العربي أنّ من الطبيعي له أن يرى الكوابيس لإكثاره من الأكل والشرب والخمول والرقاد كالشلبيين على الفرش الوثيرة.

في تلك الأثناء كان عليباز يحملق في الرجل النائم في ذهول. لأنّ هذا الحمَل المسكين لم يطرق له النوم جفنًا منذ سنوات طويلة. فقد كان لا ينام، وبسبب

هذه العلة لم يُنوّم حتى بلوغه الثالثة إلا باستخدام روح الأفيون(24). كان يفكر لا إراديًا عند رؤيته للمتثائبين والشاخرين في أسرتهم أنّهم يلعبون لعبة ما. لكنّه يشكّ في أنّ ذلك هو ما يفعلونه حقًا، لأنّ إغماض العينين والاستلقاء في سرير ضيّق طوال الليل كان شيئًا مملًا جدًا.

كان لا يشبع من الاستماع للناس وهم يروون في الصباح الأحلام التي رأوها في منامهم. لكنّه بدأ يشكّ بأنّهم يكذبون عليه لمّا أخبروه في مرّة بأنّ النائمين تفترق أرواحهم عن أبدانهم وتسافر لديارٍ بعيدة تصادف فيها أشخاصًا غريبين وعجيبين وحيوانات وألعاب. لكنّه لم يبيّن لهم ارتيابه ذلك.

كان يفكّر، أيّ شيءٍ هو هذا النوم يا ترى؟ وهل هناك شيءٌ يُدعى الحلم حقًا؟ يبدو أنّه شيء ممتع جدًا. ما من سبيل ليعرف إجابة أسئلته سوى بأن ينام ويحلم. لذا كان في كل ليلة يخلد إلى فراشه من بعد أذان العشاء مباشرة على أمل أن ينام في يوم ما ويرى حلمًا.

من أين كان للجاهلين بحياة هذا الطفل الذي يبدو حزينًا لعدم رؤيته للأحلام أن يعرفوا أنّ واقعه كان ملوّنًا بقدر الأحلام الزاهية تمامًا؟

قبل أن يعثر بنيامين على العملة المنحوسة بزمن طويل، كان هناك شخص يعمل كاتبًا لقنصل البندقيّة في حي پيرا(25) ويدعى كوپاليك. كان خطّ هذا الرجل المكلف بتبييض المسودّات في غاية الجمال. لدرجة أنّ سفيرًا كان قد ذهب بمكتوب احتجاج كتبه له كوپاليك إلى القصر نجا من الإعدام لأنّ السلطان انبهر بحسن الخطّ وجمال ذيول الأحرف وتقوساتها بدل أن يهتمّ بمحتوى المكتوب شديد اللهجة.

لكن رفاق السوء عودوه على الشرب، وبدأت تظهر مع الوقت أمارات احتمال تعرضه لإعاقة دائمة بسبب تكرار قبض المومجو باشي(26) (العسّاس) عليه، وطرحه للفلقة لعشرات المرات. لمّا التأمت عظمة ساقه قليلًا حذّره أصدقاؤه من أنّه سيتعرض لإعاقة دائمة لو استمرّ بالشرب. لكنّه لم يأبه بذلك. فألقي القبض عليه مجددًا وهو ثمل وانكسرت عظمة ساقه من نفس المكان، فأصبح من بعدها أعرجًا.

منعه بعدها القنصل منعًا باتًّا من الشراب. ولما أصبحت يده ترتعش بسبب الحرمان ولا تجيد الكتابة فصله من وظيفته ككاتب. فأصبح من بعدها مسؤولًا عن نظافة مبنى القنصليّة. لكنّه أهمل وظيفته الجديدة، وراح يتردد خلسة على حانات غلاطة. فنفذ صبر القنصل وطرده معطيًا إياه ثلاثين دوقة ليعود بها إلى البندقية. لكن حدث ما حدث عندما قرّر أن يشرب قليلا قبل أن يركب السفينة في إحدى الحانات الموجودة عند المرسى.

بعد خروجه من الحانة استقلّ برأسه الثملة سفينة أسرى ونام على ظهرها. واستيقظ لاحقًا على أصوات مطارق ورأى رجالًا مظلمي الوجه يحكمون إيثاق أغلال قدميه. فأخذ يبكي ويصرخ في محاولة لإقناعهم بأنه موظف في سفارة البندقية، إلّا أنّ أحدًا لم يصدقه. لكن أحد فاعلي الخير ممن تجمّعوا حوله بسبب صراخه أبلغ القنصل بالأمر، فجاء موظف من السفارة ليتدخل بالموضوع.

شك النخّاسون أنّ في الأمر دسيسة، وبأنّ البندقيين يسعون لإنقاذ أخيهم في الدين بالمجّان. فأخذوه عنادًا إلى سوق النخاسة وباعوه للوسطاء الذين بدورهم سلّموه للسماسرة. وكان من حسن الحظّ أنّ قنصل البندقية جاء إلى السوق من أجل أن ينقذ كاتبه السابق بنفسه. واتفق مع رجل مسلم على أن يشتري له

كوپاليك لأنّ المسيحيين ممنوعون من شراء العبيد.

كان كوپاليك قصيرًا وشديد النحول ومتّسخ الوجه وأظافره طويلة وقذرة، كما كانت بشرته ضاربة إلى الخضرة في علامة جلية على الصحة المتدهورة، وكان فوق ذلك أعرجًا ويسعل ويعطس باستمرار. لذلك لم يكن ليشتريه أحد في الأحوال العادية.

لكنّ الوسطاء الذين عرفوا أنّ القنصل ينوي تخليصه أشركوا رجالهم في المزاد واستمروا برفع السعر. وفي النهاية اضطر القنصل لشرائه بمئتي فيلورينة. أي بثمن جارية شركسيّة فاتنة تجيد العزف على العود.

بمجرّد حلّهم لأغلاله هوى القنصل على وجهه بصفعة قوية وأخبره بأنّه لا يريد رؤيته مجددًا أبدًا. وأعطاه عشرة دوقات في هذه المرة حتى يرحل. لكن كوپاليك كان يقول بأنّه لن يستطع السفر إلى البندقية بهذا المقدار الهزيل، مع أنّه لم يتحدث إلّا مع زيّاني باركا(27) وربان غليون(28) واحد. ولو أنّه ساوم أحدًا منهم لتمكن من مغادرة القسطنطينيّة بالتأكيد.

في أوّل أيام حريته أسدى له أصدقاء الحانة العديد من النصائح الأخوية. أخبروه بأنّ عليه المغادرة إلى بلاده قبل أن تنفذ نقوده، وبأنّهم سيقرضونه بعض المال إن احتاج. لكنّه لم يكن في وضع يجعله يستوعب ما يقال. فأقداح الخمر التسعة التي أفرغها في جوفه أظهرت مفعولها وجعلت رأسه يخرّ إلى الأسفل.

في منتصف الليل تقريبًا خرج من الحانة وهو يغني مترنمًا بأغنية تمجّد وطنه، فألقى أحد المستائين من إزعاجه جسمًا ثقيلًا على رأسه. ومع أنّ رأسه بدأ ينزف، إلّا أنّه أخذ يبحث في الظلام عن ذلك الجسم، ووجد أنّه كان عبارة عن كماشة.

في صباح تلك الليلة باشر بالعمل كحكيم(29) أسنان، يتجوّل في الأزقّة بكماشته مخلّصًا المعذّبين من آلامهم. وقد استمر في البداية بتقاضي أجرة زهيدة حتى أتقن المهنة واكتسب مهارة اليد. كان يقلع أسنان فتوات وملاحي الأثانين التي يبيت فيها بالمجان حتى يكفّوا عنه أذاهم.

في إحدى الليالي قبض عليه ثلة من الإنكشاريين وذهبوا به إلى رئيس العسس. كان ذلك الرجل المكلف بطرح السكارى المتسكعين للفلقة يعاني من ألم في ضرسه يكفي لطرح ثور. لذلك أمر رجاله بأن يحضروا له أول حكيم أسنان يجدونه.

صرخ بالرجل الواهن الهزيل منخفض الكتفين: «هيا! لماذا تقف مكانك؟ اقلع هذا الضرس وخلّصني!». لم يحرك كوپاليك ساكنًا ولم يمسك بكماشته حتى. فكرّر رئيس العسس مزمجرًا، «أيّها الزنديق! تحرك واقلع هذا الضرس! سأضرب عنقك إذا ماطلت أكثر!». لكنّ كوپاليك بقي واقفا مكانه، ربّما كان سعيدا برؤية الرجل الذي تسبب في عرجته يعاني أمامه. فأجابه: «أعطني أجرتي مقدمًا إذًا، خمسون فيلورينة بالتمام». فصرخ الآخر مزبدًا، «يا زنديق! أتطلب خمسين فيلورينة من أجل عمل يكلّف نصف أقجة؟ أتعي ما تقول أنت؟». فردّ كوپاليك متوجهًا نحو الباب، «جد غيري إذن». لكنّ الإنكشاريين أوقفوه قبل أن يخرج بإشارة من رئيس العسس.

أصبح لكوپاليك رأس مالٍ لا يستهان به أبدًا بالنسبة لممارس جديد. وقد حصل على ترخيص جرّاح بعد أن وزّع ثلاثين فيلورينة على الأماكن الضرورية، ثمّ استأجر دكانًا حقيرًا في غلاطة بالقرب من بوابة ميخائيل مقابل سبعة عشرة

أقجة شهريًا. وبعدما وقعت بيده ترجمة كتاب كالينوس باللغة الإفرنجية تعلم بعض أسرار الصنعة.

أصبح الآن يكسب ثمن شرابه، ولم تعد يداه ترتعشان كثيرا بعد شرب ثلاثة أكواز. قتّر على نفسه من الشراب بعض الشيء، واشترى لنفسه خاتمًا ألصق بوسطه ناب رئيس العسس المتسبب في عرجته.

لم يبق له إلّا القليل حتى يصبح شخصًا محترمًا. لكن كان يصعب دخول دكانه من كثر القذارة، حيث كانت أرضيته تبدو كأنها مغطاة بإفرازات غدد مفتوحة وخُراجات وقروح. بعد مدة أصبح كئيبًا متكدرًا، لدرجة أن حتى الفتوات الذين أفسدوا لهجته كانوا يحزنون لرؤيته على تلك الحال.

كان للنقص الذي وجده في كتاب كالينوس دور في تكدره هذا. فقد أرّق تفكيره سؤال لم يجد له جوابًا شافيًا فيه؛ ما الذي يوجد بداخل هذه الأجساد التي ستبعث يوم القيامة؟ قرّر في النهاية أن يشرّح جثّة كلب حتى يعرف الإجابة.

كان عندما تتوقف يداه عن الارتعاش بعد ثلاثة أكواز من الشراب يرسم ويدوّن الملاحظات. كانت أجساد الحيوانات تثير دهشته كثيرًا، لكن ماذا عن جسده هو؟ صحيح أنّ في تشريح جسد إنسان إثمٌ عظيم، ولكن يظهر أنّ فضوله لن يشبع بسهولة.

في يوم ما، وبينما كان يتجول غارقًا في أفكاره رأى بعض الرجال أسفل أسوار القصر المطلّة على البحر في حي آخرقابي(30). كانوا يقلّبون بعصيهم تارة في النفايات وتارة في الماء وهم يرتدون أحذية طويلة تصل إلى خصورهم. كان

عملهم هذا يعرف باسم التنبيش. فقد كانوا يقلّبون نفايات القصر عند الفتحة التي تخرج منها، ويعتاشون على ما يعثرون عليه فيها من أشياء لها قيمة.

لاحظ كوپاليك أن أحدهم وجد شيئًا فمشى مقتربًا منه. وقد كان ما وجده الرجل ذراعًا قطعت من معصمها ويلمع في إصبعها الأوسط خاتم ثمين. انتزع النبّاشون الخاتم مبتهجين، وألقوا بالذراع. عند حلول المساء عاد كوپاليك إلى المكان وهو يتلفت ليتأكد أنّ أحدًا لم يكن يراه، ثمّ لفّ الذراع في منديل ودسّها في قميصه.

قطّع اليد وشرّحها ورسم العضلات والأنسجة والعروق بعناية على الورق. كان هدفه من هذا كلّه أن يرسم خارطة لجسد ابن آدم الآثم، وأن يكتشف ما بداخله. وهكذا بدأ في تحضير أطلس التشريح المشؤوم.

كان في الأيام التي يُشنق فيها أمير أو باشا أو جارية، تُطلق مدافع بعدد الجثث التي تخرج من القصر، عندها يتجه كوپاليك إلى المكان الذي يقدّر أنّ تيار المياه سيدفع الجثث إليه في حيّ طوبخانه. أخيرًا نال ثمرة انتظاره في الليالي الباردة وهو يسعل ويعطس؛ فقد وجد جثّة ألقى بها الموج إلى الشطّ لانقطاع حبل الثقل الذي كان مربوطًا بها. فحشرها في الشوال الذي أخرجه من قميصه ثمّ حملها إلى بيته بجهد ومشقّة كبيرين.

كان الصبح قد طلع. ورغم الرائحة القوية غير المحتملة التي تفاقمت في المساء إلّا أنّه استمر يعمل على الجثّة ليومين متواصلين. لقد أصبح مكتشفًا حقيقيًا الآن. كان يسمي العظام بأسماء الفتوّات، والعضلات بأسماء رواد الحانات، ويبقي للغلمان والراقصين العروق والأنسجة. وإظهارًا لامتنانه الكبير لمن أعتقه

وحرره فقد أطلق اسم قنصل البندقية على العظمة التي تشبه ركاب الخيل داخل الأذن. وحتى لا تصل الرائحة من بيته الكائن فوق الدكان إلى الجيران قرّر أن يدفن الجثة في الفناء. لا بأس، فعاجلا أم آجلًا سيجد جثّة أخرى.

في المرة الثانية كان قاب قوسين أو أدنى من أن يفتضح أمره. فقد لحظه أحد الإنكشاريين وهو يحمل الشوال على ظهره وتعقّبه حتى بيته. ثمّ أناب عند الباب أحدًا لينتظره ريثما يرجع، مهددًا إياه في حال تحرّك من مكانه. كان نيته إبلاغ رئيس العسس بالأمر ثمّ العودة معه ليروا أيّ مصائب كان يدبّرها كوپاليك في بيته.

أخذ كوپاليك ينتفض من الذعر. فقد كانت الجثة في هذه المرة لرجل مسلم مختون. لكن ما زال أمل في الخلاص. قام بشقّ ثقب في بطن الجثة واقتطع جزءًا صغيرا من الأمعاء. ثمّ مرره على العضو الجنسي للجثة وخاطه بمهارة. وبعد أن خاط الشق الذي اختاره من مكان كثيف الشعر باحترافية ألبس الجثة ملابس خروجه. ثمّ وضع عُملتين مكان العينين وربط الحنك وراح يتظاهر بأنّه يقرأ من كتاب كالينوس.

كان أول شيء فعله رئيس العسس الذي وصل بعد قليل هو التحقق ممّا إذا كانت الجثّة لمسلم أم لا. لذلك انطفأ غضبه لما أنزل سروال الجثة ورأى لحمة الختان مكانها. وبما أنّ كوپاليك كان يقرأ الأدعية من الكتاب المقدس فلا بدّ أنّ هذه مجرد جنازة بسيطة لصديق متوفى، ولا بدّ أنّ الأمر قد اختلط على الإنكشاري الذي يقول بأنّه رآه يحمله في شوال ثقيل. لذلك خرج رئيس العسس ورجاله في النهاية احترامًا للجنازة.

لم يتمكن هذا الأعرج الذي يتوقد فيه ولع المعرفة من إنهاء أطلس التشريح رغم عمله عليه مدة شهور متتالية. في منتصف إحدى الليالي، وبينما كان يشرب بإفراط في إحدى الحانات وهو على وشك أن يفقد وعيه، سمع محادثة عشوائية دارت بين بعض السكارى: كان أحدهم يقول بلسانٍ أثقله الخمر الرديء الذي يظهر مفعوله سريعًا أن مراقب الحرائق في البرج أبلغه أن سفينة إحسان العربي قد دخلت الخليج قبل قليل، وبأنّ معنى ذلك أنه سيأتي إلى حانات غلاطة بما أنّ حانات سماطية احترقت، وسيتعارك مع المدعو گوللاطوبوق إن صادفه.

اعتدل كوپاليك في جلسته. لم يبد في حال جيدة أبدًا. فقد كان قد باع لإحسان العربي قبل أن يبحر بسفينته للغزو تميمةً مقابل عشرة فيلورينات حالفًا أيمانًا مغلظة بأنّها ستحمي جلده من اختراق السهام وقطع السيوف. ولا بدّ أنه يبحث عنه الآن لينتقم منه. لذلك فمن المستحسن أن يختفي عن الأنظار لفترة.

ناول كوپاليك الساقي أقجتين، وملأ قربته بالخمر ثمّ مشى بفانوسه نحو بوابة العذاب. ولمّا بلغها أطفأ الفانوس وكَمَنَ ينتظر كلِصّ لمدة طويلة. لو رآه ضابط أمن بلا فانوس مشتعل لضربه بالعصا خمسين ضربة حتمًا. مع ذلك بقي هناك حتى السحر ليتأكد من صحة الخبر المصيري.

وقد تحقق ما كان يخشاه. فها هو إحسان العربي يمشي في طريقه نحو حي غلاطة. على كتفه صندوق، وإحدى يديه قابضة على أذن طفل.

عاد إلى بيته وهو يعرج مسرعًا وخائفًا مما قد يتعرّض له. ولمّا صاحت الديكة في الفجر لم يكن قد نام بعد. أدرك فجأة أنّه محظوظ لأنّه لم ينم، فلا بدّ أنّ بيته كان أول مكان سيبحث فيه إحسان العربي عنه. لذلك خرج عند طلوع الشمس

وبدء البائعين المتجولين بالهتاف، وراح يتجول في أماكن آمنة ومنعزلة. ولم ينس أن يملأ قربته الصغيرة بالخمر من أجل أن يستجمع شجاعته.

كان إحسان العربي يبحث عن كوپاليك بالفعل. في البداية ذهب إلى دكانه في حيّ بوابة ميخائيل ورأى أنّ الباب مقفل؛ لكن كان القليل من الدفع كافيًا لإخراج الغطاء المتحركِ من مكانه. كانت أرض المكان ملأى بالإفرازات والدماء والأسنان والضروس المتسوّسة. وكانت على المنضدة مباضع جراح وكماشات من أحجام مختلفة. صعد درجات السلم إلى بيت كوپاليك المؤلف من غرفة واحدة تشمل كلّ شيء، فخاب أمله مرة ثانية، وقرر أن يبحث عنه في الحانات.

كان النهار قد بدأ في غلاطة منذ وقت طويل. وكانت الأزقة تضجّ بأصوات مناشير الجلافطة(31) وطَرقات مطارق الحدادين والطُلُمبَجية(32) الفرنجيين وصرخات بائعي البازار الهاتفين بإطراء بضاعتهم والباعة المتجولين الذين تتفاوت درجات أصواتهم حسب البضاعة.

كانت الصلوات(33) المردّدة من جامع العرب تختلط بالنغمات الصادرة من كنيسة إركانونلو. وفي الطرق والبيوت والدكاكين كانت تُسمع همهمات مساومات تجار جنويين وفرنجة ويهود وأرمن ومسلمين وغير مسلمين ينتمون لما مجموعه اثنين وسبعين شعبًا. كما كان الإنكشاريون والغليونجية(34) والدهماء يقذفون بعضهم والآخرين شتائم تعلموها من أسلافهم بعد تصفيتها من أيّ شوائب لطافة وهم يضعون أيديهم على نصال مشاملهم للتهديد.

كان رصيف السفن ممتلئًا بسفن وبمراكب أتت من الأقاليم السبعة(35) وأطراف العالم الأربعة. على المرسى كانت براميل الزيت والخمر والزيتون

والبارود والبهارات وعاج الفيلة والمعمولات ومختلف أجناس البضائع مما لا يخطر على بال مصطفة في انتظار الحمالين. هنا مكان اجتماع الناس من كل قوم وطبقة. أهدافهم فيه واحدة رغم اختلاف عاداتهم وألسنتهم وأديانهم.

ها هو أحد المتسولين مبتوري القدمين يزحف بمساعدة يديه طالبًا الصدقة لرضا الله من تاجر ثريّ متمنطق بشال عجمي قيمته مئة وستون فيلورينة وبيده صرة ذهبيات أسدية تقرقع وهو يمرّ بحصانه من تحت أحد أقواس القناطر. وها هي القروش الإسبانية ودوقات البندقية والشرفيات والقروش العثمانية والزلوطات والأسديات والأثمان تُعدّ على خشبة الحساب(36) ثمّ تفرغ في أكياس النقود، وتوضع تلك بدورها في شوالات، ومنها إلى صناديق كبيرة، ثمّ يحملها الحمّالون إلى الدكاكين، ويتلقون مقابل عملهم ذلك عدة منقورات. أجل، هذه هي غلاطة، المكان الذي يفوق نفوذ المال فيه نفوذ السلطان نفسه.

لم يكن اعتياد إحسان العربي على هذا الصخب والإزعاج سهلًا بعد حياته في السفينة التي لم تكن تفسد رتابتها سوى رقصات البحر. لم يكن قد عثر على كوپاليك بعد، رغم مروره بجميع حانات المرسى. ولكنّه عندما ذهب إلى الحيّ الرومي الواقع خلف مصنع الشمع صادف في أحد الأزقة منظرًا غريبًا.

كان جيش من القطط قد أحاط ببائع جوال يبيع الأكباد المعلقة على قضيب خشبي يحمله، مما جعله في موقف حرج. كانت الأربعين أو الخمسين قطة قد اشتمت رائحة الأكباد الطازجة الفاتحة للشهية فحاصرت المسكين بموائها المتضرّع ونصبت أعينها على بضاعته وهي تتحين الفرصة للقفز والظفر بإحداها. حاول المسكين للذود عن رأس ماله بالركلات والصرخات، ومع ذلك نالت إحدى القطط مرادها واختفت برفقة مجموعة من صديقاتها في أحد الأزقّة

الفرعية. ومن هناك صدر صوت جلبة عراك حيوانات تواجه صعوبة في اقتسام الطعام.

كان كلّ من بالجوار يضحك على حال المسكين. في النهاية قطّع الرجل كبدة إلى أربعة أجزاء وألقى بكل جزء منها في اتجاه فتفرق جيش القطط إلى أربعة مجموعات تهاجم وتعضّ بعضها للحصول على تلك القطع. بعد ذلك علّق الرجل رأس ماله على الشجرة أمام مقهى ثمّ جلس منهكًا على أحد المقاعد الصغيرة وطلب قهوة تعب.

لاحظ إحسان العربي الذي كان واقفًا يتفرّج على ما يجري رجلًا يتفحص أكباد البائع، وقد كان ذلك كوپاليك. كان اهتمامه بالأكباد، وهو الذي توقف عن أكل اللحم مذ أصبح جراحًا، أمرًا موجبًا للتعجّب. فجأة قبضت على ياقته يد تشبه الكلّاب ، فانهارت ساقاه من الرعب. كان إحسان العربي يقول بصوت أجش دون أن يسلم عليه أو يسأل عن حاله أنّ بينهما حسابًا عليهما تصفيته.

تنفس كوپاليك الصعداء وهدأ خوفه قليلا لما رأى أنّ إحسان العربي لم يكن يجرّه نحو الخرابات والبيوت المهجورة والأراضي الخالية حيث تُثقب البطون وتقطع الرقاب وتعصر الخصي وتقتلع العيون، بل نحو المرسى. كان الفتوّة يسوقه دون أن يقول شيئًا.

وصلا إلى حانة كَفَلي مع بدء أذان العصر. كانت الحانة نصف ممتلئة من الآن، وكان ما في الأقداح قد بلغ قعرها. أظهر الموجودون احتراما كبيرا لإحسان العربي عند دخوله، وردّ هو بدوره السلام على من حيّاه.

عندما جلس على إحدى الطاولات مع كوپاليك اقترب منه رجل يشبه النمس

يظهر أنّه سيتوقع أجرة شراب مقابل معلومة سيدلي بها. وبينما كان يهمس في أذن إحسان ويده على فمه حتى لا يسمعه أحد، كانت عينه تدور في محجرها كعيون جراء النمس وهو يراقب المكان يمنة ويسرة.

تنهّد إحسان العربي تنهيدة عميقة. حسب ما يقول هذا الرجل فإنّ الفتوّة المدعو گوللاطوبوق كان يبحث عنه مفتشًا جميع الحانات، ولم يكن يهمل شرب عدة أقداح في كلّ حانة يبحث فيها عنه. راح كوپاليك يرتعد من الخوف من جديد. فهو أيضًا سيكون في خطر لو وجدهما گوللاطوبوق رغم أنّه لا ذنب له. لذلك قام بخلع حذائه بهدوء ومن دون أن يلحظه أحد حتى يتمكن من الفرار بشكل أسرع قليلًا بقدمه العرجاء لو حصل مكروه.

مع وقت الغروب كانت حانة كفلي مكتظة بالتجار والكتاب والشلبيين(37) وموظفي السفارات والإنكشاريين وعاملي السفن البحرية والدهماء. كانت خمور العنب المسكي وبوزجاضه وأنكونة وإدرميت تفرغ من حاويات ضخمة إلى قناني، ومنها إلى أباريق، وبعد أن تسكب من الأباريق إلى الأقداح تستقرّ في معد أهل الكيف، وتسري في أبدانهم مشعلةً أرواحهم. كان صبيان السفن والغلمان من أصحاب بشرة الفالوذج كأنّهم يشعلون غليونات أهل الكيف بالنار التي يسعرونها في قلوبهم. وكانوا يقومون بالسقاية غير آبهين باللمسات والوخزات التي يتعرضون لها من هذا وذاك.

كان الأفيون، رابع عناصر الكيف؛ الخمر والتبغ والقهوة، يُخرج من علب مزينة بالصدف ويُشارَك مع الخلّان. بعدها تعلو الضحكات حتى تدمع الأعين، ويستمر البكاء حتى تجفّ الدموع.

في ظرف مدة ليست بالطويلة غطّى دخان التبغ السقف واستقرّ فوح الخمور الرخيصة والغالية وروائح الأنفاس الحادة في الوشاحات الفارسية وقبّعات(38) الإنكشاريين والقفطانات المتلبّدة. واستقرت النشوة واللذة المفرغتان من الأقداح في الأبدان .

كان كوپاليك يراقب إحسان العربي بنظرات خائفة وهو يخرج من قميصه كتابًا ويضعه أمامه على الطاولة. احتار الجراح المسكين فيما عليه فعله. فرفع الكتاب ليتفحصه ولاحظ ثقبًا في وسطه. كان الثقب يصل إلى الصفحات الأخيرة وينتهي قبل غلاف الكتاب الخلفي. ولما أخذ يقلب صفحاته سقطت رصاصة على الطاولة. كانت رصاصة بندقية قربينة بحجم حبة البندق. وقد جذب الكتاب اهتمام من كانوا بالمكان أيضًا. قال إحسان العربي بصوت عال: «ها هو! انظروا إلى الشيء الذي أنقذ حياتي!».

قبل أسبوعين بالتمام، كانوا قد أغاروا على سفينة حربية إفرنجية صعد خلالها إلى قمرة القبطان وراح ينهب ما تمتدّ إليه يده. وأثناء ذلك حشر هذا الكتاب في صدره على عجل.

كانت المفاجأة أنّه بقي سليمًا عندما أطلق أحد الكفرة نار بندقيته على صدره مباشرة، ممّا أثار استغرابه.

لكنّه عندما عاد لسفينته أدرك أنّ الرصاصة كانت قد أصابت الكتاب الذي كان في صدره. ففكّر بأنّ لذلك حكمة وسببًا حتمًا. ولا بدّ أنّ هذه الحكمة موجودة في هذا الكتاب الذي أنقذ حياته، كتاب الحقيقة الدامغة والعلم والعرفان، الذي كان على كوپاليك الذي يجيد لسان الفرنجة أن يترجمه بشكل أو بآخر في مدة لا

تتجاوز الثلاثة أيام.

راحت يدا كوپاليك ترتعدان من القلق هذه المرة رغم أنّه كان قد شرب ما يكفي. صحيح أنّ الكتاب المطلوب ترجمته لا يعتبر كبيرًا، ولكن لا يمكن القول بأنّه صغير. وأيًا كان، فإنّ ترجمته في هذه المدة القصيرة مستحيلة. لكنّ إحسان العربي أخرج من قميصه ورق طومار(39) ودواة.

لحسن الحظ أنّ أحد الشلبيين تدخّل حينها: كان الرجل المحترم يقول بأنّ كوپاليك يعرف لسان الفرنجة ولكنّه يجهل اللهجة الراقية لمواطني الدولة العليّة. وحسب رأيه، فإنّ لسان كوپاليك قد أُفسد على يد الفتوات أثناء بقائه في الأثانين مما لوّث لغته ومفرداته. فقد كان يميل مثلًا لقول «حمامة» بدلًا من «قضيب»، و «زوين» بدلًا من «حسن»، و «ألعوبة» بدلًا من «حيلة» لأنّه لا يفهم إلّا لهجة أراذل القوم. وأيّ خير يُؤمّل من ترجمة يقوم بها هذا الرجل؟

كان كوپاليك المتوتر يهزّ رأسه موافقًا من أعماق قلبه على كلام الشلبي. إلّا أنّ إحسان لم يعر تلك الكلمات اهتمامًا. لكن لا يمكن القول بأنّ الشك لم يساوره. لذا سأل كوپاليك كما لو أنّه يعرف الجواب ويريد امتحانه فقط عن عنوان الكتاب واسم مؤلفه. فقال الآخر بعد أن ألقى نظرة على غلاف الكتاب: «ثرثرة عن الطريقة(40)، والكاتب فيلسوف اسمه رندَكار». فتح إحسان الذي لم يزل الشك من قلبه بعد على صفحة بشكل عشوائي ووضع الكتاب أمام كوپاليك طالبًا منه ترجمة عدّة أسطر. فقرأ الأسطر لعدّة مرات وكتب بعض الأشياء على ورقة ثمّ نقحها وسلّمها له. لكن لم يستطع أيّ ممن يعرفون القراءة في الحانة فهم ما كتبه.

تداولت الأيدي تلك الورقة، وانتهى بها الحال بعد ثلاثة أيام في مطبخ غُلقت

على حائطه ظنًا بأنّها دعاء. وبعد أن انتظرت هناك لنصف عقد واصفرّ لونها أخذها حفيد كَفَلي المهاجر إلى إسبانيا كتذكار واضعًا إيّاها وسط دفتي كتاب. وقد مكث ذلك الكتاب الذي كان رواية فروسية من دون أن يُقرأ لعشرات السنين في مكتبة إقطاعيّ خسر أراضيه في إشبيلية، ثمّ وجد من يشتريه مقابل ثلاثة وثلاثين قطعة ذهبية تعود لإحدى المستعمرات في مزاد بمدينة إنجليزية ذهب به إليها وريث مبذّر.

أهدى من اشترى الرواية البسيطة بمبلغ كبير إيّاها لابن عمه الذي كان يبحث عن معنى لحياته في عيد ميلاده السابع عشر. وقد وجد ابن عمه في أشدّ أجزاء الرواية شدًا للاهتمام شخبطات كوپاليك تلك فقرر أن يدرس الاستشراق في معبر الثيران(41) حتى يحل لغزها. وبعدما انتحر بسبب قصة حبّ فاشلة في يوم عيد ميلاده الثالث والثلاثين، دخل المسؤولون إلى غرفته وقلبوا الورقة التي تحمل توقيعه والمكتوب عليها أن لا أحد مسؤول عن موته فوجدوا تلك الكتابات بالأحرف العربية والفارسية.

Telegram:@mbooks90

وعندما ذهبوا بها لجلي أسرارها إلى كاتب اشتهر في الأرجاء بكتابه «أعمدة الحكمة السبعة» لم يكن سهلًا لذلك الرجل أن يصل إلى حفلة عيد الميلاد قبل ستة عشرة عامًا، وإلى بائع المزاد الذي تعدّى عمره الثمانين، وإلى الوريث المبذر على فراش موته، وإلى آخر ذكر في عائلة كفلي، والمصاب بالسلّ. بعد رحلة بحرية طويلة سترسو سفينته مقابل غلاطة، وسيرى أمام المبنى الضخم المنتصب مكان الحانة التي كتب فيها كوپاليك تلك الكتابات الغريبة رجلا طويل القامة ضيق العينين ينتظره متأبّطًا كتابًا.

الغروب

يُروى أنّ في زمن ما كان هناك أب مكروب مغموم يعيش وسط الغجر الذين نصبوا خيامهم وسط مرج الآغا(42) الواقع داخل الأسوار مباشرة. كانت وسيلة رزق هذا البائس دبٌّ يتمشى به في الشوارع والأزقة ويجعله يؤدي بعض الحركات والألعاب. وكان يكدّره ويغمّه أنّه سيهرم قريبًا ويعجز عن المشي بينما لم يتعلم ابنه أيّ عمل أو صنعة بعد، رغم تجاوز سنّه العشرين. كما لم يكن يولي تربية الدببة التي توارثتها عائلته أبًا عن جدّ أيّ اهتمام أو احترام.

كان دبّ الرجل الهرم يحبّه ويتعلق به من كلّ قلبه، ويحس بعذابه وقهره من هذا الابن المتمرّد. لذلك فإنّه عندما يضطر للخروج مع الابن لجمع المال في الأيام التي تصيب فيها الأب نزلة برد كان يعانده ولا يطيع أوامره. يرفض أن يتظاهر بالإغماء كالعجائز، أو أن يرقص كما تفعل المليحات. وبذلك يُظهر للابن العاصي حقارة وتفاهة قدره عنده، كما يعجّل من نهاية ساعات العمل ليعود إلى صاحبه الحقيقي ليقاسمه فراشه الدافئ.

كان الأب والابن والدبّ ينامون معًا على نفس الفراش بحيث يكون الدبّ دائمًا في الوسط، وهو ما كان يثير امتعاض الابن؛ لأنّ الدب كان يتخذ من تدفئة صاحبه بحضنه عادة له، ولا يسمح له بسحب البطانية نحوه ولو قليلًا في ليالي الشتاء الباردة، ويزمجر مهدّدًا إن فعل ذلك.

أي أنّ الدبّ وصاحبه كانا يشكّلان تحالفًا وثيقًا باختصار. لكن الأب لم يكن ينظر للأمور بهذه الطريقة. فقد كان دائمًا ما يسعى لأن يؤلّف بين قلبيهما ويلاطفهما قائلا: «كلاكما ولداي، لماذا لا تتفاهمان؟». لكنّ جهوده لم تكن لتفلح

أبدًا.

في أحد الأيام وقف الدب على قدميه، وطارد الابن الخائن حتى خارج الأسوار لأنّه صفع أباه لمّا امتنع عن إعطائه مبلغًا لشراء الخمر. وبعد أسبوعٍ عاد الابن إلى الخيمة ومعه حيوان غريب يشبه الإنسان. كان كثيف الشعر طويل الذيل وله لحية. ارتبك الأب ولم يعرف ما إذا كان هذا المخلوق إنسانًا أم لا، لكنه اعتدل في جلسته احتياطًا واحترامًا للحيته.

كان هذا المخلوق قردًا بلحية. غمر الدب الفضول لمّا رأه فاقترب منه وراح يتشمّمه. لم يبد القرد أيّ علامة خوف، وأخذ هو بدوره يتشمم الدبّ أيضًا. وفي النهاية انطفأ فضولهما تجاه بعضهما.

سالت دموع الرجل الهرم لمّا أخبره الابن بأنّه سيُلاعب قردًا بدلًا من الدبّ. فقد كان جدّه يُلاعب جدّ هذا الدب في زمن غابر. ومع مرور السنين أصبح النسلان كيانًا واحدًا لا ينفصل. وهذا يعني أنّ مهنة العائلة ستندثر معه.

في تلك الليلة لم يطرق النوم للعجوز جفنًا. ولما طلع الصبح وضع بطانيته الوحيدة على ظهره وخرج من الخيمة مع الدبّ. ترك خلفه المدينة التي جمع في أزقتها الأموال لسنين طويلة واستمر يمشي في البراري والأدغال حتى حلّ الظلام. وفي الليل توقف للراحة في غابة وافترش بطانيته. ثمّ قام الدب كما يفعل دائمًا بتدفئة صاحبه بفرائه.

استمرّا على هذه الحال أيامًا طويلة، يسيران عبر الغابات والجبال والتلال. ومع الوقت كان الرجل المسكين يذوي وتخور قواه. مع اقتراب نهاية الخريف لجآ إلى مغارة ثمّ ناما في أحضان بعضهما متغطين بالبطانية بينما كان الثلج

ينهمر في الخارج.

عندما استيقظ الدبّ من سباته الشتوي العميق والطويل سمع تغاريد العصافير المهاجرة تأتي من الخارج. ولمّا رفع البطانية بمخلبه من فوق صاحبه، رأى الهيكل العظمي المتعب للرجل الهرم الذي مات قبل أشهر.

كان الشاب القبطي السعيد لتخلصه من الدب يحاول تعليم القرد اللعب ولكن من دون نجاح يذكر. وفي يوم من الأيام رآه يلعب بصرّة نقود، فخرجت عيناه من مكانهما. ولمّا انتزعها منه وجد فيها بضعة وسبعين أقجة. كما وُضعت لجلب الحظ داخل جيب صغير مخاطٍ في قعرها دوقة بندقية من يدري أيّ حاج أعطاها لمَن كبقشيش.

لذلك قرر عند اكتشافه لمهارته في السرقة والنشل أن يشغله في مجال يليق بمهارته. فقام بشراء ملابس شلبي بمبلغ كبير وألبسها لتمثال صنعه من القش. ثمّ حشر نقودًا وساعات جيب وعلب أفيون ونشوق في حزامه وأكمامه وقميصه وراح بالضرب يدرّب القرد على نشلها.

كان كأنّه يوشك على أن يجني ثمرة جهوده، لكنّ غريزة فضول القرد الموروثة جعلته يهمل الأموال وينجذب نحو ما لم يره من قبل من أشياء لمّاعة وملونة ورنّانة وعجيبة وغريبة الرائحة. ورغم كل الضرب الذي ناله إلّا أنّه ما زال لا يفرّق بين صرّة النقود وكيس التبغ.

بعد أن سئم من علب السعوط شُغف عقله بعلب الأفيون المرصّعة بالصدف. وفي مرّة من المرات جعله فضوله يبتلع كلّ ما في العلبة من معجون أفيون كان بنكهة العنبر. ولمّا أغمي عليه ظن صاحبه بأنّه مات فتخلص منه في إحدى

الخرابات.

في المساء فتح القرد عينيه. ولكنه لم ير البيئة التي كان يعيش فيها، بل الغابة الشاسعة بجميع ألوانها وأصواتها، موطن الآباء والأجداد، فراح يهمهم في سعادة لما اشتمّ رائحة أمّه التي تغمره بالطمأنينة والأمان. فقد كان وسط حضن دافئ وحنون.

كان في أحلام الأفيون تلك قسط من حقيقة. لأنّ بنيامين كان قد سمع تمتمات القرد من الخرابة فاتجه إليها، ولما رأى أن القرد ما يزال حيًا أدخله في قميصه وذهب به إلى البيت. لم ولن ينس القرد رائحة القميص ذاك في حياته، لأنّها كانت تطابق رائحة أمّه تمامًا.

بعدها أصبح للقرد مأوى واسمًا حقيقيين لأول مرة. وقد أطلق عليه بنيامين اسم مشتري. كان مشتري يعود إلى حضن بنيامين ليتنشق رائحة الأمان بعد أن يملّ من التجول في الأسطح والإغارة على بساتين الفاكهة والهرب من ملاحقات الكلاب. لكنه لم يكفّ عن عادته القديمة، السرقة؛ لأنّ بيئته كانت تعجّ بأنواع الأشياء الجذّابة. وعندما ينطفئ فضوله تجاه الذهب والنقود وعلب الأفيون والنشوق والسُبح والغليونات، يتحول إلى أمشاط عاج الفيل وبوصلات القبلة والحرز والتمائم. ومنها إلى أخرى غيرها.

جرب إحسان أفندي الطويل طرقًا كثيرةً حتى يردعه عن السرقة، لدرجة أنّه قيّده في مرة بالسلاسل. لكنّ مشتريًا خلّص نفسه منها ورجع في المساء بعبوة فضية تشبه الاسطوانة بعد أن تجوّل في أماكن يعلم الله وحده بها. فتح إحسان أفندي الطويل العبوة فخرج منها فرمان هائل الحجم. كان الفرمان الذي يحمل

ختم السلطان يتفضل بأمر عاجل بأن تُقطع رأس الباشا محافظ قلعة أغري وتُملّح وتُرسل إلى القصر خلال اثني عشرة يومًا. كما كان يُذكر فيه أنّه في حال التأخر أو عدم التنفيذ فإنّ الأسماء الواحدة والعشرين المكتوبة فيه ستقتل.

أخذ إحسان أفندي الطويل ينتفض رعبًا وهو يتعجب من اختطاف القرد للفرمان المهم من رقبة المبعوث. وراح جسده يتفصّد عرق الموت من الهلع، حتى أنّه عزف عن الطعام والشراب . أمّا مشتري فقد استمر بشقاوته وألاعيبه يملأ البيت بالأشياء التي يسرقها وينشلها. لكن من حسن الحظ أنّ جلادي السلطان لم يقرعوا الباب.

مرّت الأيام والشهور وأخذ عدد الأشياء التي تثير فضول وتعجب مشتري ويقدر على حملها بالتناقص. في هذه المرة تسلّط بشهية القردة لديه على السفن التي تحمل أمتعة وبضائع من دول بعيدة. ولكن بعد أن سرق قبعة أميرال بحري وقنبلة كان فتيلها ما يزال مشتعلا عندما أحضرها للبيت وعينا زجاجية وعدة تمائم بدأ شغفه ذلك يخبو أيضا. فكفّ عن تلك العادة أخيرًا. لكنّ حماسته اشتعلت من جديد عندما جاء الشقي عليباز الذي كان إحسان العربي يعصر أذنه. فاتحد معه وقلبا معًا أعلى البيت سافله.

ظرق الباب في ثالث يوم لم يمرّ فيه إحسان العربي على البيت فركض مشتري بفضوله المعهود وأنزل مقبض الباب ورأى أمامه أكثر الناس هوانًا وخوارًا، والذي كان كوپاليك. كان يتأبط ورق طومار وعلى حزامه غُلقت كماشة صدئة. كان نفس فضول القردة موجودًا عنده ولكن بعقل ونظام أكبر. لم يكن قد رأى قردًا من قبل في حياته، لذلك اعتراه الفضول بشأن ما يحويه جسده.

لم يكترث مشتري لهذا الرجل. ولكنّ عينيه كانتا تحملقان في الكماشة على حزامه. وبحركة مباغتة رشيقة قفز وخطفها، ولكن كوپاليك قبض عليه من ذكره قبل أن يتمكن من الهرب. فيد هذا الجراح كانت خفيفة وسريعة بما يكفي لقلع أصعب الأنياب.

هبط إحسان أفندي الطويل إلى الأسفل عندما سمع الصراخ المتألم للقرد. كان الجراح الإفرنجي يبحث عن إحسان العربي. ولما عرف بأنّه ليس موجودًا سلم إحسان أفندي الطويل ورقة الطومار ورجاه أن يسلمها لإحسان العربي من أجل حقّ الإنسانية ثمّ خرج.

كان إحسان أفندي الطويل يعرف بأنّ خاله الذي لم يظهر منذ ثلاثة أيام لن يمرّ بالبيت مجددًا. لذلك فإنّ ورقة الطومار هذه لن تصل لصاحبها أبدًا. بعد مدة وجيزة طرق الباب من جديد. في هذه المرة كان الطارق عجوزًا يلامس أنفها ذقنها. ولم يكن مطلبها مختلفا عن مطالب عجائز الحي الأخريات.

هؤلاء النسوة كنّ قد صدّقن بأنّ إحسان أفندي الطويل يصلي الاستخارة في الليل ثمّ يرى في منامه حلول مختلف المعضلات وشفاء أنواع الهموم والأسقام وخلطات لقمان الحكيم وختم سيدنا سليمان. لذلك كنّ لا يفتأن يترددن على بابه دون فتور أو ملل. ولم يكن ما يؤمنّ به يفتقد من نصيبه بعض الحقيقة. لكنّ المسألة مختلفة تمام الاختلاف عما كنّ يعتقدنه.

كان إحسان أفندي الطويل قد صمّم على رسم خارطة العالم. ولكنّه كان يسعى -وعلى عكس الشغوفين الآخرين- لاكتشاف قارّات جديدة دون أن يتحرك شبرًا من مكانه، كان يعتقد بأنّه وجد طريقة لإنجاز هذا العمل الذي يبدو من أول وهلة

مستحيلًا؛ فبما أنّ الأحلام تنتج عن انفصال الروح عن البدن خلال النوم وذهابها إلى أماكن مختلفة وديار بعيدة كما هو معلوم. فإنّ من العبث للجسد بأن يتعنّى ويتعب من أجل الذهاب إلى أماكن تذهب إليها الروح بلا تعب. لا لزوم إذن لأن يبحر ويخوض عنان الصعاب كالمكتشفين الآخرين. بل يكفي له حتى يكتشف القارات المجهولة أن يفعل كما تستوجب الأصول بأن يشرب من مشروب النوم ويصلي الاستخارة وينام. لكن لم تكن هذه الطريقة تخلو من بعض المشاكل؛ فأحيانًا كان يرى نفس الأحلام بشكل متكرر. وكانت روحه تذهب لأماكن لا لزوم لها، كبئر في صحراء مثلًا، أو إلى غرف العزّاب في نواحي چمبرليطاش(43)، وتعلق متورطة بالصخور التي تغنت بها حوريات البحر، وذلك كلّه من ضياع الوقت الذي يؤخره عن إنهاء أطلسه المنشود.

طرد إحسان أفندي الطويل العجوز التي أرادت منه أن يفك السحر الذي يقيّد الجندي ابن الستة والستين عامًا. ثمّ صعد إلى الأعلى وأخذ يقلب في ورق الطومار الذي أحضره كوپاليك.

كانت الأوراق عبارة عن ترجمة لكتاب عنوانه (ثرثرة عن الطريقة). يُفهم من الصفحة الأولى له أنّ كاتبه رجل يدعى رندكار. فهم خلال قراءته للكتاب الذي كُتب بلهجة فتوات أنّ رندكار تبنى الشك كـ «طريقة»، أي كمنهج في الحياة. وقد كان هدفه في ذلك التوصل إلى أول معلومة يقينية لا تقود للشك. وقد كان لا يشك بأنه يشك، ويخرج من ذلك بنتيجة أنّه موجود.

انهمك إحسان أفندي الطويل قرب وقت العشاء بعد أن انتهى من قراءة الترجمة في أفكارٍ عميقة تتعلق بما كتبه رندكار. ما من شك في أنه موجود طالما أنّه يفكر. لكن لا يمكنه بهذه الطريقة أن يثبت وجود أيّ شيء غير ذاته.

استعصى عليه حل المسألة فقرّر في النهاية أن يلجأ للنوم للوصول إلى جواب. فتمدّد على سريره بعد أن أضاف سبعة قطرات من مشروب النوم الأخضر إلى كوب من الماء وشربه بعد أن خلطه.

في حلمه وجد نفسه في صحراء شاسعة ليس لها أول ولا آخر. خُيّل له أنّه مشى على رمالها في شقاء لأسابيع. رأى من بعيد بحيرة صغيرة على سفح تلة رملية فحث الخطى نحوها حتى يروي ظمأه. وعندما وصل وجد أنّها لم تكن بركة ماء، بل مرآة. كان النمر بجانبه يلعق المرآة كأنه يشرب ماء ويراقبه بطرف عينه وكأنّه مصمّم على أن يسدّ جوعه أيضًا بعد أن ينتهي من ريّ عطشه. لكنّه لم يخف، فقد كان يعرف أنّه مجرد حلم. جثى على ركبتيه وراح ينظر للمرآة، فرأى فيها وجه ابنه بنيامين مكان وجهه. فردّد لنفسه «هذا حلم، لا يمكن أن أشك بأنّه حلم. أنا أحلم، إذًا أنا موجود. أنا موجود، ولكن من أنا؟»

مع بدء أذان الفجر قام من فراشه وغسل وجهه ويديه. وبينما كان أمام المرآة يحف شاربه بالمقص وفق السنة الشريفة شغلت عقله فكرة أنّ النومَ يقظة، وأنّ الأحلام هي الواقع والحقيقة بذاتها. وربما يكون قد غطّ في نوم لما استيقظ وفتح عينيه للدنيا وتمطّى قبل قليل. إذا كان هذا صحيحًا، فإن كل ما يراه الآن عبارة عن حلم. وسواء كان ما يراه حلمًا أو حقيقة، فلا يمكن في الحالتين سوى إثبات وجود الرائي، حيث يكون هو موجودًا بصفته الشخص الذي يرى كل ذلك. ردّد بينه وبين نفسه: «أنا موجود كما يقول رندكار. حسنًا ولكن من أنا؟ المرآة تخبرني بأنّي إحسان أفندي الطويل. من أنا؟ من هذا الذي يرى كل هذا؟»

غرز مقصه في لحمه سهوًا بينما كان غارقا في أفكاره فسال منه دم غزير.

ولكنه لم يشعر بأيّ ألم، ممّا عزز من عمق أفكاره. فاقترب من مجمر الشواء الذي أشعله بنيامين قبل الأذان وأخذ يتأمّل الجمرات وهي تشتعل في هدوء. تناول جمرة بحجم حبة البندق بالملقط، وأطال إليها النظر ثمّ وضعها في كفّه فانتفخت بالسوائل وانقسم خطّ الحياة(44) فيها إلى نصفين. فألقى بها إلى المجمر. لم يكن يشعر بأيّ ألم.

نزل إلى الأسفل وجدّد وضوءه ثمّ ارتدى ملابسه وخرج من البيت، ولم ينس أخذ إبريقه معه. ملأ الإبريق من إحدى سبل الماء على جانب الطريق الممتد من بوابة الميت إلى المقبرة الواقعة في قاسم باشا(45).

هناك توقف عند قبر قديم وسقى تربته ثمّ قرأ الفاتحة. ثمّ نشر على التربة بذور زهرة داتورا صفراوية كانت ملفوفة في قطعة قماش. بعد ذلك استخدم تلك القطعة في تنظيف شاهد القبر من الغبار والتراب العالقين به. لمّع عبارة «آه من العشق» المكتوبة على الشاهد، ونقش سيف البحارة البارز بأسلوب ماهر، وعبارة «سيّد السبعة ميادين والاثنين والسبعين أتونًا». وقبل أن يحين وقت الظهر ابتعد على عجالة عائدًا إلى غلاطة دون أن ينظر خلفه حتى. ولمّا وصل إلى بيته صعد إلى غرفته وانهمك في إتمام الأطلس الذي كان يعمل عليه منذ مدة طويلة.

* * *

«هل أنت أبي حقًا؟ من هي أمّي إذن؟» من أنت؟ ومن أنا؟ كيف تُدبِّر مصاريف البيت؟ من أين تأتي بالأقجات التي تعطيني إياها عند ذهابي إلى البازار؟ وكيف تعيش لأيام وليال من دون أكل؟ من أنت؟»

كانت هذه هي الأسئلة التي لم يفلح بنيامين في أن يتشجع ويوجهها لأبيه

قط. إذا لم يجد لها إجابة فإنّ العالم الغريب التي يعيش فيه لن يتعدى أن يكون مجرد فراغ كبير مزين بالألوان الزاهية.

لذلك أخذ يتعقّب أباه الذي لم تكن له مهنة ويراقبه خفية ويفتش ثيابه لأيام. لكنّه لم يره يأخذ مالًا من أحد، كما لم يجد في مكان خفيٍ بالبيت صندوقًا مليئًا بالنقود. كانت صرّة أبيه مليئة دائمًا بالأقجات مهما صرف منها ما صرف. وفوق ذلك كان يدّعي بأنه أبوه رغم أنّه يبدو في عزّ شبابه. وقد كانت هوية أمّه أيضًا لغزًا آخر.

في إحدى الأماسي أزعجه هذا الغموض وضيّق صدره وأرّقه، فقرر أنّه حتى ينام سيشرب من مشروب النوم الخاص بأبيه. ملأ كوبًا حتى آخره بالمشروب الذي كانت عشرون قطرة منه تكفي لتنويم ثور لثلاثة أيام وشربه جرعة واحدة.

رأى في حلمه غرفة نومهم. كان شعاع الشمس المتسلل من نافذتها يضرب سطح الإسطرلاب اللامع. شعر بأنه يطير فارتفع نحو السقف ورأى بالأسفل السرير الذي ينام عليه أبوه. وقد أعجبته تجربة الطيران فانعكست على محياه ابتسامة وهو نائم. رأى في الغرفة سريرًا آخر فهبط من مستوى السقف ونظر إلى النائم عليه فوجد أنه كان جسده هو وعلى وجهه ابتسامة عذبة تلفت الانتباه. وحتى يستمتع بالطيران لأقصى درجة، ترك جسده في الأسفل وارتفع إلى السقف مجددًا. وبعد مدة قصيرة فكّر بالخروج من النافذة فتسرّب مارًا من بين قضبانها كدخان وطار نحو البدر المكتمل. كان يرى القسطنطينية من علٍ لأول مرّة في حياته. تجاوز المضيق واصلًا إلى أسكودار. وطار سابحًا تحت القمر تاركًا برج الفتاة خلفه ثم دخل من إحدى نوافذ القصر. كان المكان الذي دخل إليه غرفة نوم، كان فيها أميرٌ شديد الجمال ينام على وسائد من الريش. سرح وهو

يتأمله حتى فُتح باب الغرفة فجأة، ودخل ثلاثة رجال، اقترب أحدهم من السرير وغرز فيه خنجره اللامع تحت ضوء القمر ثمّ خرجوا بسرعة. عندها شعر بنيامين بوجود أحد معه في الغرفة. كان ذلك الأمير الذي فارق جسده وراح يحلّق مثله. خرج الأمير من النافذة وأخذ يطير نحو السماء. حاول بنيامين اللحاق به ولكنّه اختفى بين النجوم خلال ثوان.

بدأت الديوك بالصياح وظهرت حُمرةٌ في الأفق الشرقي. طار عندها بنيامين نحو غلاطة ودخل من نافذة بيتهم فرأى أباه منكبًا على جسد ابنه النازف وهو يذرف الدموع. ها هو حلمه يوشك أن يتحول إلى كابوس. خلال فترة قصيرة بدأت الغرفة تمتلئ بالجيران بينما كان أبوه منهارًا ولم تعد به طاقة حتى للبكاء.

غُسلت جثته ووضعت في تابوت. كان يحلّق فوق الحشد ويتفرج عليه وهو يحمل التابوت إلى جامع العرب. صُدحت الصلوات وأُدّيت صلاة الجنازة، ثمّ حُمل التابوت على الأكتاف إلى مقبرة قاسم باشا. أمسك شخصان بذراعي أبيه المسكين الذي خارت قوى قدميه ليساعداه على المشي. سمع بنيامين وهو يحلق فوقهم كلمات أبيه التي رددها وهو يشهق: «إنّه ذنبي! كلّه ذنبي أنا! ابني المسكين، لم تَلِقْ به هذه المَوتة قطّ». كان لا يكف عن ترديدها ولا يعير كلمات مواساة وتعزية الرفاق أيّ اهتمام. وعند بلوغهم القبر المحفور لم يقو على التحمل أكثر فانهار مكانه.

ذعر بنيامين لما رأى جسده المكفّن. أنزلوه إلى الحفرة ووضعوا فوقه الأخشاب بشكل متقاطع ثمّ أهالوا التراب عليه بالمجاريف. انتهت المهمّة أخيرًا وبدأ الحشد يعود إلى غلاطة.

لم يبق بالمقبرة سوى بعض الزوار وساقٍ يبيعهم الماء. طار بنيامين نحو الساقي وصرخ به: «اسكب ماء على هذا القبر!». ولكنّه لم يسمعه. فلم ييأس وراح يصرخ بأعلى صوته ممزقًا حنجرته: «تعال معي واسكب ماء على هذا القبر!». توقف الساقي وتلفت حوله، ثمّ نظف أذنه بإصبعه الصغير. أدنى الفتى فمه من أذنه وهمس: «أرجوك، اسكب ماءً على القبر الجديد هناك. أرجوك!». فمشى الساقي إلى القبر الذي دفن فيه بنيامين وهو يتلفت يمنة ويسرة. كان صوت داخله يقول: «هيا، ماذا تنتظر!». فأخرج قربته وانحنى صابًا القليل من الماء. لكن الصوت كان يقول «هيا، اسكبه كله!». فسكب جميع ماء قربته مطيعًا ذلك الصوت.

أفاق بنيامين من حلمه وتثائب طويلًا. كان ما يزال تحت تأثيره. وكان ماء يقطر على وجهه من مكان ما. فتح عينيه ولكنه لم يرَ إلّا الظلام. سمع حينها داخله صوتًا يبعث بالأمان والطمأنينة يردد: «لا تخف، إيّاك أن تخف، ونفّذ ما أقوله لك!». فارتاح بنيامين لسماع هذا الصوت اللطيف المألوف. كان يقول له: «حرّر يديك أولًا، ولكن حذار أن تستعجل». فأخرج ذراعيه من الكفن. بعدها قال: «حرّك الخشبات الموجودة فوق خصرك من مكانها». فحركها وراح التراب ينهمر فوقه. فقال الصوت الباعث على الطمأنينة: «لا تحرّك الخشبات الأخرى وادفع بهذا التراب المتساقط نحو قدميك». امتلأت حفرة بنيامين تدريجيا بالتراب، لكنّ مساحة الفراغ لم تكن تتغير. استمر يتبع تعليمات الصوت ويحرك الخشبات الكائنة فوق رأسه واحدة بعد الأخرى مالئًا المساحة المتبقية بالتراب. وتمكن من الجلوس أخيرًا لمّا حرك الخشبة الأخيرة. عندها بدأ يدفع بجسمه نحو الأعلى مع حذره من أن يغطي التراب المنهمر قدميه. لكنّ التراب غمره فجأة حتى ركبتيه، ثمّ بلغ خصره. ولأنّ التربة فوقه كانت مبلولة، لم يكن اختراقها بتلك الصعوبة.

رفع يده إلى الأعلى فخرجت إلى دفء الشمس. ثمّ رفع ركبته اليمنى مستندا بيده على الأرض ورافعا رأسه فوق التراب بدفعة أخيره من طاقته، فخرج للشمس أخيرا ونجى من الموت بعد الدفن حيًا.

رأى الجالسون في القهوة المجاورة لبوابة الميّت(46) مجموعة من الناس تركض نحوهم في ذعر وهلع. ولمّا وصلوا إلى القهوة تساقطوا على الأرض واحدًا تلو الآخر. كانوا يرتعدون وتصطك فكوكهم. كما كانت شعورهم بيضاء ومنتصبة وألوانهم شاحبة ووجوههم وأيديهم ملبوكة. تمكّن أحدهم ممن لم ينعقد لسانه أن ينطق مسندًا فكّه بسبابته قائلًا: «غول! غول!». سقى المتواجدون في القهوة المنتفضين ماءً وأجلسوا من لم تحملهم أقدامهم منهم على المقاعد. كما شمّموا من شُلّت وجوههم روح النعناع. فجأة وبينما هم منهمكون في ذلك ظهر شاب بجسد عارٍ معفّر بالتراب يمشى ناحيتهم، ففرّ كلّ من كانوا في المكان كفراخ الحجل.

مشى الشاب سالكًا طريق فلاد(47). ولمّا مرّ من جانب كنيسة إركانونلو انقطعت الأناشيد الإلهيّة فجأة، أزاح الرهبان الستائر قليلًا ثمّ رسموا إشارة الصليب على صدورهم عندما شاهدوا الغول. وعندما وصل إلى بوابة ميخائيل صادف رئيس العسس ورجاله. كان أحد الإنكشاريين ممسكًا بحكيم يهودي من قفاه حتى يفحص لهم الغول ويخبرهم ما إذا كان حيًا أم ميتًا.

أحاط الإنكشاريون والمشامل في أيديهم ببنيامين، ودفعوا بالحكيم ممتقع الوجه نحوه. اقترب المسكين الذي ابيض شعره من بنيامين وأمسك بمعصمه لا لشجاعته ولكن لأنّ خوفه من مشاملهم يفوق خوفه من الغول. عندها

تنفس الصعداء وقال: «ليس غولا، فقلبه ينبض، المسكين دفنوه حيًا». فأنزل الإنكشاريون مشاملهم.

لكن من أرادوا التأكد ممّا يقوله الحكيم اقتربوا من بنيامين، وراحوا يجسّون نبضه ويقرصونه من أماكن مختلفة. فجأة هوى الشاب بصفعة عثمانية(48) على وجه غلمنجي كانت نيته مختلفة. عندها قُبل ذلك كأكبر دليل على أنّه حيّ. فتوقف فتوّات البلغار عن سنّ خازوق كانوا ينوون غرزه في صدره.

ذهب بنيامين إلى بيته المجاور لخان الشراعيين، ومن خلفه حشد كبير يتبعه. وجد المعزّين في الداخل يقرأون القرآن لأجله. صعق إحسان أفندي الطويل لما رأى ولده أمامه وخنقته العبرة من الفرح. وفورًا قدم له من الحلوى التي أمر بتجهيزها لمناسبة عزائه، ظانًّا أنّه جائع حتمًا. كما لم يفته أن يتخلّص لاحقًا من مشروب النوم الأخضر بسكبه في الفناء أسفل شجرة الجوز.

سيكتشف أهل الحيّ في السنة التالية أنّ الأطفال الذين يأكلون من جوز هذه الشجرة يكفّون عن الشقاوة والاستيقاظ في منتصف الليل للصياح والبكاء. وبعد مدة من الزمن تعرّضت الشجرة التي عمت شهرتها أرجاء القسطنطينية للقطع بأمر فرمان سلطانيّ خوفًا من تسببها بتنشئة جيل نوّام بدلًا من جيل شجاع بطل.

بعد عدّة أيام زار بنيامين أرمنيٌ يدعوه الجميع واردابيت. والذي كان في زمن مضى صبيّ مذبح كنيسة في غلاطة. كان قسيس كنيسته قد نذر أن يحجّ إلى القدس ولكنّه احتار في كيفية اختيار من ينوب عنه في غيابه. فقد كان لا يثق بأيّ من الرهبان، ويخشى أن يستغلوا الكنيسة لأعمالهم القذرة. لذا قرر

في النهاية وبموافقة من يعلونه مقامًا أن يمتحنهم بحيث يختار أكثرهم تحملًا للمحنة والمعاناة -أي أشدّهم تدينًا- لينوب عنه.

كان سيُقفل على المرشحين للامتحان في حجرات لمدة أربعين يومًا، ويفوز أقلّهم استهلاكًا للطعام والشراب خلالها. وقد كان واردابيت أحد هؤلاء المرشحين التسعة، ولكن باسم مختلف حينها. شُدّت الأبواب بالطوب بعد دخولهم لحجراتهم. وتركت عند الباب كوّات صغيرة لتسليم الخبز والماء ولوازم قضاء الحاجة كبيرها وصغيرها.

استهلك واردابيت في أول أربعة أيام فقط أربعة خبزات من الصمّون وثلاثين كوزًا من الماء وكأسًا من الخمر. وقد جعله ما أظهره من ذلك الشغف بملذات الدنيا في البداية يصغر في أعينهم كثيرًا.

لكنّه في الأيام التي تلت، وعلى عكس ما كان مُتوَقَّعًا، لم يطلب شيئًا. واستمر على تلك الحال حتى اليوم التاسع والثلاثين. لدرجة أنّ مسؤولي الكنيسة قلقوا بشأن صحته. لكنهم عندما كانوا يسألون عن حاله كان يجيبهم بصوت مستصح متعافٍ. وبدا بذلك أنّه هو من سيفوز. ففرح لذلك رجال الدين وأخذوا يرددون وفي أعينهم دموع مقدسة: «لقد رزقنا بقديس جديد!».

لكن المسألة لم تكن كما تبدو أبدًا. لأنّ واردابيت كان قد خلع صخرة الأرضية بقلادة صليبه وحفر نفقًا إلى الخارج. وكان يخرج من الكنيسة إلى حانات طوبخانه حيث يأكل فيها ويشرب ثمّ يعود إلى حجرته من النفق ويعيد الصخرة مكانها.

لكنّه في اليوم الأخير وخوفًا من أن يشتبهوا أنّ في الأمر حيلة، وحتى يُكسب

الأمر بعض المصداقية، طلب خبز صمون وخمرًا. مع أنّه في الليلة الماضية كان قد أكل مقدار قدر كامل من الكباب كثير الشحم.

في اليوم الأربعين، وفي أثناء هدم الجدران عن بوابات الغرف، قرقرت بطنه لكثرة ما أكل من الكباب. حاول أن يتماسك، لكنّ الهدم استمرّ طويلًا جدًّا. وحين دخل القسيس ليهنئه كان بالكاد يستطيع أن يقف مستقيمًا. وما زاد الطين بلّة أنّهم كانوا قد جهزوا حفل استقبال وتكريم له. شعر بأنه لن يستطيع أن يمسك نفسه أكثر. وأثناء أداء المراسيم وإنشاد الفرقة الدينية، وبينما كان على وشك تسم ختم الكنيسة، انفلت الزمام وتغوط على نفسه.

توقف الإنشاد وعمت الكنيسة جلبة وربكة. كان الجميع ينظر إلى القذارة المتساقطة من أطراف ثيابه. أمّا هو فقد ارتخى تمامًا قائلًا لنفسه: «لأفرغ بطني وأرتاح طالما خسرت كلّ شيء».

جحظت عينا القسيس وهو يرى ما حدث، وأمر بوزن القذارة فورًا. مُزّقت قطعة قماش إلى نصفين متساويين ثمّ غُمس نصف في القذارة جيدًا ووُضع في كفة ميزان. ووضع النصف الآخر في الكفة الأخرى لقياس الفرق. كان وزن القذارة بذلك 345 درهمًا(49). مع أنّ خبز الصمّون الذي أُعطي له البارحة وزنه 30 درهمًا فقط.

حاول واردابيت إقناعهم بأنّه أمسك نفسه عن التغوّط لأربعين يومًا. لكنّ القسيس تفضل آمرًا بتفتيش الحجرة عندما رأى بقايا قدر الكباب من بقدونس وبذور طماطم. وفي فترة قصيرة اكتشف الرهبان النفق وطُرد واردابيت من الكنيسة.

أخذ صبيّ المذبح المطرود يبحث عن مصدر رزق جديد. ولاعتقاده بأنّه ماهر في حفر الأنفاق قام بالانضمام إلى فرقة اللغمجية(50) (حفّاري الأنفاق) التي تدفع للحفّارين تسعة أقجات في اليوم. وشارك بعدها في حصار الكثير من القلاع، وتعلم حفر الأنفاق تحت الأسوار، وحساب طول الفتيل الذي يشعل البارود، وأماكن وضع الدعامات التي تسند النفق.

لكن في مرّة، وأثناء حصار إحدى القلاع، انهار عليه نفق عمقه ستة أبواع، وقد أُنقِذ وأُخرِج يومها من تحت الأرض بأعجوبة بعد أن ابتلع الكثير من التراب وعلقت حصاة في قصبته الهوائية.

من يومها وهو يحمل في صدره تلك الحصاة التي تتحرك في مكانها مع كلّ شقيق وزفير. ولم يجد حتى الخبراء من الحكماء لمشكلته حلًا. كانت قرقعة الحصاة في صدره تزعجه وتمنعه حتى من النوم. لكنه بعد أن ترقّى في مرتبته وأصبح أكبر مخضرمي اللغمجية من بعد اللغمجي باشي (قائد اللغمجية) استطاع تقبّل هذا الصوت كجزء منه.

عندما شاع خبر تجهيز حملة غزو نحو الغرب أبلغه قائد اللغمجية بالأمر، وطلب منه أن يتجهز ويفعل ما بوسعه ليسدّ نقص فريقه إن كان فيه نقص.

كان معظم العاملين تحت إمرته جبناء متردّدين. فالعمل كحفار تحت الأرض له الكثير من المخاطر، كأن ينهار النفق فجأة أو ينفجر البرميل قبل التمكّن من الهرب بعد إشعال فتيله. كما أنّه من الصعب اعتبار من يموت بسبب إحدى هذه المخاطر شهيدًا لأنّه لم يمت في ساحة المعركة حقًّا.

ومع أنّه يظهر بين الحين والآخر من يتحمّسون للانضمام، إلّا أنّ أعصابهم لم

تكن قوية لتحمّل العمل تحت الأرض. كما كان واضحًا أنّهم سيهربون تاركين واردابيت وحده في أول مرّة يعيشون فيها خوف الدفن أحياء.

لهذا السبب توجّه واردابيت فورًا إلى بيت الرجل الذي سمع أنّه خرج من القبر سالمًا بعد دفنه حيًّا. كان صوت قرقعة حصاته يُسمع وهو يتنفس أثناء شربه لقهوته. سأل بنيامين: «ما رأيك أيّها الفتى؟ إنّه عمل يناسبك تمامًا. كما أنّ أجرته جيّدة. ولا خوف فيه من طعن ولا عراك. هم يتعاركون بالأعلى ونحن نضرب بمعاولنا في الأسفل بهدوء. وعند بلوغنا لأساسات السور نملأ البارود ونشعل الفتيل. ثمّ نعود ونشرب قهوة تعبنا ونتفرج على الانفجار من بعيد. وعندما نعود إلى هنا سالمين تحكي ما عشته لأصدقائك مع بعض التمليح والتبهير».

أشعل واردابيت في الفتى روح الحماسة بعد أن جرّب معه كل الحجج وطرق الإقناع. لكنّ الفتى امتنع عن قول رأيه احترامًا لوجود أبيه. فقال إحسان أفندي الطويل: «أعرف أنّك ترغب بالرحيل عن هنا يا بني. ربّما لو أنّي ضبطت نفسي لما جعلتك تخوض هذه المغامرة التي أصبحتَ وسطها منذ زمن. صحيح أنّ حبّي لك يا ابني الوحيد يمنعني من أن ألقي بك إلى التهلكة. ولكن ما من سعادة أكبر من سعادة التعلّم والمشاهدة. كما أنّ المغامرة يا ولدي عبادة جليلة لم أر أفضل منها للتعرّف على خلق الله. أما أنا فقد حاولت أن أستكشف الدنيا في أحلامي. وقد يكون هذا دليلًا على جبني. لكنّي لا أريدك أن ترتكب نفس الخطأ. لذا فأنا آذن لك؛ بإمكانك الذهاب. اذهب وشاهد ما لم أشاهده، والمس ما لم أستطع لمسه وأحبب ما لم أستطع أن أحبّه، بل وتحمّل آلامًا لم يجسر أبوك على تحمّلها. ولا تخف من الدنيا ولا من أحوالها الكثيرة المتغيّرة».

أخرج الأب بعد أن أنهى كلامه من داخل قميصه كتابًا غلافه من الجلد المدبوغ.

كان ذلك أطلس العالم الذي تمكن من إنهائه ليلة البارحة. ثمّ مدّ به لولده قائلًا: «أستأمنك على أطلس الخيال يا بني. احمله دائمًا معك وقلّب صفحاته كلّما ضللت طريقك. ولكن حذار أن تغرق فيه تمامًا. بل ركّز على قراءة الكتاب الآخر الذي نسمّيه العالم».

قبّل بنيامين يد أبيه بعد أن أخذ منه الكتاب وحشره في صدره. وقد غضب واردابيت لمّا رأى الابن اقتنع بسهولة وراح يعانق أباه ويذرف الدموع، وهو الذي كان قبل قليل يحلّي الكلام ويبذل جهدًا بالغًا لإقناعه.

قال واردابيت: «أبوك محق يا ولد. سيغبطك أصدقاؤك عندما نعود بصحة وسلامة لتحكي لهم مغامراتك. والآن ودّع أباك واجمع بقجتك ثمّ تعال إليّ قبل حلول المساء. سأكون بانتظارك في القهوة الكائنة تحت شجرة الدلب في قاراكوي. سنذهب من هناك بالزورق إلى قائد اللغمجية لتقبّل يده. وبمجرد تجنيدك ستبدأ باستلام أقجاتك واحدة تلو الأخرى. مع ذلك خذ معك القليل من المال احتياطًا. لأنّهم يقولون أنّ الحملة ستستمر طويلًا».

وقت أذان المغرب شعر إحسان أفندي الطويل بوحدة شديدة بعد أن رحل بنيامين بمدّة. لذلك خرج تاركا عليباز الذي ظنّه نائمًا بينما كان في الحقيقة يراقبه بفضول من تحت لحافه. أشعل فانوسه عندما اشتدّ الظلام وصعد المنحدر الصعب ثمّ نظر إلى ضفة الخليج المقابلة. واستمرّ بمراقبة المنظر حتى منتصف الليل رغم الصقيع الجافّ.

كانت القسطنطينية متمددة تحت ضوء القمر كظل عملاق نائم. في تلك اللحظة التي كانت المدينة فيها نائمة، وفي وقت رؤية الأحلام وتحقق الكوابيس

وخنق الأمراء وتمرير الرشاوى وتوقيع الاتفاقات السرية ووضع أنواع السموم في المشاريب، كان في غرفة الأمانات المقدسة بالقصر حافظ ذو صوت شجيّ يرتّل القرآن في خشوع مغمضًا عينيه في إدامة للعادة التي استمرّ عليها سالفوه لمئة وستين عامًا دون انقطاع.

***

بقي إحسان أفندي الطويل بعد أن ذهب بنيامين مع اللغمجية في البيت مع قرد وطفل. لم يكن عبؤه خفيفًا أبدًا، لأنّ عليباز ومشتري كانا يتشاركان في الشقاوة ويجعلان عالي البيت سافله. لذلك قرّر أن يسجّل الولد في مدرسة الحي ويجعل منه مسؤولية المعلم. بذلك يصبح له وقت يرتاح فيه قليلًا، كما أنّ الولد يعود منهكًا بعد اللعب والصراخ طوال اليوم وقد تعلّم شيئًا من العلم والعرفان.

كانت تلك المدارس تسمى بالمدارس الحجريّة، لأنّها بُنيت بالحجارة لحمايتها من الحرائق المتكررة في تلك العهود. كانت تبقى سالمة حتى بعد أشدّ الحرائق جهنّمية. ولأنّها لم تكن تتحول إلى رماد كالبيوت الأخرى، لم يكن الأطفال يحظون بأيّ إجازات اضطرارية.

إذا كان في الحيّ الواحد مدرستان فعادة ما تكونان في حالة عداء متواصل تشمل المعلمين والمساعدين والطلبة من الطرفين. ولا يعرف أحدٌ من بدأ هذه العداوة، لأنّها مستمرة منذ مئة سنة على الأقل. كما كانت تزداد حدّة مع الزمن وتُتوارث من جيل إلى جيل.

كان المعلمون والمساعدون يخبرون الطلبة الجدد، كأنّما لو كان كلامهم سرًا، أنّ المعلمين والمساعدين في المدرسة الأخرى مقززين، مخاطهم سائل وكلّهم جروح

وقيح، وأنّهم يردّدون في الليالي دعاء يضائل حجمهم مئات المرات حتى يأكلوا قلوب الأطفال ويحوّلوهم إلى عفاريت مثلهم.

أحيانا كان المعلم يكتب هجاءً مليئًا بأقذع الشتائم، ثمّ يختار طالبًا كان يتربّص به الأذى ليرسله للمعلم في المدرسة الأخرى. وعندما تصل ورقة الهجاء للمعلم الآخر تثور ثائرته ويطرح الطفل للفلقة، لكنّ الطفل يُعلن بطلًا عندما يعود إلى مدرسته بقدمين متورمتين. أحيانًا كانت تُكتب حروب دينية بدلًا من الشتائم. بحيث يقف أطفال الفريقين في مواجهة بعضهم في ساحة محترقة أو أرض براح أو في أحد البساتين، ثمّ يبدأ أجهرهم صوتا بقراءة الدعاء على الطرف الثاني ويردّده معه الآخرون.

كان المساعدون إذا ما صادفوا بعضهم في الطريق يكتفون بالتلاسن من دون عراك. أمّا المعلمون فقد كانوا يتحاشون مثل هذه الأفعال. ولكن ليس من النادر إعطاؤهم لأحد جنود البحارة أقجتين أو ثلاثة ليقوموا بأذية خصومهم عنهم.

كانت القراءات خانات(51) أماكن تأمين دخل إضافي متواضع للمعلمين بعد نهاية دوامهم في المدارس الحجرية. حيث كان يقوم فيها رجل جهوري الصوت ومجيد للقراءة بقراءة كتاب استأجره القهوجي من أحد الصحّافين بصوت عالٍ بينما يتربع أهل الكيف على الأرائك ويجثمون على المقاعد أو يتمدّدون على الحصير. يشعلون غليوناتهم ويرتشفون قهواتهم وينصتون باستمتاع لسِيَرِ البطال غازي(52) وحضرة سيدنا علي وكنج عثمان.

كان إظهار أحدهم لعدم كفاءته بأن يتعثّر ويتلعثم عند حرف أو يبطئ في القراءة في المقاطع الحاسمة، كالتي يتسلق فيها زيال زولبجداوغلو الأسوار

ويتلقى جسده عشرين سهمًا دفعة واحدة، يُخرِج مرتادي القهوة الذين بلغ حماسهم ذروته عن طورهم ويفسد لهم كيفهم. لذلك كان المعلمون الذين قرأوا هذه الكتب وختموها مرغوبين في هذه المقاهي.

كانوا يذهبون بعد نهاية الدروس للمقاهي التي اتفقوا معها ويستقبلهم فيها مداومو المقهى الذين يرغبون سماع نهاية الملحمة البطولية باحترام وإجلال. كانوا ينتظرون انتهاء المعلم من شرب قهوته المجانية بصبر نافذ حتى يعرفوا ما إذا كان الساحر سيُحيي ديلكوشي الذي قُطع رأسه، ويسوقون أثناء انتظارهم أنواع التخمينات والتوقّعات. وعندما يفتح المعلم الكتاب على الصفحة التي توقفوا عندها ويبدأ بالقراءة تنقطع أصواتهم وأنفاسهم.

يحدث مثلًا أن يتوقف القارئ فجأة لفاصل قصير عندما يبلغ مقطع هجوم بيسولّاب نقاربرزَن على أسوار تبريز شاهرًا سيفه تحت نيران البنادق، ويشرب رشفة من قهوته بهدوء. وبهذه الطريقة يثبت للموجودين الذين بلغ بهم الحماس أوجه قَذره ومقامه.

قبل أن يجد بنيامين تلك العملة المنحوسة بزمن طويل، كان في إحدى تلك المقاهي صبيّ متدرّب يتيم ومسكين. كان قد قرّر أن يتعلم القراءة بعد سماعه المتكرر للملاحم البطولية أثناء توزيعه للقهوة وإشعاله لغليونات الزبائن. وقد لاحظ أحد المعلمين شغفه بالعلم والمعرفة في كتب الملاحم فعلّمه القراءة في زمن قصير. ولمّا بلغ الصبي مرحلة الشباب أخذه إلى المدرسة الحجرية كمساعد له. فأصبحت وظيفة الشاب طرح الأطفال الأشقياء للفلقة وتقليد من تخطّوا مرحلة التهجي إلى مرحلة القراءة بحقيبة الجزء(53). ولكن ما كان يلهب روحه بالحماس حقًّا الملاحم البطولية وقصص المغامرات.

كان يقرأ بشراهة في الكتب التي يكتريها من الصحافين حالم البارودي الذي أُلقي به بالمدفع إلى خلف صفوف العدو، وزرقان مُنهيالوغلو الذي قتل الكافر لومبروسو المرتدي لدرعين فوق بعضهما بسكين ألقاها عليه، وميتاسيب شهرنبرجزي الذي خلع باب قلعة مصنوع من خشب الأبنوس بضربة من كتفه، وتيمور الذي كانت هتافاته تهزّ الجبال وهمقمة الكتائي بأفياله المرعبة، ويغوص عميقا في خيالاته.

في النهاية قام بتشجيع من معلمه بكتابة قصص مغامرات. وقد تدبّر أمر وسطاء ومرتشين وتمكّن من عرض كتابه على السلطان. فكافأه السلطان بعشرة ذهبيات تشجيعًا له وخاطبه بـ «ولدي» وأحسن له بأن عيّنه معلمًا في مدرسة حجرية في غلاطة. لكنّ عقل هذا الحالم شُغف بكلمة «ولدي» التي قالها الدَولَتلو(54).

كان ما يزال يفكر في ما إذا كان ابن السلطان أم لا لمّا بدأ مزاولة عمله الجديد. وهذا المعلم الذي كان كأنّه يخبئ سرًّا تحت نظراته السارحة هو نفسُه من سلّمه إحسانُ أفندي الطويل عليباز قائلا له: «لحمه لك وعظمه لنا».

كان غارقًا في عالم الخيال لدرجة أنّه بدأ يعتقد بأنه أمير حقًّا، وبأنّ والده السلطان قد أبعده من القصر لحمايته من الدسائس والمكائد، وبأنّه في يوم ما سيضمّه إليه ويرعاه.

بينما كان عليباز يقبّل يده كان عقله ما يزال في الورقة التي أُرسلت من المدرسة المجاورة قبل قليل، والتي كان فيها هجاء مكتوب على وزن فاعلاتن فاعلاتن فاعلن. وقد طُرِح الولد الذي جاء بها لفلقة معتبرة.

بينما كان عليباز يردّد الأحرف الثلاثة الأولى بالكسرة والضمة وغيرها، كان المعلم يفكّر بطريقة ينجو بها من هذه العبودية خارج القصر. وفي الوقت الذي طرح المساعدون فيه الولد للفلقة لقصّه ريشات الحبر بالمقص كان المعلّم يفكّر أنّ معلم المدرسة المجاورة يعرف أنّه أمير في الحقيقة، وأنّه مُستأجر من قبل أعداء الدولتلو أبيه.

قلّد المساعدون عليباز حقيبة الجزء بعد أسبوع من تعرضه للضرب على يد أطفال المدرسة الأخرى ثمّ جمعه لأصدقائه والانتقام من بعضهم. كان تقلّده للحقيبة أثناء قراءته لجزء عمّ يعني أنّه تخطى مرحلة هجاء الأحرف إلى القراءة. وضع المعلم على كرسي مصحف الولد كتاب مغامرات مؤكّدًا بذلك أنّه قد أتقن القراءة. والذي كان عبارة عن مختارات من قصص مغامرات بطل الطوران أفراسياب.

كان الكتاب يحكي صولات أفراسياب وبطولاته في فتح العالم؛ كيف أنّه مثلًا عندما عطش جنوده في الصحراء أمرهم أن يصطفّوا أمامه وبيد كلّ واحد منهم حجر بحجم القبضة، ثمّ ملأ قِرَبهم بعصر الحجارة وإخراج الماء منها. وكيف أنّه أنهى حصار مدينةٍ بعد فتوحات دامت ثلاثين سنة وعاد لعاصمته لينقذها من هجوم قائد شرس، واكتشف أنّ عاصمته هي المدينة التي كان يحاصرها، واستنتج بذلك أنّ الأرض كرويّة. وكيف أنّه كان بوسعه الرؤية في الظلام الدامس وكأنّ الوقت نهار. ويحدّق في الشمس من طلوح الفجر حتى الغروب دون أن تدمع عينه. ويحرّك السيف الثقيل بنفخة من فمه.

بعد ثلاثة أيام انتهى الكتاب الذي كان جميع الأطفال في درجة القراءة

يقرأونه بصوت عال. وأصبحت بطولات أفراسياب جزءًا لا يتجزأ من خيالاتهم وأحلامهم. كانوا بمجرد خروجهم من المدرسة يتجمعون في أرض خارج أسوار غلاطة، يلوون ويثنون أغصان الأشجار ويجففونها على النار صانعين منها أوتارًا، ويربطون الريش الذي نتفوه من الدجاج بسهامهم مجهّزين أنفسهم ليصبحوا أبطالًا. يملأون حقائب الجزء بالحجارة ويزينون الرماح التي صنعوها من أغصان الأشجار المستقيمة بشعرات الخيول. كان لمعظمهم مشامل من قطع الصفيح التي كان يلقي بها صناع المضخات عند تنظيفهم لدكاكينهم.

بعد أن أصبح لديهم العديد من الأسلحة فكّروا أنّه لا بدّ لهم أن يقوموا بحماية شيء، فبدأوا يقومون بدوريات في أطراف الحيّ. وقد كان مقرّهم في ساحة حريق مجاورة لبوابة العذاب الداخلية. هنا نُصبت الخيمة التي صنعوها برتق الخرق والأسمال التي جمعوها من هنا وهناك وخاطوها ببعضها. وكانت رايتهم الذي نصبوها بجانبها عبارة عن قطعة قماش بيضاء عليها يد حمراء. كان ذلك أثر يد عليباز التي غمسها في الحبر وطبعها على القماش.

كانت أحلام يقظة هذا الطفل الذي لا يرى أحلام الليل بسبب علّة الأرق تحمل آثار أفراسياب عليها. وكان في الأوقات التي لا يفكر فيها بالبطل الأسطوري يصارع أصدقاءه أو يفكّر في حيلٍ حربية.

وقد طاوع الشيطان في مرة وعلّم أقرانه ربط المسامير التي تباع عشرين حبة منها بأقجة واحدة بأسهمهم، فبرز بينهم وعلا شأنه. وقد أكبروه وأعجبوا به أيّما إعجاب لما جاء إلى المدرسة بحفنة بارود جمعها بتأنٍ من الطريق المؤدّي لمصنع البارود.

بعد انتهاء الدرس عادوا إلى مقر معسكرهم وفتحوا صندوق خزنتهم. ومن بين كومة الخردوات والتوافه أخذوا حافظة بوصلة نحاسية ومجموعة من الكرات الحديدية الصغيرة وعرق(55) مملوء في زجاجة مشروب نوم والقليل من الصمغ العربي.

وضعوا البارود مع الكرات الحديدية في الحافظة النحاسية وخرموا غطائها، وخلطوا العرق بالصمغ وسكبوه على قبضة بارود فصلوها عن البقية، ثمّ غمسوا خيطًا قطنيًا في هذا الخليط وجففوه في الشمس، وبهذا تمّ تحضير الفتيل والقنبلة. أدخلوا الخيط من ثقب الحافظة النحاسية وراحوا يتأملون ما صنعته أيديهم في ذهول.

حملوا أسلحتهم وراحوا يركضون باتجاه باب القلعة على طريق فلاد وهم يردّدون هتافات الحرب. وبعد أن تجاوزوا الخندق الكائن أسفل الأسوار رأوا في أحد البساتين أنقاض حائط ذاب وتآكل من أمطار السنين. حفروا أسفل حائط الطابوق هذا ووضعوا القنبلة ثمّ أشعلوا فتيلها وهربوا مختبئين خلف جذوع الأشجار. بعدها حدث انفجار كبير.

بعد أن تبدّد الدخان لم يظهر أيّ أثر للحائط. فذُعر الأطفال وهربوا دون حتى أن ينظروا إلى أصحابهم. فتّتت قوة الانفجار اتحادهم وبدّدت شملهم وأرعبتهم فداحة ما فعلوه، فتفرّقوا كفراخ الحجل.

عندما رآهم أهاليهم يتصرفون بأدب ولباقة جمّة عند عودتهم إلى بيوتهم وكأنّهم يخفون مصيبة ما اشتدّ قلقهم فاستجوبوهم وسألوهم عمّا إذا كان هناك إصابات أو أضرار. ثمّ تنفّسوا الصعداء عندما لم يحصلوا منهم على الجواب الذي

كانوا يخشونه.

بعد انتهاء درس اليوم التالي ذهب أشجع الأطفال إلى موقع الانفجار، وهناك أدركوا مقدار القوة التي يملكونها لما رأوا حفرة بعمق نصف باع، وأصبحوا يشعرون أنّهم مستعدون لفتح كلّ العالم.

جمعوا في اليوم التالي مصروفاتهم واشتروا من الحداد خمسًا وأربعين مسمارًا من الحجم الكبير ومئتين من الحجم الصغير، ثمّ قصوا أغصان الأشجار التي تصلح لصنع أقواس وأوتار وأسهم ورماح وعدّلوها بالخناجر والسكاكين. وبعدها ربطوا المسامير برؤوس السهام والرماح وألصقوا الريش المنتوف من دجاج الجيران بالسهام. كما جمعوا الغبار الرمادي المتساقط من البراميل أمام بوابة مصنع البارود بعناية في برميل صغير، بعد ذلك قاموا بتدريبات رماية ومصارعات واستعراضات رسمية.

ومع أنّ الجمعة هو يوم عطلتهم إلّا أنّ صبرهم النافذ جعلهم يرسلون إعلان الحرب إلى أطفال المدرسة الأخرى في يوم الخميس. وفي تلك الليلة لم يطرق النوم جفن أحد منهم من الحماس الشديد.

في الصباح المبكّر تقدّم جيش الاجتياح بأقواسه وحرابه وحقائب جزئه الملأى بالحجارة نحو حيّ الأعداء. وعند دخوله لمناطق العدو وجده متحصنًا في قطعة أرض. ولما هجم الجيش وهو يطلق صرخات الحرب تعرض لوابل كبير من الحجارة أصابت رؤوس وأجساد الأطفال. فحاولوا أن يردّوا بالحجارة، ولكنّ المشكلة أنّ الأعداء كانوا يتحصّنون في متاريس ضيّقة صنعوها من قطع الصناديق، كما كانوا يخرجون منها في هجمات مضادّة بين لحظة وأخرى.

كُسرت شوكة الجيش وانطفأ حماسه رغم كلّ استعداده وتجهيزه. خاصّة أنّه لم يعرف كيف يتصرّف عندما كان الأعداء يقفزون من المتاريس هاجمين برماحهم تحت غطاء حجارة أصدقائهم. حاولوا أن يهربوا لكنّهم وجدوا أطراف الطريق محتلّة؛ فألقى بعضهم حينها سلاحه وراح يبكي. ولكن حدث في تلك اللحظة شيء غير متوقع.

لمع بريق الخلاص في يد عليباز لمّا أشهر مشمله الذي كان يخبئه تحت ثيابه وكأنّه سيهوي به على رأس من يقترب. كان ذلك مشمل إحسان العربي الضخم المزيّن بالآيات الكريمة. أطلق صيحة الحرب «الله الله!» وكأنّ روحه اتحدت بروح الفتوّة إحسان، وهجم على المتاريس وحده، فشُلّ العدو الذي رأى المشمل اللامع ولم يستطع أن يلتقط الحجارة أو أن يسحب الأوتار وولى أدباره تاركًا مواقعه. وصل عليباز إلى خيمة العدو ومزقها بعدّة ضربات بمشمله الحاد كالموس وغَنِم صندوق خزانته.

أصبح بعد ذلك اليوم أسطورة بين أصدقائه. حيث لقبوه من حينها بالبطل عليباز، وبأفراسياب الذي هزم جيشًا بمفرده؛ هذا قائد المستقبل الذي سينتصر في كلّ المعارك ويفتح جميع القلاع والحصون والأبراج، هذا أفراسياب زعيم الأبطال وعدو الأشرار وحامي المستضعفين، فاتح الدنيا القادم والبطل المحمول على أكتاف الشجعان، المحارب المقدام الذي لا يحتاج درعًا غير الشجاعة، ولا سلاحًا غير الصرامة. أجل، ما من شك أنّه كان أفراسياب.

مع حماس وبهجة الانتصار وضع الأطفال في ذلك المساء أياديهم على رايتهم وتعاهدوا على أن يبذلوا أرواحهم في سبيل فتح العالم. ولم يكن عليباز في حاجة لفعل ذلك لأنّه طبع يده المغمسة في الحبر على الراية منذ البداية. وحتى

لو تخلّف البقية وتراجعوا عن عهدهم فإنّه سيستمر في العمل لهذه الغاية ما دامت الراية موجودة. كان واثقًا وجريئًا لدرجة أنّ أطفال الأحياء المجاورة توافدوا للانخراط في جيشه الذي كانت أسماء وسجلّات جنوده تدوّن بعناية في دفتر خاص.

كبرت الخيمة المنصوبة في أرض مقرّهم ووُضع داخلها عرش له. أصبح لديهم منذ الآن ثلاثة صناديق خزائن. وقد جرّبوا في الاجتماعات المنتظمة التي كانت تجرى في كلّ جمعة شرب الخمر في البداية، ولكنّه كان يمغص بطونهم ويجعلهم يتقيّأون، فاستقروا في النهاية على شرب عصير العنب.

كانت الأحكام التي تصدر في هذه الاجتماعات عجيبة لآخر درجة: فقد قرّروا مثلًا أخذ ضريبة قدرها عُشر ما يُربح من كرات البلّي(56) والحصى والكعاب(57) التي تستخدم في ألعاب الكعابة والكبوش والأورطة والطنب والكوينة الملعوبة في مناطقهم. أمّا الألعاب من قبيل تخمين المارّ وخطف المنديل والحجلة والزقطة والغميمة واليقطينة ويد على يد فسيُؤخذ عليها أجرة للمكان.

كان أيضًا من القرارات الصائبة التي اتّخذوها تسجيل جميع قوانين ألعاب الحدل من أجل منع الغش والظلم والتخريب، ومعاقبة من يخلّون بها. كُتبت قوانين الألعاب على الأوراق بعناية ورسم عليها ختم «خاقان الخليج والمضيق وحامي بوابات العذاب والميت وكوركجو وياغقاباني وقاراكوي وكيرّج وطوبخانه والقلعة وصاحب كل خزائن غلاطة، عليباز أفراسياب أوغلو(58).

***

في مساء أحد الأيام، رأى عليباز وهو في طريقه إلى البيت عائدًا من مقرّ معسكره الإنكشاريين وهم يجرجرون إحسان أفندي الطويل عنوة إلى خارج البيت. كان يرأسهم ضابط على طربوشه ريشة. فاختبأ في زاوية وراح يراقب ما يجري.

كان الإنكشاريون يلقون بكلّ ما في البيت إلى الشارع. من الواضح أنّهم كانوا يبحثون عن شيء ما. وبعد أن أفرغ البيت ممّا فيه وتراكمت أغراضه في الخارج راحت تصدر منه أصوات كسر أخشاب الأرضيات.

كان إحسان أفندي الطويل الموثقة يداه وقدماه بإحكام يتفرّج على ما يجري بلا حيلة، في الوقت الذي كان رجل يوزع الفؤوس التي أحضرها على ظهره على الإنكشاريين.

وبعد أن حطّموا الطابق العلوي دون أن يجدوا فيه شيئًا نزلوا إلى السفلي وسوّوا جميع البيت بالأرض. كان الضابط يلقي بالصفعة تلو الأخرى على وجه إحسان أفندي الطويل، ويجنّ جنونه وهو يرى عدم تأثير هذه الصفعات عليه، وكأنّه كان لا يحسّ بالألم.

ثارت ثائرة عليباز وهو يشهد ما يتعرّض له أبوه من تعذيب. فأخذ بعدها يتعقب الإنكشاريين بعد أن ربطوا رقبة أبيه المسكين بحبل وساقوه حتى قاراكوي ثمّ استقلوا زورقًا من هناك. لكنّه لم يعرف وجهتهم بسبب الظلام.

ركض من المرسى إلى المعسكر رأسًا وبقي طوال الليل في الخيمة وإحدى يديه على مشمله الشهير تحت ثوبه رغم جنّ وعفاريت وغيلان الظلام. وعندما

طلع الصبح أبلغ خمسة وأربعين ممن يثق بهم من جنوده الشجعان بما حدث.

لقد أزف وقت كفاحهم وجهادهم بضراوة في هذه الدنيا الظالمة القاسية. أخذ الخمسة والأربعون شجاعًا من الذخيرة أقوى الأقواس وأمتن الرماح وأكثر الأسهم استقامة، ووضعوا في كلّ حقيبة جزء قنبلة وقداحة وحرّاقة، ثمّ أشعل عليباز النار في الخيمة بعد أن أخذ الراية. بعدها راحوا يسيرون وهم يرددون هتافات الحرب خارجين من بوابة الميت. مشوا بمحاذاة الخليج متجاوزين جدول كاغدخانه حتى وصلوا في النهاية إلى حيّ أيوب الذي كان يشتهر بدكاكين بائعي الألعاب.

انفجرت فجأة قنبلة وسط أحد الدكاكين محدثة دويًا هائلًا جعل الموجودين يجنّون من الرعب. وانطلقت سهام مجهولة المصدر مصفّرة في الهواء ومنغرزة على أبواب الجيران الفضوليين. رأى من بالجوار في ذهول مجموعة من الأطفال تهجم على الدكان وتنهب ما فيه من الخشخيشات والبهلوانات وألعاب الركوب وغيرها من الألعاب. ولمّا انفجرت قنبلة أخرى ظنّوا الأمر هجوم مخربين أو مجرمين فأوصدوا أبوابهم ونوافذهم.

في نفس اليوم سُمعت أربعة انفجارات أخرى في مناطق بائعي القشطة والسكاكر. جاء رأس الضباط ورجاله إلى الحي، ولكن لم يجدوا لصوصًا ولا أشقياء مجرمين. غير أنّهم وجدوا في كلّ دكان منهوب طبعة ليد طفل مغمسة بالحبر.

تحت الأرض

ذهب بنيامين للقاء واردابيت بعد أن قبّل يدي أبيه وخرج. ثمّ سار برفقته إلى المنزل الفخم لقائد اللغمجية في أمينونو الذي كان من الأرمن المتحولين للإسلام. وبعد أن سجّل اسمه في دفتر الفرقة بات مع واردابيت وأربعة لغمجية آخرين في إحدى خيام المقرّ الكائن في داوود باشا. ورأى في منامه الإنكشاريين الغامضين مجدّدًا.

بعد أداء الاستعراض أمام القصر تحركوا في اليوم التالي برفقة الجيش الهمايوني(59) باتجاه أدِرنة التي كانوا سيقضون فيها الشتاء. لكن بعد عشرة أيام من وصولهم إليها في ذلك الشتاء الفظيع بلغهم أمر بالتحرك نحو صوفيا. وقبل أن يمضي أسبوع على وصولهم إلى صوفيا استدعى أحد الباشوات واردابيت وتفضل بأمره أن يجهز طاقمه ومعداته قبل طلوع الصبح. كان الباشا سيذهب برفقة أربعة أفواج إنكشارية من الجيش الهمايوني وكتيبة فرسان نحو وجهة لم يخبر بها أحدًا. ومن حاجته لقوات اللغمجية يُستنتج بأنه كان يخطط للاستيلاء على إحدى القلاع.

عندما طلع الصبح كان الجنود المُختارون لهذه المهمة المجهولة متردّدين ووجلين. فالحرب في منتصف الشتاء لم تكن بالشيء المعتاد أبدًا. لذلك وزّع عليهم الباشا فراء ومعاطف ولبادات وأحذية لباد حتى يزول قلقهم. لكنّ حركتهم أصبحت بطيئة وثقيلة عندما ارتدوها. اضطر عندها الباشا أن يعدهم بمضاعفة مرتباتهم، فعادوا بتثاقل إلى وحداتهم للاستعداد. أمّا واردابيت فقد كان يشتم ويلعن من اختاروهم لهذه المهمة الغريبة، ويردّد بأنّها ستكون في غاية الصعوبة

لأنّ الحفر في التربة المتجمدة شبه مستحيل.

بعد خروجهم من صوفيا، وعلى عكس ما كانوا يتوقعون، اتّجهوا صوب الشمال بدلًا من الغرب. كان غوص أحذية الإنكشاريين في الأوحال أثناء مشيهم يثير استياءهم وتململهم. لكنّهم بعد ثلاثة أيام من المشي تمنّوا لو يعود ذلك الوحل، لأنّ الأرض تجمدت. وبعد أسبوع بدأ الثلج يتساقط تدريجيًا فتفاقم امتعاضهم وتبرّمهم. وفي اليوم العاشر هبّت عاصفة ثلجية أصبحت على إثرها أياديهم تلتصق بالأشياء المعدنية من البرد.

بعد ثلاثة أسابيع من زحفهم دحرج انهيار ثلجي حدث أثناء عبورهم ممرًا جبليًا معه اثني عشر مدفع قولومبورنه، وانتهى بها المطاف في قاع النهر المتجمّد سطحه. ممّا عكّر مزاج الجنود الذين لم يتناولوا طعامًا ساخنًا منذ خمسة عشر يومًا، ووتّر أعصابهم. كان من الممكن للمسة خفيفة للآذان أو الشوارب المتجمدة أن تكسرها وتميت صاحبها في ذلك البرد.

كان حال من لمسوا البنادق والدروع وقذائف المدافع أو أيّ سطح معدني بالخطأ يقطّع القلب. فمدافع القولومبورنه التي تدحرجت نحو النهر مثلًا سحبت معها الرجال الممسكين بسلاسلها. لذا كان الإنكشاريون يغطون أيديهم بأكياس عند حملهم للأسلحة، ممّا كان يعرقل حركتهم لدرجة لا تصدق.

وقد كان من أهوال البرد الأخرى أنّ ستة من الفدائيين وقعوا في حفرة كان يغطيها الثلج. ولما أخرجهم الأخرون وجدوا وجوههم وأياديهم ملتصقة بدروعهم الحديدية. وقد حاولوا أن يخلصوهم منها ولكن بلا فائدة. فاضطروا في النهاية لأن يمسكوا برؤوسهم لتثبيتها ويسحبوا الدروع، فخرجت معها قطع

من لحوم وجوههم.

بعد ثمانية وعشرين يومًا، وبينما كانوا يسيرون وسط أحد السهول رأوا في الأفق الفرقة التي بعثوها للاستطلاع قبل ستة أيام، والمكوّنة من عشرين فارسًا. كانت متّجهة نحوهم بأقصى سرعة. لكنّ الفرسان تجاوزوهم مستمرين في طرقهم دون أن يتوقفوا، مما أثار حيرة وذهول الجميع. همز الفرسان خيولهم ولحقوا بهم. وبعد قليل عُرف السبب: فقد كانت الفرقة قد تجمّدت عن بكرة أبيها وهي نائمة على خيولها.

اعتبر الإنكشاريون ذلك نذير شؤم، ورفعوا راية العصيان في وجه الباشا. لكنّهم خمدوا لما أخبرهم بأنه سيضاعف مرتباتهم ثلاثة مرات ويدفع منها مقدما 140 ألف مَتَلِيك(60). لكنّه طلب منهم أن يعيدوها إليه عندما اقتربوا من القلعة ورأوا راياتها الملونة من بعيد فثاروا واحتجّوا. وهدأوا قليلًا لما وعدهم في فاصل استمعوا فيه إليه أن يعيد لهم ما يأخذه ضعفين.

نُصبت الخيام على بعد قذيفة مدفع من القلعة. وبعد استعداد الفرق أحضر الإنكشاريون قدورهم المشهورة ووضعوا فيها أرزًا وماء. ثمّ أذابوا شحوم إليات خراف ذبحوها وأفرغوها فوق الأرز. كما قطّعوا لحمًا ثمّ ألقوه في قدور الحساء.

وفي الوقت التي كانت قدور الحساء تُقلّب فيه بمغارف عملاقة بالكاد يمسك بها شخصان، كان الإنكشاريون قد أخرجوا ملاعقهم التي يحملونها في قبعاتهم وأخذوا ينتظرون أمامها والأطباق في أيديهم. وبعد مدّة ليست بالطويلة راحوا يلتهمون الأرز والحساء المغروفين في نفس الأطباق بشهية كبيرة.

كان عقل الباشا مشغولًا بمسألة أرّقت تفكيره. فقد كان يفكّر بأنّ الحصار

لن ينجح من دون مدافع القولومبورنه التي تدحرجت إلى النهر. فتفضل بأمر أن تُذاب عملات المتليك النحاسية التي وزعها فورًا، وقد كان هذا هو سبب استرجاعه لها منهم.

صنع السبّاكون أحد عشر قالب مدفع من خلطة مِلاط بياض ثلاثة آلاف بيضة فسدت منذ زمن. وأُذيب النحاس ثمّ صُب في تلك القوالب. بعد ذلك وُضعت المدافع على القواعد التي صنعها النجّارون.

بعدها أخرج الباشا من صرته الممهورة عشرين قالبًا لقصّ القروش كانت قد صُنعت في الضريخانه(61) وسلّمها للسباك، وأخبره بأن يذوّب المدافع بعد الاستيلاء على القلعة، ويقصّ من نحاسها 280 ألف قطعة نقدية بنصف وزنها الأول، ثمّ يختمها بالقوالب.

حول وقت الظهر اعتلى الباشا حصانه وأجرى مع مرافقيه جولة استكشافية حول القلعة. كانت قلعة عتيقة بُنيت على شكل نجمة ثمانيّة كما هي الأصول المعمارية التقليدية. وقد كانت ميزة هذا التصميم أنّه يمكّن من بالقلعة من استهداف من يحاولون تسلّقها من خلفهم. لكن الغريب هو أنّ زواياها الثمانية كانت تتعارض مع زوايا وردة الريح تماما، بحيث قد يشبّهها الناظر من الأعلى بقرص بوصلة. كان برجها الشمالي أكثر جهاتها استحكامًا، وقد كان العلم المرفرف فوقه أسودَ على عكس الأبراج الأخرى.

لاحظ الباشا بينما كان يتفحص الزاوية الجنوبية الشرقية أنّ حجارة أسوارها كانت مختلفة. فهذه حجارة الهرقوم بنيّة اللون التي تفتتها قذائف القولومبورنه بسهولة. وبذلك عرف من أين سيهجم.

ولكن فرمانًا جاء به رسول من المعسكر الرئيسي في أدرنة أحدث ربكة ولبسًا. فقد كان يتفضل بأمر أن يكون الهجوم من الشمال مهما كان الثمن. فغضب الباشا من عدم وضوح التعليمات وطلب ستة مدافع قولومبورنه ومدفعي دردنيل وفوجَي دعم إنكشاريين.

ولمّا أوشك حفر الخنادق والتحصينات الشاق في الأرض المتجمدة على الانتهاء جاء فرمان آخر شديد الغرابة من المعسكر. كان يتفضل بأمر حفر نفق تحت البرج الشمالي باتجاه الجنوب وبطول إحدى وعشرين قدمًا إلى داخله، و ينصّ على أن تُقام مهمة الإنقاذ في مساء السابع عشر من هذا الشهر، كما يأمر بأن تُشعل في النهار نار كبيرة على التلة الواقعة شمال القلعة وتُلقى فيها صرة المسحوق المرفقة مع الرسول. وفي نهايته كان يبلغهم أن القوة المساندة قد خرجت في طريقها إليهم.

أوكل الباشا -وهو لا يدرك سبب كلّ ذلك- مهمة إشعال النار لرئيس القاراقولّوقجية(62) وسلّمه صرّة الجلد التي جاء بها الرسول. وفي وقت الظهر تمامًا ظهر دخان النار على التلة وتحول مع الوقت إلى اللون الوردي، وأصبح في النهاية أحمر قانيًا. وقد اعتقد الباشا أنّها إشارة للجاسوس داخل القلعة.

أمّا مهمّة حفر النفق المذكور في الفرمان فقد أوكلت إلى واردابيت طبعًا. كان يحلف تالله وبالله أنّ حفر نفق تحت الأرض شبه مستحيل في هذا الوقت لتجمد التربة. وأنّه لا يمكن التفكير بحفر إحدى وعشرين قدمًا داخل الأسوار من دون أن يسمع من بالقلعة أصوات الحفر. لكن الأمور تغيرت فورًا عندما استدعى الباشا الجلاد(63). بهذه الطريقة أرهب الباشا واردابيت ثمّ أعطاه عشرين فيلورينة

حتى يلاطف كبرياءه المجروح. فلم يجد الرجل بدًا من إطاعة الأوامر.

كان الباشا يقول: «إن لم ننجح في هذه المهمة فجميع رؤوسنا ستطير. لكن تأكّدوا أنّ رؤوسكم ستقطع قبل رأسي. لذلك اجمع معداتك وأغراضك وأنه هذا النفق قبل السابع عشر من الشهر. وفي اليوم الثامن عشر ستصبح رجلًا ثريًا في صرته خمسمئة ذهبية، أو سأدفن رأسك في النفق الذي حفرته».

في اليوم التالي ألقى واردابيت على كتفه بحبل القياس المعقود في كلّ قدم منه عقدة ثمّ خرج مع بنيامين نحو الحقول. وبعد مدّة من المشي تقطّعت فيها أنفاس هذا اللغمجي الذي قارب الخمسين، وازدادت قرقعة الحصوة العالقة في قصبته، قدّر مع بنيامين المسافة الواقعة بين المكان الذي حدّداه كمدخل للنفق وبين البرج الشمالي دون أن يقتربا من القلعة.

وقد باشرا بحفر النفق في تلك الليلة. وبعد أن حفرا بعمق سبعة أبواع عن طريق تليين التربة بالماء المغلي في القدور تبيّنت صحة ما قاله واردابيت: فقد كان الحفر هنا سهلًا رغم تجمد سطح الأرض.

كان الكهل يشرح لبنيامين، وهو يضرب بمعوله، كيف هوّل وبالغ للباشا من صعوبات هذا العمل الذي هو من أسهل أعمال الدنيا صيفا وشتاء، وكيف اقتطع منه خمسمئة فيلورينة كبقشيش تسلّم منها خمسين مقدمًا. فجأة وقبل أن يكمل كلامه اصطدم معول بنيامين بصخرة؛ ففسّر واردابيت ذلك أنه من عين حسود.

كان عليهما الحفر حولها بما أنّه لا يمكن اختراقها، وهو ما قد يولّد خطر فقدانهم للاتجاه الصحيح. وهنا تكمن أهمّ مهارات هذه المهنة. فالبوصلة لا تفيد كثيرا في النفق، بل قد تضللهما. لذلك كانا يحدّدان اتجاههما بواسطة حبل

مشدود من مدخل النفق حتى مكانهما دون أن يلامس الحيطان.

من الممكن لخطأ بقدر نصف درجة في البداية أن يجعلهما يحيدان عن الهدف مسافة أذرع كثيرة. وقد كان نفس الخطر واردًا في حالة الحفر تحت الصخرة؛ لأنّ على زاويتهم العامودية أن تكون ثابتة كما على الأفقية أن تكون. لذا كان واردابيت يتثبت من أرضية النفق باستمرار بواسطة أنبوب زجاجي مليء بالماء به فقاعة هواء، ويتأكد باستمرار أن عمق النفق ثابت على سبعة أبواع.

قرّرا في النهاية الالتفاف حول الصخرة. فقاس وارابيت زاوية النفق الجديد على حبل مشدود بمِنقلة لعدة مرات ثمّ دوّن الأرقام على ورقة تحت ضوء سراج. لكنّ الشك كان ما زال يساوره بعد أن تجاوزاها.

فجأة بدأت التربة تهتز. مما يعني أنّ الاشتباكات بدأت في الأعلى. كانت المدافع ترمي بقذائفها من الجانبين وكان الإنكشاريون والفدائيون يهاجمون الثغرات المفتوحة. بينما كان من بالقلعة يخرجون بفرسانهم بين حين وآخر في هجمات مرتدّة على التحصينات.

كانت الأرض تهتزّ وتضطرب، ويزداد معها احتمال انهيار النفق مع تساقط قذائف المدافع المصنوعة من الصخور، وانفجار القنابل وتسيير الضبار(64) وعدو الخيول بأقصى سرعتها. لكن وارابيت كان معتادًا على كلّ ذلك. لو كانا يحفران النفق في الصيف لأمكنهما رؤية الدم المتسرب من الأعلى في اليوم التالي للمعركة. ولكنّ الدماء في هذا البرد القارس كانت تتجمد قبل أن تفارق الأجساد.

في الرابع عشر من الشهر اصطدم معول بنيامين بجسم أبيض أثار فضول

واردابيت. ولما أزاحا التربة من حوله وجدا أنه كان جمجمة بحجم الثور لسحلية متحجرة منذ أمد سحيق، ويبدو من رقبتها أنّ عمودها الفقري يغوص في أعماق التربة. أراد بنيامين أن يأخذ أحد أنيابها كتذكار ولكنّه تفتّت بمجرد إمساكه به.

اعتبر واردابيت ذلك فألًا حسنًا وقام ببعض الحسابات تحت ضوء السراج. جمع الأرقام وطرحها وتحقق ممّا إذا كانت الأرقام التي دوّنها من المنقلة قد بلغت المئة والثمانين درجة ثمّ ابتسم. إذا كانت حساباته صحيحة فالسور على بعد ثلاث أقدام منهما فقط.

أصبح طول النفق الذي حفراه -والذي كان ارتفاعه باعًا واحدًا- مئة وسبع عشرة قدمًا. وقد نحل جسداهما كثيرًا من العمل الشاق في ذلك الجو البارد مع أنّ كل واحد فيهما استهلك شحم إليات ثلاثة خراف، ناهيك عن الأطعمة الأخرى.

بعد حفر ثلاث أقدام أخرى قرّر واردابيت الحفر باتجاه الأعلى حتى يحدد مكانهما بالضبط. عمل من السلم سقالة، ثمّ أخذا يحفران السقف. وبينما كان بنيامين يحفر تراب السقف التصق بيده جسم معدني. كان نصل خنجرٍ من يدري كم مرة زُوي بالماء(65) حتى يصبح مقاومًا للصدأ. أمسك واردابيت بالخنجر الملتصق بجلد بنيامين بواسطة قطعة قماش وسحبه، فبقيت قطعة من جلده على النصل.

وبينما كانا يكملان الحفر وقعت هذه المرة على أرض النفق جمجمة. كانت عند اهتزازها تصدر صوتًا كالجرس. كسراها عندما لاحظا بين عينيها ثقبًا ووجدا بها رصاصة بندقية قربينة. أخيرًا بلغا أحجار أساس القلعة العتيقة بفضل حسابات اللغمجي الصحيحة، فقد كانا عند زاوية السور تمامًا.

مع ذلك كانت العشرين قدمًا المتبقية هي أصعب وأخطر أجزاء المهمة. فقد يسمع من بالقلعة أصوات الحفر فيحفرون بدورهم نفقًا ويجدوهما. فالحروب المرعبة تُخاض تحت الأرض كما تخاض فوقها منذ ظهرت مهنة حفر الأنفاق. لذا قرر واردابيت أن يشرح الوضع للباشا ويطلب منه توفير حرس لهما.

تفضل الباشا آمرًا بقذف القنابل من الصباح حتى المساء. والذي كان الهدف منه التغطية على صوت ضرب المعاول.

بعد تقدّمهما من الزاوية إلى داخل القلعة بإحدى عشرة قدمًا، أرخى واردابيت معوله وأشار إلى بنيامين أن يسكت. ووضع الحارسان المرافقان يديهما على مشمليهما. عند إصاختهم للسمع لاحظوا أصوات حفر تأتي من مكان ما تحت الأرض. معنى هذا أن من بالقلعة شعروا بوجودهم وراحوا يحفرون نفقًا للعثور عليهم.

كتموا أنفاسهم وراحوا ينتظرون في قلق. لم يكن يُسمع سوى حشرجة حصاة صدر واردابيت وأصوات ضرب معاول العدو التي كانت تقترب تدريجيًا. من الواضح أنّ المسافة بينهم لم تكن تتجاوز القدم الواحدة، لكنّ الجلبة كانت تأتي من مكان ما فوقهم. معنى هذا أنّهم كانوا يحفرون في العمق الخطأ.

لكن فرحتهم لم تدم طويلًا، فقد سمعوا أصوات حفر قادمة من مكان آخر، وفي العمق الذي كانوا فيه تماما. ولكن لحسن الحظّ أن أصوات المعاول ابتعدت شيئا فشيئا. قام حينها واردابيت بعملٍ متهور حتى يتأكد من اتجاه حفرهم وراح يحفر بسكينه ثقبًا صغيرًا في حائط النفق بهدوء. وبعدما لانت التربة راح يزيحها بيده. بعد ستة أو سبعة أشبار شعر بيده تخرج إلى فراغ. كان الثقب يصل إلى نفق من

كانوا يبحثون عنهم.

أخذ الشعلة من بنيامين ونظر من الثقب باستخدام مرآة مثبتة في نهاية عود، فامتقع وجهه وكاد ما رآه أن يفقده عقله. فقد رأى وحشًا مجنّحًا أحمر العينين يقذف اللهب من فمه. أعاد النظر ليتأكد أنه لم يكن يتخيل، ولكن لا، لم يكن يتخيل. لكن يبدو أنّ الوحش كان عبارة عن رسمة. أمعن النظر من جديد وأدرك بأنّه كان وشمًا على جلد متعّرق للغمجي خلع قميصه واستند على حائط النفق أمام الثقب ليستريح.

أدرك واردابيت خطورة ما كان يفعله، فسدّ الثقب بقميصه الذي غمسه في الطين ثمّ أخرج صليبًا وراح يدعو. لكن ما كانوا يخشونه لم يحدث، ولم يعثر عليهم لغمجية العدو.

في مساء اليوم السادس عشر، بلغا القدم الإحدى والعشرين بعد ألف مشقة ومشقة ومهالك لا حصر لها. أعلم واردابيت حينها الباشا وطلب منه الخمسمئة ذهبية التي استحقها. لكنّ الباشا أخبره بأنّ مهمّتهم لم تنته؛ فبراميل البارود الموضوعة أسفل السور الشمالي لم تُفجّر بعد، كما أنّ هناك أمرًا آخر أكبر أهمية عليهم تنفيذه قبل ذلك؛ فعليهم أن يحفرا في مساء الغد نحو الأعلى ويخلّصا الجاسوس العالق بالقلعة. احتجّ واردابيت قائلًا أنّ الأمر الثاني هذا لم يكن مشمولًا في اتفاقهم الأول فتلقى صفعة غليظة على وجهه. وببراعة الباشا في إرهاب من تحت إمرته وتشجيعه لهم في نفس الآن رفع بقشيش اللغمجي إلى ستمئة فيلورينة وهو يهدّده بأنواع التهديدات. كما أهداه فوق ذلك جوشنًا منسوجًا من حلقات السلاسل.

عاد واردابيت إلى الخيمة وقال لبنيامين: «غدًا ينتظرنا عمل في غاية الخطورة. سوف نحفر من القدم الإحدى والعشرين نحو الأعلى. ولا نعرف ما سنواجهه هناك. لذا سيكون من الأفضل لو ارتديت هذا الجوشن». ثمّ وضعه على فراشه.

كان يحرك شفتيه باستمرار فيما يبدو أنّه دعاء. أشعل شمعةً أمام صورة مريم العذراء ثمّ جثا على ركبتيه وراح يصلي حتى الصباح. وانتقلت عدوى قلقه تلك إلى بنيامين. فأخرج كتاب أطلس العالم الذي أهداه إياه أبوه حتى يخفّف من الغموض الذي يعيشه. قرر أن يفتح على صفحة عشوائية ويقرأ أول جملة تقع عليها عينه. وعندما وضع إصبعه وسط الكتاب وفتحه رأى تحت ضوء الشمعة جملة «وجد نفسه بين كنوز العالم السفلي».

أغلق الكتاب وتغطى باللباد الذي كان يستخدمه كلحاف. أمّا معلمه فقد استمر بالصلاة. كانت التمتمات التي تنسكب من شفتيه تترك على بنيامين أثرًا يشبه أثر التهويدات.

عندما غطّ في النوم رأى أولئك الإنكشاريين الماشين وسط الضباب المعتم بجواشنهم الصدئة وتروسهم المتعفنة في مكان ليس له يمنة ولا يسرة ولا شمال ولا جنوب. ربّما كانوا يمشون تحت الأرض ببطء باحثين عن كنز يجذبهم نحوه كمغناطيس، لكنّ تحديد اتجاهه صعب لعدم وجود بوصلة لديهم. ربّما كان ما يبحثون عنه موجودًا وغير موجود، في كلّ مكان، وليس في أيّ مكان. من يدري، ربّما كان الضباب المعتم الذي يمشون وسطه هو هذه الجاذبية نفسها.

أيقظه واردابيت قبل أن تطلع الشمس. كان ذلك يومهما الأخير. قاوم بنيامين

إصرار معلمه عليه أن يرتدي الجوشن ولكن ليس طويلًا، وقبل أن يلبسه في النهاية.

كان الذين يفرغون تربة النفق بالسِلال ينتظرونهم خارجه. دخلا من النفق نحو براميل البارود التي وضعاها أسفل البرج الشمالي وفحصا فتائلها. وأخيرًا، وصلا إلى القدم الإحدى والعشرين وراحا يجهّزان السقالة. كان الجوشن ثقيلًا يسبب إرهاقًا شديدًا لبنيامين.

عملا في هدوء وبلغا بحلول المساء ارتفاع خمسة أبواع باتجاه الأعلى. مع أواسط الباع السادس بدأ الحصى بالتساقط. وهذا يعني أنهما بلغا أساسات مبنى ما.

أخيرًا وصلا للحجارة المقصوصة والأخشاب البالية. كان واردابيت ينحت الملاط الذي يلصق الصخور واللبنات ببعضها بقلمٍ حديدي في يده بمهارة. في منتصف الليل، وعندما حرك لبنة من مكانها وألقاها نحو الأسفل، تسلل ضوء من الثقب إلى النفق. فسحب الحرس الثلاثة بالأسفل سيوفهم وأخذوا يترقّبون.

لاحظ واردابيت وهو ينزع اللبنات لتوسيع الثقب أن الرجل الذي جاءا لتخليصه كان يحاول مساعدتهما في الأعلى. كان يقول: «من أجل حبّ الله أسرعوا، إنّهم على وشك أن يأتوا إلى هنا.» ولمّا أصبحت الفتحة باتساع يكفي لمرور طفل سمعت جلبةٌ تأتي من الأعلى. لا بدّ أنّ الجنود علموا بوجود الجاسوس هنا فراحوا يحاولون كسر الباب.

صرخ واردابيت لما رأى ساقي الرجل النحيلتين وظنّه نحيلا «يا رجل! أنزل قدميك بدل أن تفكر في راحتك. سنتعلّق بهما ونسحبك». لكنّ الجاسوس كان

يقول بأنه عندما أحرق مخزن غذاء القلعة وجد فخذ حمَل فلم يستطع المقاومة والتهمه كاملًا ممّا جعل معدته تنتفخ بشكل كبير، لذلك فإنّ مروره من الفتحة غير ممكن.

فأخذ واردابيت يحرك لبنتين أخريين وهو يسبّ ويشتم. فجأة سُمع صوت كسر باب وتدلّت قدما الرجل من الفتحة في نفس اللحظة. كان يتوسل إليهما أن ينقذاه لأنّ بطنه علقت. فتعلق واردابيت وبنيامين بقدميه وأنزلاه إلى السقالة، وانطلق في تلك اللحظة رمخ من الفتحة منغرزًا بالقرب منهم.

كانت تُسمع من الأعلى هتافات وصرخات بلغة الكفار، ما يُنبئ أنّ الخطر محيق بهم. فهبطا مع الجاسوس من سلّم الحبال في اضطراب وتوتر بينما كان الجنود بالأعلى يقفزون نحو السقالة واحدًا تلو الآخر. وبينما كان الإنكشاريون ينتظرون نزول الجاسوس حتى يضرمون النار في السقالة قفز أحد الكفرة من ارتفاع أربع أبواع وهجم عليهم. وعندما نجح الكفرة الآخرون بقطع سلّم الحبال سقط ثلاثتهم من ارتفاع باعين. لكنّهم لحسن الحظ لم يصابوا بأذى.

وجدوا نفسهم في فترة وجيزة وسط معمعة كبيرة تدلى فيها حبل من الأعلى، وأخذ الكفرة ينزلون منه ويهجمون على الإنكشاريين. لم يكن واضحًا وسط ظلام النفق مَن كان يضرب من. كانت ظلال سيوف لا يمكن تمييز دينها ترتفع وتهبط وحسب. وكان النفق يئن بلسان حاله تحت الصرخات والهتافات. ولم يبدُ أنّ تولّي ثلة من الإنكشاريين لأمر كلّ هذا الكمّ من الأعداء ممكنًا.

تملّص الثلاثة بشكل ما من ساحة العراك متجهين نحو مخرج النفق. وأثناء هروبهم رأوا أن أحد الكفرة استطاع تجاوز السدّ اللحمي الذي شكّله الإنكشاريون

وكان على وشك اللحاق بهم. كانوا عندها بجانب براميل البارود الموضوعة أسفل البرج الشمالي. لاحظ واردابيت أنّ الكافر جريح فسلّ مشمله وصرخ: «اذهبوا أنتم. سألحق بكم عندما أقضي عليه». ولكنّه في اللحظة التي استعد فيها لمواجهته رأى أن في يده صولجان نجمة الصباح(66).

تلقى الضربة الأولى على صدره فأظلمت دنياه. أمّا الثانية فقد تفاداها بشقّ الأنفس. وعندما أصابت الثالثة إحدى الدعامات التي تسند السقف فاجأ التراب المنهمر الجندي الجريح فغرز واردابيت مشمله في بطنه رغم كلّ آلامه. كانت المعركة ما زالت مستمرة في آخر النفق. شعر أنّ قدماه لم تعودا قادرتين على حمله. كما كان يسعل بلا توقف ويسيل الدم من فمه بسبب الضربة على صدره.

بدأت التربة تهتزّ من جديد. لا بدّ أن فرسان القلعة قد شنوا هجومًا مضادًا. أخرج واردابيت قداحة وحرّاقة وراح يشعل فتيلة وهو يسعل بينما كانت التربة تتساقط من السقف. زحف نحو الفتائل الممتدة من براميل البارود وأشعلها. وبصدفة محضة سعل وخرجت الحصاة العالقة بقصبته من سنين.

رأى تحت ضوء الفتيل الذي يتطاير شرره أنّ الحصاة التي حملها في صدره كلّ هذه السنين كانت عبارة عن حبّة ألماس بحجم البندق. فزحف نحو الفتيل المشتعل، مصدر ضوئه الوحيد، وأخذ يتفحص الكنز الذي حمله داخله سنينًا طويلة. وحتى يتأكد أخرج مرآة من جيبه وكشط زجاجها بالألماسة. كان تخمينه صحيحًا؛ إنها ألماسة تساوي ثمانين ألف ذهبية على أقلّ تقدير.

لم يرفع عينيه عنها حتى اقتربت نار الفتيل من براميل البارود. خطرت حينها على باله عدّة مقاطع من الإنجيل. وبينما كانت النار تتسلق برميل البارود قرّب

هذا الحجر الثمين من اللهب حتى يراه جيدًا لآخر مرة. وتوقف اللمعان عندما دخلت نار الفتيل إلى داخل البرميل من ثقبه.

في اللحظة التي خرج فيها بنيامين والجاسوس من النفق حدث انفجار عظيم وانهارت جميع الأنفاق. ورغم خلاصهم ممن كانوا يلاحقونهم إلّا أنّ الخطر لم يَزُل تمامًا بعد. فعندما أدرك من بالقلعة أنّ كلّ هذه الجهود كانت لتخليص الجاسوس بدأوا بحملة مضادّة وهجم فرسانهم على المتاريس المحيطة بالنفق.

عند خروج بنيامين والجاسوس من النفق كانت الساحة عبارة عن حمام دماء. وبينما كان قسم من الفرسان الذين انقسموا إلى ثلاثة كتائب يهاجمون المتراس الذي يحمي النفق كان الآخرون يشتبكون مع قوات الدعم التي تحاول الوصول إليه. بل إنّ بعض الفرسان نجحوا في تجاوز الحيطان الاستحكامية المصنوعة من الأغصان الجافة والمملوءة بالحجارة، وهجموا على مشاة الإنكشاريين. كان الوضع وخيمًا لأقصى درجة، ولكنّهم مع ذلك لم يكونوا محاصرين تمامًا. فقد كان بإمكانهم الهروب عن طريق الخنادق الأرضية والدهاليز.

في تلك اللحظة بدأت رصاصات بنادق القربينة تمطرهم. كان الجاسوس زولفيار، والذي كان نحيلًا ومنتفخ الكرش حقًّا، يقول أنّ وابل الرصاص سيبدأ من جديد بعد انقطاعه بقليل لأنّه ليس من الممكن لهذه الأسلحة إطلاق النار لأكثر من مرتين في الدقيقة. انطلقا هاربين مع الإنكشاريين الذين رأوا أنّ المتراس يوشك أن يسقط في يد الأعداء. فوفقًا لحسابات زولفيار كان أمامهم نصف دقيقة يلجأون فيها لمكان يحتمون فيه من الرصاص. وقد كان ذلك تخمينًا خاطئًا. لأنّ فوج القربينة انقسم إلى أربعة صفوف بدلًا من صفين، كما هي العادة، ممّا جعل معدل إطلاق النار يرتفع إلى أربعة مرات في الدقيقة.

بينما كان بنيامين والجاسوس والإنكشاريين يهربون من المتاريس في أرض مكشوفة، أمطرهم وابل كثيف من الرصاص فتساقط معظمهم وبلغ الذعر من بنيامين مبلغه. صرخ زولفيار عليه من الخلف بعد أن أصيب في قدمه: «خذ هذه! خذها وأعطها للباشا. هيا! التقط!» حاول بنيامين أن يلتقط الجسم ولكنّه كان زلقًا ففلت من بين أصابعه والتصق بجوشنه.

سحب ذلك الشيء الملتصق بجوشنه بصعوبة ووجد أنّه كان عملة معدنية مغناطيسية سوداء. كان يركض بأقصى طاقته نحو التحصينات الموجودة في المؤخّرة ويحاول في نفس الوقت أن يضع العملة التي استنتج بأنّها ضرورية وسط كتابه. لكن بدا أنّ الفرسان سيلحقون به قبل أن يبلغ التحصينات. في تلك الأثناء بلغ منطقة تصلها رصاصات بنادق الإنكشاريين، فهلك هناك معظم الفرسان.

لكنّ أحدهم لحق به. شعر الفتى برمح الفارس فالتفت بحركة مباغتة وانتزعها منه. فسلّ الفارس الذي بقي بلا رمح سيفه وعاد ليهاجم بنيامين. لكنّ الفتى كان يثبت الرمح في الأرض ويوجهه نحو الحصان، معيقًا بذلك الرجل عن الهجوم. لم ييأس الفارس وقام بحركة متقنة بكسر رأس الرمح بسيفه. ولكن هذه الحركة أخلّت بتوازنه، فهوى بنيامين بالقضيب على ظهره بضربة قوية أسقطته عن حصانه. خلع الرجل بعد أن أصبح بلا سيف جوشنه وهجم على بنيامين. وفي اللحظة التي كان بنيامين سيهوي فيها بالقضيب على رأسه ألقى الرجل بجوشنه على وجهه بعد أن لوّح به عدّة مرات في الهواء. فالتصق الجوشن المصنوع من الحلقات الحديدية بوجه بنيامين في ذلك البرد الكارثي. كانت في يد الرجل قفازات وهو ممسك بالجوشن، فراح يسحب الفتى ويجرجره يمنة ويسرة. وفي النهاية سحب الجوشن سحبة قوية جعلت حلقاته تنزع لحم وجهه، فسقط

على الأرض مضرجًا بدمائه. دنا الرجل منه وجعل يفتشه باحثا على ما يبدو عن العملة التي يجب تسليمها للباشا. في تلك اللحظة سقطت قنبلة ألقى بها مدفع قولومبورنة بجانبه. كان فتيلها ما يزال مشتعلًا. فترك الفارس التفتيش ليلقي بالقنبلة بعيدًا عنه إلّا أنّها انفجرت في اللحظة التي حملها فيها.

وقد نجا بنيامين لأنّه كان متمدّدًا على الأرض. ولكنّ قواه خارت تمامًا، حتى أنّ الإنكشاريين الذين جاؤوا من التحصينات ظنّوا أنّه قد هلك. ولمّا عرفوا ما حدث له وعاشه من أهوال حملوه إلى إحدى الخيام. ولكن لم يتمكن أيّ ممّن بالمعسكر من تحديد هوية الفتى ممزق الوجه.

***

كان بنيامين يحلم.

كان في حلمه يشقّ مع واردابيت نفقًا في عمق مجهول تحت الأرض. كانت حيطانه كأنّها من ضباب مظلم، لا من تراب. ومع ضربهما بالمعاول كانت التربة تستحيل ضبابًا حالك السواد يهوي من مستوى ركبهما وينتشر على الأرض. مع ذلك لم يكن أيّ منهما متفاجئًا مما يراه.

بين فينة وأخرى كان واردابيت يلتفت لبنيامين ضاحكًا كالخنزير وهو يردد كم كان عملهما سهلًا.

استمرا بالحفر دون كلل أو ملل بالغين مغارات ملأى بما لا يحصى من المتدليات والصواعد(67)، ونهر سفلي تغلي مياهه، والعديد من الهياكل العظمية لسحالٍ عملاقة.

وتسمّرا مكانهما لمّا وصلا إلى مغارة تتحول فيها أخفت همسة في الجدران المعدنية إلى رعود. كان فيها بين المتدليات والصواعد سفينةٌ ضخمة بَلِي خشبها منذ أمد بعيد. وجدا داخلها هياكل كثيرة لأنواع حيوانات شتى، من كل زوجين اثنين. فأرعبهما المنظر.

صعدا إلى ظهرها وهما مذعوران. عندها رأى بنيامين منظرًا شلّت أطرافه من الخوف؛ إنكشاريون بجواشن صدئة وأقنعة حديدية يخرجون من حيطان المغارة وكأنّهم يشقّون الضباب شقًّا. فنكز معلمه وأشار نحو ما كان يراه. وبعد أن اختفى الإنكشاريون داخلين في الحائط المقابل قرّرا أن يشقّا نفقهما في ذلك الاتجاه.

هبطا نحو قعر الأرض دون توقّف أو استراحة. ومرّا بأوحال استحمام الجنّ المغلية وأنهار رصاص منصهر وثقوب تنفث أبخرة الكبريت، حتى وصلا إلى مغارة مغناطيسية كانت هي المكان الذي تشير إليه جميع البوصلات. وقد هالهما ما رَأياه فيها وأثار هلعهما، فقد كانت ألسنةُ لهب سوداء تلعق حيطان المغارة. كما أنّ جميع آثمي الماضي والحاضر المُعذّبين كانوا يئنّون فيها. وقد كان ذلك أقصى عمق بوسعهما بلوغه.

أرادا الهرب والنفاذ بجلديهما، فأخبرهما صوت من داخلهما أن يتتبّعا جذر شجرة ويتسلّقا نحو الأعلى. وجدا جذر الشجرة بين أبخرة الكبريت وأخذا يتسلقان. وفي طريقهما نحو الأعلى صادفا كنوزًا تحميها تنانين، وبيض وحوش متحجرة، وبقايا جميع الحيوانات التي عاشت وبادت من قبل. ومرّا بعروق الذهب والزمرد والياقوت والألماس وحجارة اللازورد والكثير من أنواع البلور. كما نظرا بلا اكتراث إلى جثث الملوك الممدّدة بتيجانها المرصعة بالجواهر ودروعها الذهبية، والهياكل العظمية الملعونة المربوطة بالسلاسل، ومصاصي

الدماء النائمين بخوازيق مغروزة في صدورهم، وإلى جثث بلا رؤوس ورؤوس مقطوعة. وأنصتا إلى أنّات المعذبين في قبورهم في اتعاظ وعبرة.

استمرّا في تتبع الجذر حتى وصلا في فترة وجيزة إلى جحور أبناء آوى وحيوانات الخلد والأرانب والفئران. ترك عندها واردابيت معوله وأخذ نفسًا عميقًا. كان يتحدث عن العثور على ألماسة ما. حفرا هذه المرة في الاتجاه الذي حدّده هو. ووجدا الألماسة بين أدخنة البارود. تثاءب واردابيت واستلقى فوق هذا الحجر النفيس ونام. وباءت جميع محاولات بنيامين لإيقاظه بالفشل.

راح يحفر بيأس نحو الأعلى حتى بلغ جذع الشجرة وخرج إلى سطح الأرض. رأى النجوم وملأ رئتيه بهواء الليل العليل. ثمّ أراد أن يصعد إلى البدر فتسلق الشجرة التي كان يمكن رؤية شبحها تحت ضوئه.

بلغ القمة بعد أن أيقظ السناجب وأفزع العصافير في أعشاشها. واكتشف هناك أنّ الشيء الذي ظنّه بدرًا كان في الحقيقة ثمرة الشجرة الوحيدة، والتي كان لونها رماديا مائلًا للفضي. فغمره فضول لا يقاوم لأن يتذوّقها. ولمّا قضمها وجد فيها طعم لهب التنانين حامية الكنوز والذهب الدامي وأحجار اللازورد الزرقاء ولذة اليواقيت الحمراء التي لا تقاوم.

وتذوّق حزن مصاصي الدماء، وغضب السلاطين الحاكمين للماء والنار، وعذاب المقبورين الذين يستجوبهم الملكان، وفرح المذنبين، والنار السوداء التي هي ثمن ذلك الفرح. كما استطعم آلاف البهارات والنكهات والأحزان والضحكات القادمة من كلّ مكان تصل إليه جذور الشجرة.

كان ذلك طعم العالم السفلي، وقد عرفه. فقد عرف به جميع صفحات الأطلس

الذي أعطاه إياه أبوه، ورأى فيه التفاصيل المظلمة للعالم السفلي الذي كان فيه. وبمجرد رؤيته لها وجد نفسه بين كنوز العالم السفلي.

واجه صعوبة في فتحه لعينيه لمّا أفاق لأنّ وجهه كان ملفوفًا بالضمادات. وكان يشعر بألم لا يُحتمل في صدغيه وجبهته وخدّيه، ويسعل باستمرار. كما كان جسده يلتهب من الحمى. فقد أصيب بالسلّ بعد أربعة أيام من انتشاله من أرض المعركة. ولم يتعرّف عليه أحد لتمزق وجهه، ولكنهم خمّنوا بالنظر لجوشنه أنّه أحد الإنكشاريين.

وجد نفسه وسط عربة ثور ملأى بالجرحى ومغطاة بثلاث طبقات من اللباد لتحميهم من البرد الشديد. سمع وعيناه معصوبتان الجنود بجانب العربة خلال حديثهم يقولون أنّ «جاسوس القلعة أعطى الصبي الذي كان يعمل مع اللغمجي شيئًا ثمينًا، لكنّ الزنديق هرب بالأمانة. ويحتمل أنّه باعها لأصحاب القلعة».

لم يصادف الجاسوس المدعو زولفيار جثة بنيامين في ساحة المعركة. فوصف للأقنجية(68) شكل الشاب وتفضل آمرًا بأن يحضروه إليه حيًا أو ميتًا واضعًا على رأسه مكافأة تبلغ مئة ذهبية.

أدخل بنيامين يده في صدره ووجد كتاب أبيه في مكانه. فمرر أصابعه بين صفحاته باحثا عن العملة التي أعطاها إياه الجاسوس ووجدها. ثمّ أخذ يفكّر طويلًا بالسبب الذي جعل زولفيار يعتقد أنّه هرب بهذا الشيء الذي يفترض أنّه مهم. فهذا الرجل جاسوس، ومن المستبعد له أن يترك أيّ مجال للصدف التي لا يمكن لشخص مثله أن يؤمن بها بسهولة. فمهنته تتطلب منه أن يكون محتاطًا، وأن يتصرّف بناءً على أسوأ الاحتمالات.

أيا كان الشيء الذي تحصّل عليه الجاسوس في القلعة واضطر لإعطائه لبنيامين، فإنّه بدا مهمًا لدرجة أنّ المهمة الأصلية لم تعد ذات قيمة بجانبه. ووفقًا لمبدأ الجاسوس الذي يقول بأنّ: «أسوأ الاحتمالات هي الحقيقة»، فإنّ الشخص الذي يبحث عنه سيُضرب عنقه سواء كانت نيته سيئة أو طيبة.

لمّا بدأ بنيامين يفكر بشكل أوضح قليلا قرّر أن يتظاهر بفقدان ذاكرته حتى يتخلص من الأسئلة المتعلقة ببلده وموطنه وفرقته الإنكشارية. وقد كان قراره موفّقًا. لأنّهم عندما توقفوا في مكان يبعد عن صوفيا مسافة ثلاثة أيام للراحة وقضاء الليلة أثناء عودتهم من القلعة بسبعة عشر يومًا جاء زولفيار يعرج وتفضل آمرًا حكيمًا يهوديًا بنزع ضمادات وجهه. فنفّذ الحكيم ما طلب منه بينما كان قلب بنيامين يخفق بشدّة. لكنّ زولفيار لم يتعرّف عليه حتى بعد إزالة الضمادة الأخيرة. وقد كان المتواجدون بما فيهم زولفيار ينظرون إليه في رثاء وشفقة شديدين.

شعر بنيامين بملمس غريب لوجهه، وكأنّه كان إسفنجة. كما كان نصف أحد جفنيه غير موجود. مع ذلك أتقن التظاهر بفقدانه للذاكرة بهدوء ورباطة جأش أثناء توجيه الأسئلة إليه. وبعد أن ذهب الجاسوس ورجاله، طلب من الحكيم الذي كان يعتني به منذ عشرين يومًا أن يعطيه مرآة. إلّا أنّ الرجل كان يماطله ويسوّف.

استطاع أن يتدبر أمر مرآة في يوم دخولهم إلى صوفيا. فرأى فيها ما فعله الجوشن بوجهه في ذلك البرد. أصبح كأنّه وجه غول لشدّة تمزّق لحم شفتيه وخديه وجبهته وصدغيه. كما كان جفن عينه اليمنى غير موجود، ممّا جعله يضطرّ لاحقًا لأن يضع قطعة قماش مبلولة على عينه حتى يتمكن من النوم.

أشفق الجرحى الآخرون عليه وهو يكرر النظر إلى المرآة ويبكي. لدرجة أنّهم أخذوا يتنافسون فيما بينهم ليهوّنوا عليه مصابه ويواسونه. وحسب ما كانوا يقولون فإنّ هذا ما يجب أن يكون عليه وجه الصنديد الشجاع الذي لو هجم على كفرةٍ بسيفه ووجهه هذا فيعلم الله أنّهم سيولون الأدبار دون أن ينظروا خلفهم حتى.

أمّا الإنكشاري الذي قُطعت قدمه فقد كان يقول بأنّ في القسطنطينية جراح يشوه الوجوه ويمزقها بالمشرط محوّلًا إياها إلى وجوهٍ مرعبة عمدًا، ويتقاضى على عمله ذاك دون خجل سبعة فيلورينات. وعلى حسب كلامه، فقد كان لأول متسلقي قلعة إغري وجه غول من عمل ذلك الجراح.

لكن بكاء الفتى لم يتوقف رغم كل محاولاتهم لتطييب خاطره. حتى في الوقت الذي أُرسل فيه مع الجرحى إلى أدرنه كان ما زال يبكي. كما أنّ مرض السل الذي برء منه للتو كان قد هدّ من قوته بشكل بالغ، فهو بالكاد يقف على قدميه، كما أنّه كان يسعل باستمرار.

في المعسكر أُحسن إليه بمئتي أقجة من العيار المنخفض هو والإشكنجية(69) الآخرين الذين لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالقتال. انضمّ بعدها إلى مجموعة صغيرة كانت ذاهبة إلى القسطنطينية وشاركها في دفع مبلغ استئجار عربة ثور تحملهم إليها.

كان الربيع قد هلّ، لذلك كان سفرهم بلا مشقّة أو نصَب. وقد كان لهواء الربيع النظيف والمنعش والأطعمة الساخنة التي اشتروها من القرى وقصعات لبن تراقيا الرائب اللذيذ وأنواع عسلها وخمورها المستطابة دورًا كبيرًا في استعادته

لصحته.

لكنّ فكرة خطرت بباله لما تراءت لهم أسوار القسطنطينية من بعيد جمدت الدم في عروقه؛ فلا بدّ أنّ المئات وربما الآلاف ممن يعرفون شكله يبحثون عنه الآن فيها. صحيح أنّ عثورهم عليه سيكون صعبا بعض الشيء لتشوّه وجهه، ولكنّهم يعرفون اسمه. كما لا بدّ أنّهم استفسروا قائد اللغمجية عن مكان سكنه. لذلك لا يمكنه الذهاب إلى أبيه.

لكن ألا يكون أبوه في هذه الحال أيضا معرّضًا للخطر؟ أخذ يرتعد بشدّة وهو يفكر بكلّ الاحتمالات حتى ظنّ الآخرون أنّه انتكس وعاد إليه المرض. واستمرّ يفكر بأبيه حتى بينما كانت العربة تمشي على طريق الديوان(70) بعد دخولها من بوابة المدفع(71).

بعد أن ودّعت المجموعة بعضها أمام آيا صوفيا مشى بأسرع ما يمكنه هابطًا نحو الخليج. ومن هناك ركب زورقًا عبر به إلى غلاطة. ولما وصل إلى جوار خان الشراعيين ركضًا من مرسى قاراكوي وجد مكان بيتهم خلاءً خاليًا. كانت خشباته التي حطمها الإنكشارية قد نُهبت من قبل الحقاميين(72) لاستخدامها كوقود. ولم يتعرّف عليه هناك أيّ من الجيران لحرصه الشديد على إخفاء هويته.

تجوّل بلا هدى في الأحياء القديمة لمدّة طويلة ثمّ دخل إلى قراءت خانة وعرّف بنفسه لمن ردّوا عليه السلام باسم مختلف. وخلال مدّة وجيزة عرف أيّ مصاب أصاب أباه. لأنّ ما وقع للمسكين إحسان أفندي الطويل كان موضوع الأحاديث الرئيسي لأسابيع في كلّ قراءت خانة بغلاطة.

اقتيد المسكين بعد أن سوّي بيته بالأرض إلى غرف الإنكشارية(73) بميدان اللحم. ولمّا رفض أن يبوح بسره اقتلعت عيناه وقُطعت أذناه وشرم أنفه ثمّ بيع بهذه الحال إلى كَتخُدا(74) المتسولين أبو خنزير(75) مقابل ذهبيتين. ولم تكن هناك أيّة أخبار عن عاقبة عليباز وقردهم مشتري.

لم يكد بنيامين يصدّق ما يسمع، وبصعوبة شديدة أمسك نفسه عن البكاء. فأخذ يلعن تلك العملة المنحوسة التي فتحت عليهم أبواب كلّ هذا البلاء والشقاء وفكر أن يلقي بها في الخليج بعد أن يخرج من القراءت خانة.

جلس على أحد البراميل في مرسى غلاطة وراح يتفحصها؛ كانت شديدة السواد بلا بريق، وخفيفة كأن لا وزن لها. كما كانت لها قوة مغناطيسية قوية، حيث كان نزعه لها من خنجره التي التصقت به بالغ الصعوبة.

لم يعرف كيف يتصرّف في هذه الظروف الغريبة. فرأى أن يفتح الكتاب على صفحة ويقرأ طالعه مجددًا. وكانت أول جملة وقعت عليها عيناه في الصفحة التي فتحه عليها: «دخل بين المتسولين وأخذ ينتظر قَدَره».

لم يكن يعرف كيف يخلص نفسه من هذا الوضع المضطرب بالضبط. لكنّه يعرف أوّل شيء عليه فعله؛ وهو أن يجد طريقة يخلّص بها أباه من المتسوّلين. لكن العثور عليه في هذه المدينة الكبيرة دون أن يلفت الانتباه أو يثير الشبهة لن يكون سهلا. فقد كان يلفت الأنظار في كل حي يمر به بسبب تشوّهات وجهه.

فكّر طويلًا في حلول لتجاوز هذه المعضلات. وأثناء ذلك خطرت على باله كلمات أبيه عند وداعه له. كان دائمًا ما يكرّر على مسمعه أن خوض المغامرات

عبادة. لكنّ هذه المغامرة التي خاضها كانت مليئة بالغموض والمتاعب. لمَ حاصروا تلك القلعة في موسم ليس بموسم غزو؟ وفي منتصف الشتاء؟ إذا كانوا قد فعلوا ذلك من أجل إنقاذ زولفيار، فلماذا أحضر هذا الرجل من القلعة تلك العملة المنحوسة بدلًا من وثيقة ما مثلًا؟ لم كانت هذه العملة التي ليس عليها ختم أو أيّ كتابة مهمة إلى هذا القدر؟

لم يكن أيّ من هذه الأسئلة يثير فضوله، ولم تهمّه إجاباتها ولا مقدار ذرّة. كان كلّ ما يريده هو أن يعود إلى أيامه القديمة الرتيبة المريحة الجميلة وقليلة المتاعب. بطريقة التفكير هذه في تلك اللحظة فهم سبب بلادة ولامبالاة الناس تجاه الدنيا وتمكن من استخلاص معنىً من كلمات أبيه التي يقول فيها أنّ: «الشيء الوحيد الذي يخاف منه الناس هو أن يعرفوا». فمعرفة الألم والعطش والجوع والحزن تطير نومهم وتسلبهم راحتهم. لذلك فهم يلجأون للأرائك الأنعم والأطعمة الأشهى والأصدقاء الأكثر إيناسًا وإبهاجًا. أحيانًا تبلغ بهم تلك اللامبالاة درجة تجعلهم يخلقون لأنفسهم عوالم من الذهب والفضة واللذات والمسرات والمتع والشهوات، وكلّه لمنع الأفكار المكدرة من غزو عقولهم.

لكنّ إحسان أفندي الطويل كان يردّد دائمًا أنّ التجول في الدنيا والسفر فيها عبادة حقيقية. وأنّ على كلّ إنسان أن يقرأ العالم بشكل أو بآخر. وأنّ القرآن نفسه مثال على كيفية قراءة الرسول للعالم، لذا فعلى كلّ من يتبع نهجه أن يقرأ العالم كما فعل ويدوّن شهادته وينقلها للآخرين. وأن ليس من سبيل أمام المرء حتى يكون شاهدًا على العالم سوى بخوض المغامرات. فالمغامرة نعمة كبيرة للإنسان رغم كل آلامها ومشقاتها. لأنّ أكبر سعادة للإنسان في العالم هي أن يكون فيه شاهدًا ومشاهِدًا.

ألوان الأفعى

يروى أنّه كان في مدينة بغداد، قبل أن تصير إلى حكم العجم(76) بزمن طويل، لصٌ لا يترك قفلًا دون أن يفتحه، ولا منزلًا دون أن يدخله، ولا بيتا دون أن ينهبه. يسرق الكحل من العين، والأريكة من تحت الجالس، والخاتم من الإصبع، والقرط من الأذن. ويهنأ بيومه ولياليه دون خوف ولا كدر.

وقد عجز باشا المدينة رغم ملئه لها بالعسس والحرس عن القبض عليه وحماية الناس من التعرّض لغدره. لذلك استمر تجمّعهم أمام أبواب بيوتهم للبكاء والتشكّي في كلّ صباح. وقد كانت مهمّته صعبةً حقًا. لأنّ لصّ بغداد هذا كان محترفًا في تغيير هيئته بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى. ولم يكن ذلك ينجيه من قبضهم عليه وحسب، بل كان كذلك سبب نجاحه في مهنته هذه.

ولم يقتصر الأمر على تغييره لمظهره فقط، بل كان كذلك يغيّر من ملامح وجهه باستخدام شمع العسل وأنواع الأصباغ ليتشبه بوجه صاحب بيت ينوي نهبه مثلًا. وبهذه الطريقة يدخل إلى البيت جهارًا نهارًا بكلّ ثقة ويأمر خدم البيت بأن يجمعوا له كل الذهب الموجود وأن يجهّزوا له قهوة سكّرها وسط. وبعد أن يستغل الفرصة لأكل بعض الأطعمة الخفيفة يخرج من البيت بشوالٍ مليء بالذهب ويختفي.

في أحد الأيام فعل شيئًا أخرق لم يتوقّع عواقبه. قرّر أن يتشبّه بهيئة ومظهر أرملةٍ لينهب بيتها. وقد كانت المشكلة أنّ ابن الباشا كان عاشقًا لتلك الأرملة وينوي خطفها. لذلك فإنّه لما رأى لصّ بغداد في الطريق ظنّه مليحته الفاتنة فخطفها مع رجاله في شوال ثمّ ذهب بها إلى القصر وسلّمها هناك لنساء الحرملك

ليجهزنها للّيلة.

أخذت النساء اللصّ إلى الحمام وأضجعنه على المصطبة الوسطى لتحميمه، وبسبب حرارة المكان بدأ الشمع يذوب من على وجهه. فزعت النساء ورحن يصرخن حتى بلغت صرخاتهن السماوات ظنًّا أنّها مصابة بالجذام. فجاء ابن الباشا مسرعًا ليعرف سبب الصراخ. ولمّا رأى حبيبته على تلك الحال أدرك أنّ في الأمر شيئًا ليس صائبًا. فتحسّس ما بين فخذيها وعرف بأنّه لم يكن امرأة أصلًا.

بلغ الخوف باللصّ الذي افتضح أمره مبلغًا عظيمًا وراح يتوسّل ويتضرّع ويتذلّل. ونجح في النهاية لمهارته في إثارة الشفقة بإقناع ابن الباشا بالعفو عنه رغم أنّه اطّلع على عورات جواري ابن الباشا، فوق أنّه كان لصًّا.

أدرك اللصّ بعد أن خرج من هناك سالمًا أنّه لن يتمكن من ممارسة اللصوصية في بغداد بعد الآن. فقرّر بعد مدّة من التفكير أن يصبح متسوّلًا. استخدم الشمع والأصباغ على وجهه وجسمه لعمل قروح وثآليل ودواحيس وثعاليل وليشمانيات وجليجلات عين وطفوح جلدية وطاعون وأورام وجروح والتهابات ونواسير ثمّ خرج للتسوّل. فجمع وحده في يوم واحدٍ تسعة أعشار صدقات بغداد كلّها.

كان فاعلو الخير يتسابقون على وهبه فلوسهم ومنقوراتهم وذهبياتهم بينما كان هو يردّد دعواته: «كتب الله لقدميك ثواب الكعبة، وحماك من اللسان الكنود وعين الحسود. وقاك الحقّ تعالى من كيد الجريئات الشائنات الصفيقات، وجعل طريقك طريق الحجاز. أطعمك الله من كسب غيرك، وأبقاك عاريًا تحت أمطار السعادة، وأعتقك من مكر النساء، وجعل عمرك ثلاثة ثلاثين وعشرة».

في فترة وجيزة عمّت شهرته، كونه أكثر المتسولين تلقّيًا للقبول في السبعة أقاليم والأطراف الأربعة. حتى أنّ السلطان مراد أحسن إليه بألف ذهبية عند دخوله لبغداد وأخذه معه ليعلّم متسولي القسطنطينية طلب الصدقات.

عندما وصل إلى القسطنطينية بمعية السلطان اتجه رأسًا بفرمان القبول إلى نقابة المتسوّلين. وقد تلقّى في هذا المكان الغريب ما يشبه حسن القبول من زملاء مهنته في البداية. فقد قدّموا له وليمة استقبال ووضعوا أمامه قِدر طاس كباب. فالتهم جميع ما بالقدر ومسحه قعره بالخبز بينما كان كتخدا المتسولين ينظر إليه وهو يبتسم بخبث. وبعدما انتهى أخبره الرجل أنّه لم يعد متسولًا مقبولًا لأنّه أكل كبابًا من لحم الخنزير، فمن المعروف أنّ من يأكل لحم الخنزير لا يُستجاب دعاؤه.

لم يصدّق الرجل ما كان يسمعه. فهذا المقلب يعتبر عبئًا بلقمة عيشه. فغضب وثار وراح يقذفهم بالدعوات بينما كانوا يراقبونه بخوف: «ليمض عمركم بسماع الآه والواه، ولتطرح البركة في مخاط أنوفكم، ولتحطّ طيور البوم على أماكنكم، ولتشتعل قمصانكم، ولتبق كلّ قطعة منكم في فم ذئب، وليبتليكم الله بالجرب ولا يعطيكم ظفرًا للحك، وليكن كفنكم من القماش الأسود، ولتصبح لكم عينًا واحدة بدلًا من عينين، ولتُصمّ آذانكم عند النفخ في الصور».

ذعر المتسولون خوفا من أن تُستجاب دعواته. وقاموا حتى يصفح عنهم بتقديم كلّ ما كسبوه ذلك اليوم له، وعينوه شيخهم الجديد. لكنّ الخنزير أُكل ولا سبيل للتراجع عن ذلك. لذلك أصبح اسم هذا اللص البغدادي أبا خنزير(77).

كانت المشكلة أن طعم طاس كباب الخنزير بقي في فمه. فأصبح يبحث عن

ذلك الطعم الذي تذوّقه لأول مرة في حياته. وجرب في سبيل ذلك لحم الخروف والماعز والبقر والأرنب والدجاج والسلحفاة والضفدع والقنفذ ولم يجد الطعم الذي يبحث عنه في أيّ منها. وقد شقي وتكلّف الكثير من العناء حتى يمنع نفسه من اشتهاء الخنزير. لكن ذلك لم يُجدِ. فجسمه يشتهي الحيوان النجس. وكان في أحلامه يرى أنّه يطارده.

تشجّع في النهاية واشترى من قصاب إفرنجي في غلاطة خنزيرًا صغيرًا جاهزًا لحشر سيخ فيه وتقليبه على النار. ولكنّ لتعاسة حظّه أن في اللحظة التي فتح فيها الكيس في غرفته بالنقابة دخل متسوّل إلى الغرفة وصرخ في رعب عند رؤيته للخنّوص:

«يا ربي يا ودودا!».

فأمسك أبو خنزير بنصل خنجره وهمس دون أن يفسد متانته:

«أعصب عينيك وأمسك لسانك».

حاول أبو خنزير بعدها كثيرًا أن ينهي إشاعة كونه مبتلىً بحب لحم الخنزير لكن بلا طائل. لكنّه بعد عدّة سنوات، ولما رأى أنّ الإنكار لم يعد يفيد، أصبح يفعل ما يفعله علانية. وقد طرحه رئيس عسس الحيّ بسبب ذلك للفلقة عدة مرات تحت إشراف الإمام. لكنّ إدمانه كان أقوى منه. في النهاية هدّده القاضي الذي رأى أنّه لن ينتهي عن فعله بالنصائح والتنبيهات قائلًا أنّه سيضرب عنقه لو قبض عليه متلبسًا بالجرم مرّة أخرى.

بعد مرور عدّة أيام أوقفه حرس في الطريق ووجدوا في مزوده فخذ خنزير.

فألقي به إلى السجن في أمينونو. وكلّ ذلك حدث قبل أن يجد بنيامين تلك العملة المنحوسة بسنوات.

بعد عدّة أيام من إصدار حكم الإعدام على أبي خنزير جاء الجلاد الذي كان سيقوم بإعدامه لأخذه من زنزانته. أخذه إلى حمام بوابة العذاب وحمّمه وليّفه جيّدًا كما تقتضي العادة. ثم مشى وهو يسحب ضحيته التي تلمع من النظافة بحبل غليظ نحو أمينونو، وقد تجمع خلفهما حشد ممّن كانوا يريدون مشاهدة الإعدام.

عند وصولهما إلى السقالة خارت قدما أبي خنزير من الرعب ولم تعودا قادرتين على حمله. فساعده الجلاد على المشي نحو جذع الشجرة المعلوم ثمّ أخرج من جيبه بوصلّة وتثبّت من اتجاه القبلة ووجّه رأس أبي خنزير نحوها ومنحه فرصة ليجدّد إيمانه ويردّد الشهادة أثناء شحذه لساطوره.

وأخيرًا، وضع رأسه على الجذع ورفع ساطوره. لكن في تلك اللحظة تمامًا أوقفه فرسان جاؤوا إلى الساحة. ترجّل أحدهم عن حصانه وقرّب من أنفه فرمانًا بحجم الباب كان ختمُ السلطان موجودًا أعلاه. فقرأه أحد معاونيه بصعوبة وتلعثم، ورأى أنّه كان يأمر بتسليم المتسوّل المعروف بأبي خنزير إلى حاملي الفرمان.

أركب المسكين أبو خنزير حمارًا وسيق إلى حيّ بايزيد. وفي مكان مجاور للضربخانة، صحبه الفرسان إلى داخل قراءت خانة لم يكن لها الكثير من المرتادين لأنّ القهوجي فيها كان مشهورًا بكونه غلمنجيًا وقاتلًا متهوّرًا. سحب القهوجي لمّا عرف القادمين ستارة دهليز لا أحد يدري إلى أين يؤدي. فنزلوا مع

المتسوّل إلى الدهليز ومشوا فيه حتى بلغوا بابًا ثقيلًا، فتحوه ودخلوا إلى غرفة كئيبة.

كانت هذه الغرفة تقع تحت الضربخانة مباشرة. كان لكلّ جدار فيها باب. كما كانت تضاء بالشموع. وكان على أرفف جدرانها عدد لا يحصى من الأدوات التي لا يعرف لأيّ غرض تُستخدم. وكانت على العلاقة ملابس من النوع الذي يرتديه أقوام النمسة والسويد وروسيا والدنمارك وهولندا. ومن أحد الأبواب كان يُسمع نباح كلب، ومن الآخر يتسرب دخان يفوح برائحة الزئبق.

رغم كآبة المكان وسوداويته كان على إحدى الأرائك رجل نحيل بكرش مستديرة ينام شاخرًا. كان اسم هذا النائم رغم الروائح الكريهة والضجيج والكآبة زولفيار. وقد يكون هذا هو المكان الوحيد الذي يشعر فيه بالراحة. فهذا هو مركز الاستخبارات الهمايونية الذي سيتمكن بنيامين من دخوله بعد سنوات. والذي كان زولفيار فيه حينها أعلى الجواسيس رتبة.

نكزه الرجال وأيقظوه فتفحّص بعينيه الناعستين أبا خنزير. وكان ما يزال يحملق فيه أثناء ارتشافه القهوة التي قُدّمت إليه. في النهاية أمره بالجلوس قائلًا: «من الآن فصاعدًا ستعمل من أجلنا. من أجل الاستخبارات ومن أجل أفندينا».

أثارت هذه الكلمات حيرة أبي خنزير. لكنّه كان يبدو سعيدًا وراضيًا من قلبه، رغم أنّه لم يفهم المطلوب. لكنّ زولفيار ليس بالرجل الذي يُخدع بهذا الامتنان الظاهري.

«أنت رجل أفندينا من الآن. ولكنّنا لا نعرف إذا ما كان بوسعنا الثقة بك. إلّا أنّ

هذه ليس بالمسألة الصعبة».

سعى أبو خنزير بالكلام المعسول والأدعية لإقناعه بأنّه أكثر رجل يمكنه الثقة به في العالم. فابتسم زولفيار:

«لا تبتئس، حتى إن كنت شخصًا لا يمكن الثقة به، فستفعل ما بوسعك لأن تكون كذلك»

ثمّ بإشارة منه فتح الرجال بابًا سحابًا أدخلوا منه رجلًا أوثق جسده بإحكام. وقد تعرّف أبو خنزير على هذا البائس فورًا. فقد كان عاملًا بفرن سميت بحيّ بهجة قابي(78).

قال زولفيار: «ليس لهذا الرجل أيّ ميزة. بل مجرد شخص اختاره رجالي بشكلٍ عشوائي وساقوه إلى هنا. ولكن ما سيحدث له قد يجعلك تفهم بعض الأشياء». وأشار إلى كأس مليء بمشروب على مقعد وأمر بأن يُشربوا أبا خنزير نصفه. فشرب المتسوّل نصفه، ثمّ أشربوا عامل الفرن بالإكراه ما تبقى منه. بعدها راح زولفيار ينظر إلى ساعة بحجم البيضة أخرجها من نحره.

طفق المتسوّل والعامل المسكين يتعرّقان لسبب غير معلوم. فتناول الجاسوس من دولاب المحاليل عبوّة ملأى بالحبوب الحمراء وأعطى إحداها لأبي خنزير. كانت الحبة مُرّة كالسم لدرجة أنّ الشحاذ ظنّ أنّهم سمّموه. ولكن كان عامل الفرن هو من بدأ يتلوى ويتأوه وليس هو.

قال زولفيار: «أرأيت؟ كلاكما شربتما من نفس المشروب السامّ. ولكنّك تعيش بينما هو يموت. لكن لا تفرح، حتى أنت يبقى في عمرك يوم واحد إذا لم تتناول

حبّة من هذه كلّ يوم. سيستمر مفعول السمّ في بدنك لأعوام. ولكن طالما داومت على تناول الحبوب فلن يصيبك ضرر. وإذا لم تصدّق ما أقول فبإمكانك ألّا تتناولها. والتجربة مجانية. ولكنّك تفعل بنفسك خيرًا إن جئت لزيارتنا عندما تبدأ بالاحتضار، أي عندما تتعرّق. وربما وجدنا لمشكلتك الأخرى حلًّا أيضًا».

سلّم عامل الفرن روحه بعد أن استفرغ الكثير من الأخلاط الخضراء. وبعد أن وضعه الرجال في شوالٍ وذهبوا به أصلح زولفيار هندامه أمام مرآة طويلة. لأنّهم كانوا سيمثلون بين يدي حضرة أفندي جهاز الاستخبارات الهمايونية.

كان هذا الجاسوس عديم الرحمة مع الآخرين يخفض صوته عندما يذكر اسم الأفندي الأكبر كعلامة على الاحترام والتوقير ويضع يديه على صدره وكأنّه يمارس عبادة سرّية. عندما سأله الشحاذ الذي لم يستوعب ما يجري بعد عن اسم الأفندي الأكبر همس الآخر: «أبرهة». فأفزع سلوكه أبا خنزير لدرجة أنّ محاولة تصوّره لشكل الأفندي الأكبر هذا، والذي يهابه حتى زولفيار المخيف، كانت كافية لتبثير شفتيه.

فتح زولفيار بابًا وهمس بأشياء نحو الداخل. كان يُستنتج من التعابير الوقورة على وجهه أنّه يتحدث إلى أبرهة. تجمّد دم أبي خنزير من الرعب لمّا سمع صوته الحادّ المبحوح الذي كان قبيحًا ومعدومًا من أيّ جمال وكأنّه شيء بين صوت النساء وصوت الصبيان. ولمّا أمره الجاسوش بالدخول اصطكت ركبتاه وقدماه. كما فاقم من خوفه الدخان كريه الرائحة الذي كان ينبعث من الغرفة.

بعد مرور سنوات على ذلك، في المكان الذي بيع له فيه بإحسان أفندي الطويل بعينين مقلوعتين وأنف مشروم وأذنين مقطوعتين مقابل ذهبيتين، سيشمّ أبو

خنزير هذه الرائحة مجدّدًا ويتذكر هذا اليوم بحنين. هذه الرائحة التي لن تفارق لأشهر ذاكرة بنيامين، الذي سينضمّ لجهاز الاستخبارات لاحقًا، كانت تفوح من زئبق يُسخّن في إنبيق مصمت.

سدّ أنفه ودخل إلى الغرفة التي كانت جهنّم كيمياء. كانت تشتعل وسطها اثنتان من مواقد زوسيموس الثلاثة، وتغلي فوقها أنابيق باهتياج. وكان على جدرانها منافخ معلّقة مختلفة الأحجام والاستخدامات وملاقط وبوتقات. وعلى موائد الشغل كانت مدّقات هاون ومطاحن لسحق فلزات المعادن وأنابيب زجاجية لولبية وأنواع وأشكال الآلات والأدوات. وعلى الأرفف كانت أوعية كبيرة وصغيرة ملأى بالمساحيق الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء وقّنان بأحجام مختلفة معبّأة بسوائل من شتّى الألوان. وإذا لم يُحسب الدخان الأزرق الذي يعم المكان، فإنّ اللون الأحمر والبرتقالي للنّار المشتعلة في موقد الطوب يعتبر اللون المهيمن على الغرفة.

تقدّم المتسول نحو الموقد مباشرةً ورأى الأفندي الأكبر أبرهة الذي كان يشبه الخفاش بعمامته السوداء وجبته الحمراء، ويبدو وكأنّه لا يتأثر بالدخان الأزرق هنا. كانت أصابعه الطويلة وأظافره المتّسخة، التي لم يقصّها منذ زمن، مصفرّة من الاشتغال بزيت الزاج. وكانت ذقنه صغيرة وبشرته التي تشبه بشرة النساء شفافة لدرجة أنّ العروق الزرقاء كانت بادية على صدغيه وجبهته وظهر يديه. كما كانت عيناه واسعتان ببؤبؤين صغيرين قاتمي السواد. وكانت على وجهه وعلى أماكن أخرى من جسده حروق الأسيد. ورغم أنّه أجرد إلّا أنّ عدة شعراتٍ لافتة للنظر على ذقنه كانت كافية لتصبغ عليه مظهر الهيمنة والسيادة.

كان يخبر المتسوّل الذي كان يقف أمامه بخضوع وامتثال بصوته القبيح وغير

المتجانس بما كان يريد منه. وقد كان الانطباع الأول لصوته ورائحته ومظهره يجبر من يستمع إليه على إطاعة أوامره ويمنعه من أن يفكر حتى بتجاهلها.

بعد سنوات سيتذكر أبو خنزير ذلك الصوت المبحوح من جديد في اليوم الذي ذهب فيه ليشتري إحسان أفندي الطويل ويجعل منه متسولًا بعد تعرضه للأذى والتعذيب. وسيستمرّ بالتفكير في ذلك اليوم والأيام الأخرى في أهداف أبرهة التي لا يدركها عقل.

كان ما طلبه منه لحظة إشراكه في الاستخبارات كرهًا بالغ الغرابة حقًا؛ فقد طلب منه أن يرسل إليه بجميع صدقات متسوّلي القسطنطينية اليومية لليلة واحدة على أن تعاد إليهم في صباح اليوم التالي.

كان في مساء اليوم الثاني من تجرّعه للسمّ اللعين بعد نجاته من الإعدام يفكّر في سبب هذا المطلب الغريب مع أنّ لديه داخل عبوة النشوق سبع حبّات حمراء يفترض أنها ستبقيه حيًا. واستمرّ طوال الليل يفكر في الأمر.

عندما بدأ بالتعرق فور طلوع الصبح تناول من الحبات واحدة. وفي الوقت التي كانت جميع الصدقات التي جمعها المتسولون العائدون بعد أذان المغرب تُفرغ تحت إشرافه من الأكياس المرتوقة إلى الشوالات لم يكن قد وجد تفسيرًا منطقيًا بعد.

كانت الشوالات الملأى بالفلوس والمنقورات والأقجات والقروش وأحيانا بعض الدنانير تؤخذ في كلّ مساء من قِبل رجال زولفيار وتعاد في الصباح بواسطة نفس الرجال من دون أيّ نقصان.

أخذ فضول أبي خنزير الذي يوزع الأموال على المتسوّلين بعد أن يأخذ منها غلّته يزيد مع الأيام. فالأموال المُسلمة مطابقة تمامًا للأموال المسئَلمة بفلوسها ومنقوراتها وقروشها، بل كان من الممكن كذلك تمييز بعض العملات التي بها عيوب سك. ماذا كان يُفعل بها إذا لم تكن تُصرف أو تُستدان؟

قدّم أبو خنزير لأحد رجال زولفيار الذين يأتون لاستلام الأموال كوزًا من الخمر ووجّه له هذه السؤال. فمال الرجل الذي كان يهوى الشرب نحو أذن أبي خنزير وكأنّه يفشي له بسرّ وهمس:

«صدقني، حتى أنا لا أعرف. لكنّ أفندينا أبرهة يعدّ شوالات النقود عديمة القيمة طوال الليل ويعزل ما دكن لونه منها بالذات جانبًا. أسمعه دائما يتحدث مع زولفيار عن عملة سوداء. لا بدّ أنّه يبحث بين صدقاتكم عن العملة التي يقال عنها «عملة الشيطان». وهو لا يفعل ذلك مع شوالاتكم فقط، بل مع شوالات أموال تأتي من أماكن أخرى أيضًا».

دخل زولفيار فجأة، وأنزل صفعةً ثقيلة على وجه المسكين الذي كان يشرب على رأس العمل. في اليوم التالي لم يأت الرجل، ولاحظ أبو خنزير وجود خاتمه على إصبع زولفيار. عندها كتمت رغبته في العيش فضوله، ولم يعد يطرح أسئلة تؤدي بحياته للتهلكة، ولا حتى على نفسه. فقد فضّل أن يصمت ويأخذ مقابل ذلك الحبّات الحمراء.

وقد استمرّ هذا الوضع لسنوات. استمرت فعالية السمّ في جسده، واستمر تعرقه كلّ صباح بالذات. لكن كلّ ذلك كان توهّمًا. فالسمّ الذي قُدم إليه في ذلك اليوم المشؤوم هبط إلى قعر الكأس لأنّه كان أثقل من الماء. لذلك تسمّم العامل

بالنصف الثاني من الكأس بينما لم يتسمم هو. ولكنّه لم يكن سيكتشف أنّ هذه الخدعة المشؤومة هي ما كان يسممّ حياته إلّا بعد سنوات.

بعد ستّ سنوات من نجاته من الإعدام وانضمامه لجهاز الاستخبارات أصبح يأكل لحم الخنزير بكلّ أريحية. في أحد الأيام وبينما كان يملأ معدته بصينية من كرش الخنزير جاءه رجل من رجال زولفيار وأخبره بأنّ عليه المجيء إلى المقرّ فورًا.

لما مرّ من الدهليز إلى مقرّ الاستخبارات رأى إحسان أفندي الطويل على الأرض يسبح في دمائه. كان الإنكشاريون قد قلعوا عينيه وشرموا أنفه وقطعوا أذنيه لأنّه لم يخبرهم بما يريدون معرفته. وكان أبرهة يصبّ حمم غيظه على زولفيار الخائف لأنّه ترك الرجل للإنكشاريين، ويصرخ فيه قائلا أنّ اللجوء إلى التعذيب لاستنطاق أحدهم شيء يفعله عديمو العقل فقط. هناك العديد من الطرق الأكثر جدوى حسب كلامه. قد تكون أكثر لطفًا ولكنّها أنجع بكثير. أمّا الآن فإنّ من شبه المستحيل استنطاقه وقد أصبح لا يرى ولا يسمع. إلّا أنّه قد يفيد أبا خنزير بحاله هذه، فهو مرشّح لأن يصبح متسوّلًا جيّدًا؛ لذلك بيع إحسان أفندي الطويل لنقابة المتسوّلين مقابل ذهبيتين.

طيّب أبو خنزير من جراح الرجل. ولكنّه قام بذلك بشكل عشوائي عمدًا. وحرص على ألّا تلتئم بشكل كامل. لأنّ الجروح والقروح والكسور والخلوع في مهنة التسول مرغوبة. لكنّه عندما حلّ الضمادات بعد أسبوع ليعاين عمله الفني أصابته الخيبة. فلم يجد الالتهابات وإفرازات الجروح والدمامل مكانها للأسف. كما أنّ المشروب المطعّم بالرصاص الذي أشربه إياه لجعله يرجف لم يؤدّ مفعوله. لكنّ المحجرين الفارغين والأذنين المقطوعتين والأنف المشروم كانت ما تزال

تثير الحزن والشفقة في كلّ من يراه. لذلك عيّن له من النقابة من يقوم بإرشاده ثمّ أرسلهما ليتسوّلا في باحة جامع أيوب.

كان المتسوّل الذي يقود إحسان أفندي الطويل يحكي عند عودته في المساء بكيس مليء بالصدقات في حيرة وتعجب كيف أنّ هذا الأعمى الأصم كان يتصرّف وكأنّه يرى ويسمع كلّ شيء. وقد اشتبه المتسولون بكونه لا يسمع فأطلقوا عيارًا ناريًا من مسدس عند أذنه ولكنّه لم يُبدِ أيّ ردّة فعل. ولأنّ قلبهم لم يطمئنّ تمامًا رفعوا جفنيه ليتأكدوا من كونه أعمى ونظروا إلى محجريه، ولكنّهما كانا فارغين. فارتاحوا عندها.

لكنّ أبا خنزير لم يكن ليرتاح أبدًا. فقد أخبره أبرهة أنّهم بصدد عمل في غاية الأهمية عليهم أن يعملوا جميعًا من أجل تحقيقه. كما أخبره أنّه سيمنع عنه الحبوب لو حصل أيّ إهمال في سير الخطة سواء كان مذنبًا أم بريئًا. فقد أضيفت الآن إلى مهامه الأخرى مهمّة مراقبة إحسان أفندي الطويل وعدم تركه لوحده أبدًا، وإبلاغ زولفيار في حال اقترب شاب منه فورًا.

كان زولفيار قد أسهب في وصف هيئة هذا الشاب له، بل حتى إنه أعطاه صورة كان قد جعل أحد النقاشين يرسمها بناء على وصفه. لكنّ أبا خنزير لم يشتبه في أيّ شابٍ جاء إلى النقابة منذ شهرين من بدئه بإرسال إحسان أفندي الطويل للتسوّل في أماكن مختلفة. لأنّ الشاب الذي جاء كان وجهه مشوّهًا لدرجة تكفي لمنعه من الخروج والاختلاط بالناس. كما كان يدّعي أنّه جاء من الأناضول إلى القسطنطينية ولم يجد عملًا. ولم تكن ملامحه تشبه التي ذكرها زولفيار أبدًا.

كان واضحا أنّه شاب من صوته وبشرة يديه. لكن خُمسَي المتسولين هم من الأطفال والشباب أصلًا. كما كان يبدو أنّه سيجمع صدقات كثيرة بوجهه المشوّه هذا. مع ذلك لم يهمل أن يسأله ويستجوبه قليلًا للاحتياط.

أخبره أنّ سبب تمزّق وجهه كان قضيّة ثأر مزق فيها خصمه وجهه بالمنجل. وأنّه هرب بعدها خوفًا من القتل من قريته إلى القسطنطينية، ولكنّه بسبب التشوّه في وجهه لم يتمكّن من الحصول على عمل ولا العثور على كفيل. وأنّ كلّ ما يريده من الحياة هو أن يبقى حيًّا، وأنّه لا يطمع في مال ولا ملك، وأنّه مستعد حتى يُسجل في دفتر النقابة لتسليم لا سبعة أعشار الصدقات التي سيجمعها وحسب، بل ثمانية أعشارها.

لم يكن أبو خنزير بالرجل الذي يفوّت مصدر ربح سهل كهذا. لذلك تفضّل لأعوانه آمرًا بإحضار دفتر النقابة فورًا. فأحضر ثلاثة رجال دفترًا ضخمًا وسميكًا. كان ثقيلًا لدرجة أنّه وبمجرد وضعه على الكرسي الذي صنع خصيصًا له طقطقت خشباته.

هذا الدفتر التي كانت أولى صفحاته باللاتينية، تتبعها بالرومية، حافظ عليه متسوّلو القسطنطينية قبل وبعد الفتح بعناية وتفان كبيرين. وقد انتقل على مرّ عصور طويلة من نسل إلى نسل ومن شعب إلى شعب، حتى وصل أخيرًا إلى أبي خنزير.

فتح على صفحةٍ فارغة من الدفتر والتفت إلى الشاب قائلًا: «مهما يكن اسمك، فلا أهمية كبيرة له هنا، لأنّنا نطلق ألقابًا على من ينضمّون إلينا. والمتسول الذي له لقب يعتبر صاحب ثغر، أي أنّ له مكانًا مخصوصًا للتسوّل. ولكن عليه من أجل

ذلك أن يدفع أجرة تتراوح ما بين عشر فيلورينات إلى مئة وخمسين فيلورينة، حسب قيمة الثغر. وبما أنّك لا تملك هذا القدر من المال فلن نمنحك الآن لا لقبًا ولا ثغرًا. لكن علينا مع ذلك أن نناديك باسم ولو لفترة مؤقتة. بم ندعوك يا ترى؟»

وضع أبو خنزير يده على ذقنه وراح يفكر. ما هذا الحظ السيء! لم يكن يخطر على باله أيّ اسم. لكنه تذكر اسما نبّهه عليه زولفيار كثيرًا وحذره من نسيانه. فاتخذ قراره أخيرًا ورفع قلمه غامسًا إياه في المحبرة قائلًا: «لقد وجدته! سيكون اسمك بنيامين». ولم يلاحظ وهو يسجل هذا الاسم أنّ بنيامين كان يرتعد.

***

راح بنيامين الذي انضمّ للمتسولين من أجل إنقاذ أبيه يبحث عن مكان ينام فيه في مبنى النقابة بعد أن سجّله أبو خنزير في الدفتر الكبير. كان مقرّهم يقع بين جامع السليمانية وخان الوالدة. وقد كان في زمن ما خرابة كنيسة احترقت، ولم يؤذن بترميمها فهجرها رهبانها. ولكن من العجلة قول أنّهم هجروا كنيستهم لأنّهم حُرموا من حقّهم. لأنّ المبنى كان قد بُني قبل الفتح بمئات السنين بأموال الصدقات التي جمعها متسوّلو القسطنطينية ليكون مبنى نقابتهم. ولكنّ ملكًا متعسّفًا حوّله إلى كنيسة. وهناك شائعة ما تزال متداولة تقول بأنّ الحريق الذي أتى عليها أشعله المتسوّلون الذين لم يرغبوا بالتخلّي عن مبناهم للرهبان.

رغم ضخامة المبنى واجه بنيامين صعوبة حتى يجد مكانًا للجلوس. لأنّ حوالي الألف شحاذ كانوا متراكمين فوق بعضهم على الحشائش والأسمال والفُرش القديمة والطافحة بالقمل. في النهاية جلس بجانب امرأةٍ سمينة تشحذ مع سبعة أطفال معاقين يقال بأنّهم أولادها. فلم يكن هنالك سلاملك

وحرملك(79) في المبنى الذي ليس به فصل بين الجنسين. كما كانت أجساد جميع الرجال من شباب وشيوخ عبارة عن جلد على عظم أصلًا. أنوفهم معوجّة وأسنانهم متساقطة. كما كان في المكان الكثير من العميان والمقعدين والمشلولين والغرج والبكم وذوي القدم الرحاء والركب الفحجاء ومرضى النقرس ومبتوري اليد والصمّ والكسيحين والحُول وطريحي الفراش ومقطوعي الذراع والذأذائين وأصحاب العيون الحوراء، حيث أنّ رجلًا غريبًا قد يظنّ أنّ المكان كان مشفى. لكن كان في أعين الجميع، بما فيهم العميان وفاقدي الأطراف، بريق حيّ. بيد أنّ هذا البريق كان يخفت مع أول أشعة نهار يوم يخرجون فيه لجمع الصدقات، ويحلّ مكانه بؤس ويأس.

كان كلّ واحد فيهم قد طوّر بإبداع وتفنن طرقًا وأساليب لا تحصى لإثارة شفقة ورثاء الناس. بل إنّ بعضهم ألّف كتبًا تشرح أهمّ أسرار المهنة تاركًا تجاربه وخبراته إرثًا للأجيال القادمة. وقد كانت مكتبة النقابة ملأى حقًّا بالكتب التي ألّفها أعلام المتسوّلين؛ منها كتب تشرح أساليب التسوّل وأخرى تحوي قصائد وألحانًا ومواويل، وغيرها تتضمن قوائم بجميع النقود المسكوكة في ضربخانات الاثنين وسبعين قومًا. كما كانت هناك كتب جراحة تشرح أصول إحداث تشوهات وأضرار للإكثار من الصدقات. كتب الجراحة هذه كانت تعود بالطبع لجرّاحي النقابة الرسميين عديمي الرحمة الذين كانوا يكسرون أذرع وأرجل الأطفال القادمين من الأناضول ويفتحون في جلودهم جروحًا ليجعلوا منهم متسوّلين جددًا.

Telegram:@mbooks90

كان للنقابة كذلك صرّافين يقومون بفحص العملات المشبوهة وسط مجموع صدقات اليوم. وبعد أن يتحقّقوا بعمليات كيميائية من نسبة الذهب والفضة

في المسكوكات، يسلّمونها للمحاسبين الذين يعدّون النقود بسرعة لا تصدّق ويسجلون مجموع الواردات والمصروفات في الدفتر ثمّ يسلمونها جميعها لكتخداهم أبو خنزير.

يكفي حتى يدرك كلّ من يظنّ أنّ المتسولين كسالى عاطلين ولا شغف لهم خطأه أن يأتي ويلقي نظرة على النقابة. فهؤلاء، وعلى عكس حالهم الخَدر والبائس في النهار، يعملون في الليل بجدّ واحتراف كالنمل، ويكتفون بنوم بضع ساعات فقط.

يخرجون صدقاتهم من صررهم المتسخة عند عودتهم من عملهم ويسجلون مجموعها بعد أن يحصونها في حضرة الشهود لعدة مرات. بعد ذلك يسلمونها لأبي خنزير. ولا يندر أن تحدث شجارات ومشاكسات بينهم أثناء وقوفهم صفّ الانتظار. تُفصل النقود بعدها إلى أنواع ثمّ تُصنّف ويُتأكّد من حصيلتها النهائية. وبينما يجري ذلك يقوم رجل أعمى بتصحيح أخطاء حساب المحاسب بصوت عال.

في ساعات الليل التالية وبعد إشعال عدة قناديل إضافية، يقوم مشلول له قدم واحدة بإنشاد قصيدة تكوي القلوب كان قد نظمها حديثًا، ويطلب مساعدة زملائه لجعل النغمة أكثر ألمًا ووجعًا. بينما يطلب آخر العون من أصدقائه ذوي الآذان المرهفة في نظم شعر عن كونه كتب أدعية ينوي بيعها في اليوم التالي بدمه رغم أنّه كتبها بقلم قصب وحبر أحمر.

في تلك الأثناء تقوم أمّ السبعة أطفال بتنبيههم على أن يكونوا أكثر إلحاحًا والتصاقًا وانتزاعًا لما يمسكون به حين تُسلّطهم على المارّة المساكين، وتضرب

بالعصى من كان يشاغب منهم.

كلّ ذلك كان يدور في الفترة التي ينضج فيها الطعام. كان زادهم في ذلك المساء عبارة عن خليط مكون من أرز وبرغل وحمص وفاصولية وملح وعسل ولحم وزيت يغلي ببطء في قدر على نار الحطب.

مع اقتراب غَزف الطعام كان جميع الشحاذين بما فيهم الأطفال والرجال والنساء والشباب والشيوخ يصطفّون أمام القدر وبأيديهم طاسات جمع الصدقات، يتنشّقون بخار الطعام، وبطونهم تقرقر أثناء ذلك.

كان القدر الذي يطبخون فيه طعامهم يستعمل للاغتسال أيضًا. ولكن ذلك كان يحدث مرّة واحدة في العام كما هو التقليد المتّبع. ويكون ذلك بعد عيد الفطر، أي الوقت الذي يكون الناس قد فرغوا فيه من أداء جميع الأعمال الحسنة وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين. فالموسم الميت يبدأ بعده مباشرة.

يمتنع المتسوّلون عن الاستحمام طوال عام لأنّ القذر والمقمّل فيهم يلقى قبولًا وصدقات أكثر. ويستحمّون في اليوم الذي يتلو يوم العيد طالما أنّ الأعمال ستكون كاسدة على أيّة حال. يسخنون الماء في القدر ويفقأون قمل رؤوس الأطفال والمسنين. كما أنّهم أحيانًا يستأجرون مدلّكًا من الحمامات القريبة. وعندما يظهر مفعول مشروب قتل الدود الذي شربه الأطفال تكون المياه قد سخنت وجهزت للاستعمال. عقب ذلك وحين يبدأ فصل التدليك بالكيس(80) تخرج قذارة بكميات هائلة، لدرجة أنّ في إحدى المرات ردّد المدلكون المستأجَرون «يا سبحان الله!» عندما رأوا كتل القذارة المتساقطة من ظهر شحاذ مسنّ.

كان بنيامين يراقب ما حوله دون أن يلفت انتباه أحد وهو يحاول التأقلم مع هذا العالم الملوّن الغريب الذي لم يكن يعرفه من قبل، والذي دخله وغاص فيه من أجل تخليص أبيه. لم يكن قد رأى أباه بعد. لكنّه متأكد أنه في مكان ما هنا. ولكن حتى لو وجده فلن يكون اقترابه منه سهلًا. فهناك احتمال كبير أن يكون زولفيار قد أمر بمراقبته. ولكنّه قد يكون متوهّمًا بشأن ذلك.

فكّر حينها بأن يقوم ويتجول في المكان بحثًا عن أبيه. عندها رأى عدّة متسولين يكوّمون شوالات مليئة بحصيلة المال اليوميّة أمام الباب، فمكث مكانه يراقبهم. سيحمد الله لاحقًا على أنّه لم ينفذ ما كان ينويه، فقد ظهر بعد قليل عند الباب رجال مسلّحون لا يشبهون المتسوّلين في شيء. وقد ضُعق لما رأى زولفيار بينهم.

دخل الجاسوس إلى المبنى بعد أن خَتم على أوراق مدّها إليه أبو خنزير وجاء إلى قسم الشحاذين المسنين. راقبه بنيامين خلسه وهو يتحدث مع أبي خنزير متفحّصًا لرجل ممدّد على الأرض. كان ذلك الرجل أبوه. وقد كان في حالة تجعل التعرّف عليه فيها شبه مستحيلة. حبس الشاب دموعه بصعوبة، ولكن ما زال به بعض الأمل. وحتى لو كان يائسًا، فلم يكن بيده شيء آخر ليفعله طالما قد باشر بهذه الخطّة.

شعر برغبة شديدة لأن يهرع إلى أبيه ويلثم يديه. فجأة شعر بعجز وقلّة حيلة شديدين فابتعد عن المكان وانهار يبكي أسفل أحد الأعمدة. ولم يكن هناك من يواسيه. لكنّ بعض المتسوّلين ردّدوا بأنّه لو استمر بهذا البكاء الموجع فسيترقّى في مدّة قصيرة إلى رتبة أستاذ.

بدأ مطر الربيع ينهمر بينما كان يشهق ويذرف الدموع. وقد فوّقته قليلًا نسمة باردة دخلت من الباب الذي نسي أبو خنزير إغلاقه. اشتدّ انهمار المطر وراحت السماء ترعد وتبرق. وبينما كان الشحاذون يردّدون بين بعضهم «الغيث علامة خير. ستكون سنة رحمة وبركة. وستزيد الصدقات»، تجمّد من نظر منهم إلى الباب في تلك اللحظة، وعمّت المبنى جلبة رُعبٍ وغضب مفاجئة.

تسمرت أعين المتسوّلين الذين كانوا يرتعدون، بعضهم من الغضب الشديد والآخرون من الرعب، على الباب، وراحت الشفاه تتحرك لاهفة بدعوات طلب الصبر والثبات. فقد كان بالباب شخص يثير فزع الجميع.

كان ذلك شخصًا أصلع بلا لحية ولا شارب ولا حواجب ولا رموش. لكنّ منظره يوحي بأنّه مسكين ضعيف، لذلك استغرب بنيامين خوفهم البالغ منه. راحوا يردّدون «جاء المنحوس من جديد، هذا الرجل لا يفهم الكلام، اضربوه بالعصا! اقتلوه! سيهدّ المبنى علينا هذا الديّوث» وهبّ الشجعان منهم غالبين تردّدهم. أخذ الأطفال يرجمونه بالحجارة بينما كان الكبار والنساء اللحيمات يهوون بعصيّهم على رأسه وعينه وظهره، وهذا وذاك يدفعونه نحو الخارج إلى تحت المطر.

أدرك بنيامين بعد بضعة أيام أنّهم معذورون في خوفهم هذا؛ لأنّ الملقب بمتعوس(81) هذا أصابه البرق في حياته ستّ مرات بالتمام. وقد كان في الماضي تاجرًا ثريًا ميسور الحال، ولكنه بينما كان يجلس عند نافذة متجره في إحدى الأيام أصابه برق فأحرق له شعره ولحيته وحول ماله وملكه إلى رماد.

وقد خطرت له أثناء تسكعه في الشوارع في فقر وبؤس فكرة أن يصبح

شحّاذا. فقضى صيفًا كاملًا يطيل لحيته الشهباء؛ لأنّ الشحاذ الأمرد لا يلقى القبول. إلّا أنّ برقًا آخر أصابه في الخريف قضى على رأس ماله من الوقار والهيبة وأحرق شعره ورموشه وحواجبه محيلًا إيّاها إلى رماد. رغم ذلك لم ييأس ونجح في جمع الصدقات بحالته الجرداء المرداء الملطاء هذه.

وحين اشتهر بنحسه بعد أن أصابته ثلاثة بروق أخرى مُنع بأمر فرمان من السلطان من التجوّل في القسطنطينية حتى لا يجذب ضربات البرق للمنارات والقصور والمنازل التي يمرّ من جانبها. ولكنّه لم يكن يأبه بذلك المنع؛ لأنّه بعد أن سُجن في مرّة لعصيانه أمر الفرمان ضرب السجنَ برقٌ وكلّف ترميمه 17 ألف أقجة.

بعدها أصبح يتجوّل حول القصور والأواوين مهدّدًا أهاليها بضربها بالبرق كطريقة جديدة لكسب الرزق. أحيانًا كانوا يتخلّصون منه بإعطائه الصدقة، وأحيانًا أخرى كانوا يرجمونه بالحجارة. وقد كانت أمنيته الوحيدة بعد سنين من الطرد والمنع هي أن يدخل إلى مكان مسقوف وينام فيه بارتياح تامّ.

أُطفئت مشاعل المبنى ما عدا قلّة قليلة منها للتوفير بعد طرد متعوس إلى مسافة آمنة بالحجارة والعصي. وفي الوقت الذي كان فيه بعض الشحّاذين يراجعون آخر قصائد نظموها، وآخرون يكتبون الأدعية على الألواح، والبعض الآخر يلعب الباربوت تحت ضوء مشعل، كان جميع الأطفال قد ناموا منذ وقت طويل. كما كان يتردّد في القبة التي تحمل آثار حريق الكنيسة القديمة صدى أصوات السعال والأدعية والشتائم بين فينة وأخرى، وتُسمع أحيانا صوت حجر نرد أُلقي مع دعوات رقم محظوظ.

واجه بنيامين صعوبة في الخلود إلى النوم. ولكنّه حصل على الكثير من المعلومات في أوّل ليلة يقضيها بالنقابة. كان ممّا تعلمه مثلًا أنّ هناك تراتبية تامّة بين المتسوّلين. فقد كان آمره الرئيسي رجلٌ يدعى عالمصاتي(82). الذي كان وبجانب كونه الكاغدجي باشي(83) (مسؤول الأوراق) والغويغويجي باشي (مسؤول الشحاذة بالأناشيد) والقصيدجي باشي (مسؤول القصائد) والأعمى باشي (مسؤول العميان)، كان في نفس الحين باش كديكلي (ضابط صف) مسؤول عن الأمن. وقد كان مساعده كسيح اسمه أوتَرئلبل(84).

بأمر هؤلاء الشيوخ ذوي اللحى البيضاء عُيّن بنيامين، أحدث الموجودين عهدًا هنا، صبيًّا لورّاق يدعى عطارد. فأصبحت مهمته أن يخرج معه كلّ يوم قبل صلاة الفجر، يُقبل يده ثمّ يذهب معه إلى المساجد ويجمع الصدقات كما يأمره.

قبل طلوع الصبح، وفي اللحظة التي كان بنيامين سيغطّ فيها بالنوم أخيرًا، وكزه معلمه ليوقظه. هذا الشحاذ الأسطا (المعلم) كانت عينه اليسرى عمياء وساقه اليمنى كسيحة وله لحيةٌ طويلة بيضاء وقذرة. كما كانت عليه جبّةٌ مرتّقة برقاع لا يمكن عدّها. لكن تلك الرقاع كانت مصدر فخره الرئيسي. فقد كانت عبارة عن قطع القماش المتبقية من خِلَع وقفطانات وسراويل وقمصان الصدور العظام ووزراء القصر والعلماء والعديد من الأشراف.

سلم عطارد إلى صبيه الجديد بعد أن مدّ يده له ليقبلها رزمة من الأوراق بحجم الكفّ. كان مكتوب على كلّ ورقة فيها عبارة «ليكن موضع سجودك الكعبة - صدقة من أجل رضى الله» ومرسوم فوقها صورة للكعبة.

كانت مهمة بنيامين في غاية البساطة. سيتجاوز الخدم ويدخل إلى المسجد

أثناء أداء الصلاة ويضع ورقة أمام كلّ ساجد. بهذه الطريقة سيقرأ كل ساجد هذه الورقة لا إراديا وستغمره المشاعر الدينية ويتأثر. وهو ما سيسهل خروج الصدقة منه. وعندما يراهما في الخارج وهما يجمعان الصدقات بعد الصلاة لن يتمنع عن إعطائهما أقجة واحدة على الأقل.

كان للمهمّة مع ذلك خطران: أوّلها خدم المسجد، فوفقًا لقوانين ذلك الزمان تُمنع الشحاذة داخل المسجد لإزعاجها المصلين، وكانت مهمتهم الرئيسية طرد من يحاول فعل ذلك من الشحّاذين بالعصي. مع ذلك فإنّ بإمكان بنيامين أن يدخل متظاهرًا بأنّه سيصلّي عند ركن الجدار. وفي أقل أوقات المصلين انتباهًا لما حولهم، أي عندما يسجدون، يوزع الأوراق بسرعة البرق على الصف الأول ثمّ ينتقل للثاني. وبما أنّه من المحتّم للخدم أن يفطنوا لأمره، فعليه أن ينفذ بجلده خارجًا قبل أن تنتهي الصلاة.

أمّا الخطر الثاني فهو أن يُسلم الخارجون من المسجد الأوراق ناقصة، حينها يكون مسؤولًا عن ذلك النقص. لذا فعليه أن يثير فيهم مشاعر الشفقة والرثاء بأيّ طريقة ممكنة. وفي حال فشل في ذلك سيستحقّ عصا معلمه. لأنّ النقّاش الذي جهّز هذه الأوراق طلب مقابل عمله أجرًا باهظًا.

كان عطارد قد وفّر القرش فوق القرش حتى اشترى ثغرًا للشحاذة في منطقة تخته قلعه(85) واثنين آخرين في آيا صوفيا. الاثنان الأخيران منهم كانا خطيرين لأنّه لم يتوصّل إلى اتفاق مع خدم المسجد على موضوع رشوتهما بعد.

كان يوم بنيامين الأوّل شاقًّا ومنهكًا لانعدام خبرته. بعد صلاة العصر راح معلمه يبصق على وجهه ويخبره بأنّه لو استمرّ على هذه الحال فلن يجيد فنّ الشحاذة

أبدًا.

قبل حلول المساء اضطرا للذهاب إلى إحدى حانات الخليج بسبب التكدّر الشديد المفاجئ للمعلم. كان يشرب الخمر التي طلب الخمّار ثمنها مقدّما وهو يبكي ويردّد أنه يحبّ بنيامين كابنه مهما ضربه وشتمه، وبأنّه سيخطب له ويزوجه بنفسه، وعندما يرزق بأولاد فسيعاملهم كأحفاده ويهتمّ بهم ويعلمهم جميعًا أسرار مهنة الشحاذة. ويقول أنّ من الأفضل له أن يتزوج بفتاة في عائلتها إعاقة وراثية. بذلك يمكن للأطفال المولودين بإعاقة أن يصبح لهم مستقبل شحاذة واعد.

كان بكاؤه يزيد كلما شرب، ويزيد شربه كلما بكى. في النهاية خرّ مكانه مغشيًا عليه. فاتتهما صلاة المغرب ولم يجمعا حتى نصيب أبي خنزير بعد. لذلك وضع بنيامين في كيس معلمه ستّ أقجات وواحدًا وعشرين منقورًا كان قد وضعها في جيب خاطه بداخل قميصه. وراح يبحث في جيوبه آملًا في أن يجد بعض النقود المنسيّة لمّا رأى أنّ ذلك لم يكن كافيًا.

لكن آخر عملة كان يحملها كانت تلك التي وسط كتاب أبيه. فكّر بأنّه الوقت الأنسب للتخلص من هذه العملة المشؤومة. ولكنّه تراجع عن إلقائها في الكيس في آخر لحظة مفكّرًا أنّه من الأفضل أن يشتري بها نصف خبز صمون من أحد الأفران بما أنّ طعام العشاء فاتهما. وبينما كان يمشي إلى النقابة حاملًا معلمه على ظهره بصعوبة وجد أنّ جميع الأفران قد أغلقت. مما يعني أنّه سينام الليلة جائعًا.

لم تختلف أيام التسوّل التالية مع عطارد عن اليوم الأول. ومع الوقت اعتاد

على طبع الرجل وديدنه. في الصباح يكون معكر المزاج لعدم نيله كفايته من النوم. لكنّ نكده يتلاشى تدريجيًا بعد شربه لقهوته في القراءت خانة التي ينتظران فيها حلول وقت صلاة الظهر. وفي المساء ينتكس مزاجه مجدّدًا ويغمر روحه حزن عميق بعد شرب كوز من الخمر في الحانة. لكنّ تأثير الخمر يجعله طيّبًا وكريمًا بقدر ما يحزنه ويكدره. فيصرّ أحيانًا على أن يكرم صبيه بشراب حتى لو كان من أردأ الأنواع، ويفتح صرّته ليدفع مانعًا إياه من أن يدفع آخر ما تبقى عنده. وعندما يخرّ مغشيًا عليه بعد مدّة لا تطول كثيرًا يحمله بنيامين على ظهره إلى النقابة ويسلّم المحصّلة إلى أبي خنزير. ثمّ يجلس ليراقب والده دون إثارة انتباه أحد.

كان أبوه تحت مراقبة عالمصاتي، الذراع اليمنى لأبي خنزير. والذي كان يمشي بمساعدة عصي أسفل الإبط بسبب فالج أصاب ساقيه من كابوس رآه. وقد كان مسؤولًا كذلك عن الأمن والنظام في النقابة. كان يبدو مغمومًا شاردًا، فقد أوكلت له مهمّة التعامل مع خطر كان يهدّد متسولي القسطنطينية فوق مسؤوليته بمراقبة إحسان أفندي الطويل. وقد كان ذلك الخطر طفلًا يترك أثر يده في الأحياء التي يرتكب فيها جرائمه، ويسمي نفسه أفراسياب.

هذا الطفل الذي كان يقود الحركة التي سيطلق عليها بعض محرري الوقائع غير الموثوقين في وقت متأخر اسم «ثورة الأطفال»، كان وبمعية أربعة وأربعين طفلًا أعمارهم بين الثامنة والعاشرة يغيرون على دكاكين بائعي الألعاب ناهبين الخشخيشات ودمى البهلوانات ويطلبون الإتاوة من بائعي القشطة.

لم يكن مكان إقامته هو وعصابته معروفًا. ولكن يُقال أنّه ابن امرأة قبطية وأن اسمه عليباز. كان سبب حقده على المتسوّلين هو قيام بعض أعيانهم بالقبض

على طفلٍ من عصابته وإجبارهم له على التسوّل بعد أن تسبّبوا له بإعاقة. وقد بلغ به الحقد والغضب درجة جعلته يركّز عملياته عليهم جميعا، بما فيهم العميان والمعاقين والمفلوجين والمصابين بالنقرس، ويضيّق عليهم الأرض بما رحبت.

كان يعرقل العميان بقدمه فيتدحرجوا على الأرض ويكسر عصي المفلوجين ويربط حبالًا حول أعناق المحدودبين. لكن كانت أشد أفعال الأطفال وطئًا هي إحراقهم للحى المتسوّلين البيضاء التي أطالوها وأعفوها بعناية واهتمام. وهو ما يعني خسارة المساكين لأبواب رزقهم، فالصدقة لا تعطى لمتسوّل بلا لحية.

وقد بالغ أفراسياب في ظلمه وطغيانه، ممّا جعل أبو خنزير الذي كان يراقب الإيرادات وهي تتناقص بعين دامعة يقرّع ويوبخ عالمصاتي كلّ يوم على فشله في التعامل مع مشكلته.

فوجد عالمصاتي الحلّ في توزيع مسدسات على بعض المتسولين في أماكن مهمة. فظهرت عواقب ذلك على الفور.

حاول متسوّل أعور ترتعد يداه المغطاة إحداهما وكأنّه محموم إطلاق النار على أحد الأطفال فأصاب بقرة، وأذعر صوت العيار الناري امرأة حاملًا فأسقطت جنينها. فأُلقي القبض عليه ورمي في السجن. وقد حكم عليه القاضي بقطع عضو من أعضائه، لكنّه تراجع عن ذلك لمّا تذكّر أنّ نقصان الأعضاء في مصلحة المتسوّل، وحكم عليه بالنفي من القسطنطينية.

لكنّ عالمصاتي لم يستسلم لمّا فشلت هذه الخطة وسلّم له المتسولون مسدساتهم. فخرج في إحدى ساعات الليل من النقابة نحو خارج المدينة. ومشى طوال الليل في البراري متجاوزًا التلال والسهول حتى بلغ سفح جبل. هناك خلع

جبته ذات البطانة الحمراء ولوّح بها عدة مرات. فنزل من الجبل كلّ من كان فيه من لصوص وقطاع طرق.

اتفق مع رئيسهم مستأجرًا منه ثلاثة من رجاله لمدة شهر مقابل أربعين ذهبيّة. كانت مهمة هؤلاء الذين هرّبهم عالمصاتي إلى المدينة داخل عربة تبن إنهاء مشكلة أفراسياب وعصابته.

في اليوم التالي تبين لعالمصاتي كم كان قراره مصيبًا. فقد هجم الرجال على أطفال حاصروا أحد المتسولين وقبضوا على اثنين منهم وسلّموهما إلى أبي خنزير.

لكنّهم في الأيام التالية طفقوا يتكاسلون ويتبطحون، ويطلبون من عالمصاتي بين كل حين وآخر بخشيشًا ومصروفًا وحقّ الضيف وإكرامية. في النهاية تخلّص منهم بشقّ الأنفس بعد أن هدّدهم بإبلاغ رئيس العسس عنهم. فعادوا إلى الجبل.

لما بدأ المتسولون يئنّون تحت وطأة جبروت أفراسياب من جديد أصبح كتخداهم أبو خنزير يغرق في أفكاره ويهمل النقابة، كما صار شديد التعاسة والكدر. كان متكدّرًا مغمومًا لدرجة أن حتى الأقزام المحدودبين عازفي الناي لم يفلحوا في إضحاكه.

فقد حدث المتوقع أخيرًا؛ صحا ضمير أبي خنزير الذي كانت إحدى قدميه في القبر. كان يردّد بأنّه لن ينجو من عذاب جهنم لأنّه أكل الكثير من لحم الخنزير ويصبّ اللعنات على نفسه في كلّ مساء أثناء شربه لنصف برميل من الخمر. وكان المتصوّفون(86) الذين يرونه على رأس برميل الخمر كل ليلة تقريبًا يكزون بعضهم مشيرين إليه للعظة والعبرة، ويردّدون «لقد ارتكب الكثير من

الآثام وها هو أجله يقترب».

أهمل أبو خنزير شؤون النقابة كنتيجة للشعور بالذنب والندم لأكله لحم الخنزير طوال حياته، ولم يعد يهتمّ بتجهيز الشوالات التي وعد بتسليمها كلّ يوم لأبرهة. وقد هوى زولفيار في مرة على وجهه بصفعة موجعة عندما رأى أنّ الأموال لم توضع في الشوالات بعد، وهدّده بحرمانه من الحبات الحمراء لو كرّر فعلته في اليوم التالي. إلّا أنّ أبا خنزير لم يعد يكترث إن عاش أو مات.

عندما عاد رجال أبرهة في اليوم التالي ولم يجدوا الأموال مجهّزة أشبعوا المسكين ضربًا حتى سال الدم من فمه وأنفه. مع ذلك كان يصرخ «اضربوني، أوجعوني، اقتلوني، فالحياة محرّمة عليّ!» ويردّد أنّ الدماء السائلة من أنفه هي في الحقيقة دماء خنزير. احتار زولفيار فيما عليه فعله لمّا رأى الرجل راضيًا بالموت. فركله وهو يسبح في دمائه عدة ركلات إضافية ثمّ جمع رجاله وخرج.

كان اليوم الذي تلا ذلك أوّل يوم يرى فيه بنيامين أبرهة. كان يراقب في فضول ما سيحدث في حال استمرّ أبو خنزير على موقفه. والذي كان مستمرا بتعاطي الخمر على رأس البرميل وكأنّه يوم اعتيادي. لم تكن شوالات النقود قد جُهّزت مع أنّ الرجال سيأتون بعد ساعة. في النهاية حصل ما كان متوقعًا. فُتح باب النقابة عنوة بركلة جندي، ودخل ما يقارب العشرين إنكشاريًا. وقد جذب الرجل الذي كان وسطهم انتباه بنيامين، والذي كان أبرهة.

كان لافًا عمّته السوداء على رأسه ولابسا جبّته الداكنة. تقدّم في خطوات صارمة حتى وصل إلى أبي خنزير الذي كان قد فقد وعيه منذ مدة. وأمر بإحضار فنجان قهوة ودلو من الماء.

سكب الماء البارد عليه فاستيقظ. ثمّ أشرِب فنجان القهوة كرهًا. ولمّا زالت الغشاوة عن عينيه رأى أبرهة ماثلًا أمامه فصعق ولم يصدّق عينيه. الرجل العظيم الموقّر أبرهة جاء إلى عنده! ها قد أضاف الكفر بالنعمة إلى كومة الخطايا التي كان يضاعفها بأكله للمحرمات.

شعر أبو خنزير الذي تضاءل لأيام بسبب الشعور بالذنب والندم بالحرج والعار لتكليفه على سيده وجغله يضطر للمجيء إلى هذا المكان الوضيع بسببه، ممّا جعله يحسّ بأنّه أتفه من قملة وأحقر من برغوث.

تربع في جلسته احترامًا له. ولكنّه كان يشعر بالغثيان وتدهمه رغبة شديدة في التقيؤ. في النهاية أخرج كلّ ما في بطنه بعد أن عجز عن المقاومة بينما كان سيّده يبتسم له ابتسامة مخيفة تثير الرهبة في النفوس.

قال أبرهة: «ما أسرع نسيانك لسيدك أبرهة! لماذا لا تلبّي طلباته؟ ألا تعرف أنّك بفضله تعيش؟»

أدرك عندها أبو خنزير أنّ نسيانه لعظمة وهيبة أبرهة الذي لم يره منذ زمن طويل كان هو سبب عدم اكتراثه. فقال بصوت يرتعد:

«رحماك أيّها الأفندي الأعظم، لقد انهمكت في ذنوبي وخطاياي حتى لم أعد أدري ما أفعل. اقتلني إن شئت أو اتركني، الأمر يعود لك. سأفعل ما تأمرني به من الآن فصاعدًا. ولا أسرع من الحاضر، مرني بالموت وسأموت».

فقال أبرهة دون أن يرفع عينيه عنه:

«لا أريد لك الموت، على الأقل ليس الآن. ولكن إن كررت فعلتك فسيكون

الموت لك خلاصًا سهلًا. تعرف هذا، أليس كذلك؟»

راحت يداه وساقاه ترتعدان من الخوف. وكان اضطرابه وقلقه يزيدان لأنّ أبرهة لم يكن يحوّل عينيه عنه أبدًا. أراد يحول نظراته إلى شيء آخر غير عيني أبرهة المنهِكتين لروحه، ولكنه كان يخشى من أن يؤوّل ذلك بالنفاق وعدم الإخلاص. فأخذ يفكر في طريقة للخلاص من هذا المأزق العويص، ووجد الحل في أن يتظاهر بالانشغال بإكرام ضيوفه.

«أي أبرهة المهاب. لقد جئت إلى نقابتنا المتواضعة لأول مرة ولم نقدّم لك شيئًا. وليس من اللائق أن تفارقنا دون أن نكرمك بالطعام والشراب. لذا اسمح لي أن أجهّز لك مأدبة عامرة».

بهذا الشكل أمسك المتسول الماكر بزمام المبادرة وراح يلقي بالأوامر يمنة ويسرة. فوُضعت الصينيات ورصّت الوسائد. وفُتحت براميل الخمر. وأُحضر من مؤونة الكتخدا لحم مقدد وسجق وخبز باغيت ووضعت على الصينيات. أشعلت النيران وبدأ تقليب الحملان والدجاج عليها. كل ذلك كان يجري بينما يقوم أبو خنزير بالسقاية مالئًا قدح سيده من قنينة الخمر بنفسه وهو سعيد من رضى وانشراح ضيوفه.

بينما كان الشحاذون الآخرون ينظرون باشتهاء إلى الأطعمة اللذيذة، كانت عينا بنيامين مثبتة على أبرهة. هذا الأمرد داكن الملابس مبحوح الصوت هو رئيس زولفيار إذن. هذا النحس غريب الأطوار شفاف البشرة الذي يشبه منظره منظر الخفاش هو من تسبب بتغير قدره هو وأبيه. قرّر أثناء تفكيره عميقًا بشأن ما عليه فعله بأن يستغلّ أول فرصة تسنح له.

وقد سنحت له الفرصة التي انتظرها بعد مدة قصيرة. فبينما كان الضيوف يلتهمون الأطعمة الأشهى من بعضها وضع أبرهة يده فجأة على صدره وشحب لونه وجحظت عيناه الكبيرتان واحمرّتا بلون الدم وبدا أنّه يحاول أن يسعل.

في البداية لم يستوعب أحد ما يجري. وظنّ زولفيار أنّها محاولة تسميم فوضع يده على مشمله. لكنّ المسألة لم تكن كذلك: فقد كانت إحدى اللقم الحرام قد علقت بقصبة أبرهة الهوائية وحوّلت لون بشرته التي كانت بلون الرماد قبل قليل إلى بنفسجي داكن.

ارتبك الجميع وسرت جلبة بالمكان. كان زولفيار يلقي بالأوامر يمنة ويسرة وهو يحاول أن يشربه ماء، ويأمرهم باستدعاء حكيم وبإقفال أبواب الخروج. ولكن حصل في تلك الأثناء شيءٌ غير متوقع.

قفز بنيامين من مكانه إلى المائدة وسحب أبرهة الذي كان على وشك الاختناق موقفًا إيّاه على قدميه ثم وقف خلفه وأحاط ببطنه بيديه وقام بحركة فجائية ضاغطًا على قفصه الصدري، فدفع الهواء الذي خرج من الرئة بهذه الحركة اللقمة الحرام فطارت نافرة من فمه. كانت قطعة من الثريد المطهو بمرق الأرنب، والذي اشترى بنصيب أبي خنزير من إيرادات النقابة.

ارتاح الجميع إثر ذلك. وقام زولفيار بلفّ اللقمة في منديل ليتفحصها لاحقا، بينما كان أبو خنزير يشمم أفنديه روح النعناع.

نظر الأفندي الأكبر بعد أن عاد له وعيه بفضل روح النعناع إلى بنيامين الذي أنقذ حياته طويلًا متفحّصًا إياه من رأسه حتى أخمص قدميه ثم سأله:

«أنت لست بجرّاح، أين تعلمت هذه الطريقة، ولمَ تعلّمتها؟»

فأدرك بنيامين حينها أن عليه أن يتصرف كبطل من الآن فصاعدًا. فقال رغم أنّه تعلم حركة الإسعاف هذه من أبيه إحسان أفندي الطويل:

«ليس مهما أين تعلمتها. لم يكن هدفي بها أن أنقذ حياتك، بل أن أجرب ما إذا كانت فعالة حقًّا أم لا. أمّا عن هدف تعلمي لها، فأنا قد جئت لهذه الدنيا حتى أتعلم. وإن كان ثمّة شيء مقدس لدي فهو المعرفة، سواء كانت معرفة هذه الدنيا أو الآخرة. لذلك فإنّي أزن ما أتعلمه في ميزان العقل وأتحقّق دائمًا ممّا إذا كان صائبًا أم لا».

كان وجه أبرهة عابسًا أثناء استماعه له. أمّا أبو خنزير الذي اعتراه القلق من ترك أحد أعضاء نقابته لانطباع سيّئ بتصرّفه الجريء الوقح فقد أطلق ضحكة شديدة الاصطناع ليوحي بأنّ الشاب كان يمزح. لكنّ وجه الأفندي الأكبر الذي ساوره الشك ازداد عبوسًا فوق عبوسه. وقال بعد أن نظر طويلًا إلى وجه الفتى وكأنّه يحاول أن يتعرف على هويته المخفية خلف وجهه المشوّه:

«إذا كانت المعرفة هي أكبر هدف لك في هذه الحياة كما تقول، فما زال أمامك الكثير لتتعلمه. وربما ستتعلم ذلك منّي. فأنا لا أبحث عن المعرفة في المدارس أو الخرابات كما يفعل الناس، بل في مكان مختلف. ولكن أين تبحث عنها أنت؟».

أجاب بنيامين بنبرة واثقة:

«في العالم».

فارتسمت على وجه الأفندي الأكبر ابتسامة واسعة أذهلت زولفيار، لأنّها لا تُرى

على وجهه إلّا نادرًا، وقال:

«يا له من تشابه غريب. كنت أظنّ هذا الجواب خاصًا بي أنا فقط. يبدو أنّنا سنلتقي بك أكثر. فأنا أودّ أن أعرف وجه من حقًّا هو وجهك. تعال إليّ غدًا في منتصف الليل تمامًا. هذا الحقير يعرف أين تجدني».

كان بـ «الحقير» يقصد أبا خنزير. بعدها أخذ جبّته وخرج بينما كان رجاله في الخارج يحمّلون البغال شوالات النقود. كان يمشي في ثقة وخيلاء بحيث أنّ من يراه لأول مرّة لا يخطر على باله أنّه كان على وشك الموت قبل قليل.

***

قبل أن تستيقظ القسطنطينية بقليل وضع المؤذنون الذين كانوا على شرفات المآذن أيديهم على آذانهم وهم ينظرون إلى الساعات في كفوفهم مترقّبين وقت الأذان. في ذلك الوقت كان الفتى التي لا يعرف هويته المخفية خلف جروحه سواه يتسكع بلا هدى ولا هدف في قلب المدينة.

وقد كان لصوص الليل أوّل من رآه. كانوا عائدين من أعمالهم وعلى ظهورهم أكياس ملأى بالمسروقات وفي أحزمتهم مفاتيح هيكلية تفتح ألف باب وباب وهم يشكرون الله ويذكرون اسم شيخهم ميردَسَنك سَهْبَرَنْدي بسُبحهم ذات التسعة والثلاثين خرزة، ولمّا رأوه رمقوه بنظرات ملؤها الريبة.

وكان ثاني من يرى هذا الساهر الذي أرّقه التفكير هم الجلادين الذين كانت على خواصرهم أوهاق(87) خاصة للتعليق والقطع والخنق وفؤوس وشِفر وحبال. كانوا ينتظرون مع صبيتهم(88) ومساعديهم البغال القادمة من القصر

وبجانبهم شوال فيه ثماني رؤوس لموظفين في مقامات عليا قطعوها وملّحوها حديثًا.

عند صياح الديكة رآه الغلمنجية الذين كانوا يلعبون الباربوت مُلقين على الأرض بدل أحجار النرد عبوات الدهن الذي يدهنون به أعضائهم عند الملاوطة ورمقوه بنظرات فاحصة من رأسه إلى قدميه.

ولمّا رآه المجانين سائلو المخاط المحاطة خصورهم بالسلاسل في محمود باشا وهم يضحكون ويبكون ويتشقلبون ويقفون على أيديهم كان أذان الفجر قد بدأ. ولمّا مرّ من عند المأبونين والغلمان الصفيقين همسوا له بأجرتهم بغنج ودلال ونظرات راغبة.

وفي الوقت الذي بدأ فيه الحرفيون والتجار يرحبون بزبائنهم إلى مستودعاتهم ومتاجرهم التفت الحمّالون الأرمن وعلى أكتافهم صناديق الأموال إليه لمّا مرّ من خلفهم فوضع الحرس الذين كانوا يحرسون الصناديق المهمّة أياديهم على نصال مشاملهم فورًا.

وخلال مروره من أمام من كانوا يعملون كصرافين في النهار وكمقامرين في المساء في تخته قلعة كانوا يردّدون «يا للعجب! هذا الشاب أنقذ أفندينا الذي يميز عيار الذهب بلسانه ومن أوّل رمية نرد تظهر له دوشيش(89)!».

وأثناء تجوله عند الخانات(90) كانت تظهر في نوافذها قبّعات وطرابيش تجار من كلّ الأقاليم والأصقاع وهم يتفرّجون عليه. يقول تاجر الفلفل وحبّ الهال والقرفة لسمسار عود القرح والهيل والزنجبيل وهو يمدّ له بعبوة النشوق أثناء مساومته على بضاعته: «عجيب! الأفندي الذي يشتري بواحد ويبيع بواحد

وعشرين مدين بحياته لهذا الرجل!».

وفي الوقت الذي تنشط فيه الأسحار، أي الذي ترتفع فيه الشمس إلى الدرجة السادسة عشرة على الإسطرلاب، دخل إلى أحد أزقة أوزون چارشي بشكل مفاجئ مفزعًا بعض القطط السوداء، ما جعل السحرة يعدّون ذلك فألًا سيئًا.

ولمّا وجد المنجمون الشمس على الدرجة الواحدة والعشرين لمّا نظروا إلى إسطرلاباتهم رآه مؤذنو مسجد بايزيد من المآذن وهو يشرب من السبيل التي توضأوا منها لصلاة الظهر قبل قليل. وحين ركعوا الركعة الثانية شوهد جهة الصحّافين(91) المبقعة ألسنتهم وأيديهم بالحبر الذي يلعقونه أثناء الكتابة. وقد تمتموا لبعضهم بأشياء غامضة لمّا مرّ من أمام دكاكينهم.

استمرّ يجوب في ذلك اليوم جميع أنحاء القسطنطينية. يدخل ويخرج من الخانات والحمامات والمقاهي والأتانين والجوامع والدكاكين. وخلال ذلك رآه وأحسّ به ولاحظه الآغاوات والحمقى، والعلماء والجهلاء، والقلّاسون والمحتالون، والمخادعون ومماطلو الديون. وأثناء تواجده في السوق المصري(92) تمكن بحركة رشيقة من تجاوز زولفيار ورجاله دون أن يروه.

في الوقت الذي استقلّ فيه زورقًا إلى غلاطة شاغرًا آخر مكان تبقى فيه كان يغمره أمل وقلق في نفس الوقت؛ أملٌ لإمساكه بزمام الأمور التي لم يكن يتحكم بها حتى البارحة، وقلق بسبب نظرات زولفيار المفعمة بالشك والريبة.

فصحيح أنّ زولفيار لم يتعرّف على هويته أثناء عودتهم من الغزو، لكنّه رأى وجهه الممزق في العربة المحمّلة بالجرحى تلك. كما أنّ ريبته ستزداد حتمًا عندما يخبرهم أبو خنزير عندما يسألونه عنه بأنّه جاء من الأناضول للتسوّل.

كان أبو خنزير قد جاء إليه في المساء بعد ذهاب أبرهة وقال له:

«هنيئًا لك يا فتى! لقد أنقذت حياتك بإنقاذك لحياة أبرهة. فهؤلاء قوم يلعبون على مستوى عال. لا تفوّت الفرصة وقد وقعت بين يديك. وافعل ما بوسعك لأن تصبح منهم. ولا تنس عندها هذا المسكين الذي ساعدك».

ولجلب الحظ أعطاه ثلاث ذهبيات وإحدى وأربعين أقجة بالتمام طالبًا منه أن يصرفها على نفسه ويستمتع بها في ذلك اليوم، ونبّهه على أن يكون أمام القراءت خانة المجاورة للضربخانة قبل منتصف الليل.

عند وصول الزورق إلى قاراكوي قاطعًا الخليج قفز بنيامين إلى المرسى ونظر خلفه فرأى زولفيار ورجاله على زورق يبعد عن الضفة بمئة باع. فدخل من بوابة قاراكوي فورًا منعطفًا ناحية مسجد العرب ليختفي عن أنظارهم قبل أن يصلوا لليابسة. ثمّ جلس ليستريح ويشرب القهوة في قراءت خانة بأحد الأزقة المعزولة وأخذ يفكر بما سيجري في تلك الليلة وهو يراقب ما حوله مستندًا بظهره على الجدار.

عند إنهائه لقهوته الرابعة سمع صوتًا مألوفًا. كان صوت عالمصاتي المكلّف بمراقبة أبيه إحسان أفندي الطويل وهو يصرخ موبّخًا ثلاثة عميان على إهمالهم وتضييعهم له قائلًا أنّهم «إذا لم يجدوه بحلول المساء فسيطرح ثلاثتهم للفلقة».

راح عندها قلب بنيامين الذي أشاح بوجهه حتى لا يتعرّفوا عليه يخفق من الفرحة. فهذا يعني أنّ أباه الآن يتجول وحده في مكان ما في غلاطة يعلم الله وحده به، وأنّ هذه هي الفرصة السانحة التي كان ينتظرها ليقترب منه فيها.

راح يفتش عنه في كلّ أنحاء غلاطة، مع حرصه على ألّا يراه زولفيار ورجاله. لكنّ الشمس بدأت تغرق في الأفق وهو لم يعثر عليه بعد. فقرّر عندها أن يبحث عنه في مقبرة قاسم باشا.

هناك رأى في الظلام خيال رجل وحيد، وقد كان ذلك الرجل أبوه. كان متربعًا ينتظر بجانب قبر أفندي السبعة ميادين والاثنين والسبعين أتونًا.

اقترب منه بهدوء. وفي اللحظة التي كان سيضع فيها يده على كتفه نطق أبوه قائلا: «بنيامين! بُني!». فضُعق من تعرفه عليه وأخذ ينظر إلى عينيه المقلوعتين في رعب. ولمّا رأى أنفه المشروم وأذنيه المثقوبتين بعد قطعهما قال ودموعه تسيل:

«أبتاه! أنت لا تراني ولا تسمعني، ولكنّي ابنك بنيامين فعلًا».

فرفع المسكين رأسه وقال ممسكًا بيد ابنه:

«أنا أراك وأسمعك مع كوني أعمى وأصمّ يا بني. بل وفوق ذلك أفكر فيك وفي العالم الذي تعيش فيه».

فانفجر بنيامين بالبكاء ظانًّا أنّ أباه جنّ بسبب ما حصل له من أهوال كانت فوق طاقته. لكن أباه نهض من عند القبر وقال بصوت حزين وعميق:

«أنتم جميعكم والقسطنطينية والعالم الذي تعيشون فيه، وكلّ شيء باختصار، موجود في أفكاري أنا فقط. رندكار كان مخطئًا: فعبارة أفكر إذن أنا موجود خاطئة. والصواب هو أنّكم موجودون لأنّني أفكر بكم؛ أنتم والدنيا التي تعيشون فيها».

كان مستمرًا بالحديث بينما كان بنيامين يمشي معه نحو غلاطة ممسكًا بذراعه وهو يبكي:

«مع ذلك فإنّ الدنيا ما تزال جميلة ممتعة تستحق العيش. أنت يا بني مجرّد فكرة في عقلي. إنّك تلمسني الآن، ولكن لا يمكن لي أن ألمسك. فهل يمكن لمس الأفكار؟».

ما حدث بعد ذلك كان بمثابة كابوس لبنيامين الذي تحولت عيناه لكرتي دم من فرط البكاء. حلّ الظلام وطلع البدر من خلف التلال. كان أبوه ممسكًا بذراعه وكأنّه هو من يسوقه نحو غلاطة.

أخبره أثناء مشيهما في الأزقة الضيقة تحت ضوء البدر وكأنّه يقرأ أفكاره ألّا ينظر خلفه لأنّهما بأمان بما أنّه يدير دفّة الأحداث بعقله.

لم تكن دموع بنيامين قد توقفت بعد عند نزولهما إلى المرسى الذي كانت به أعداد كبيرة من البراميل والصناديق والرزم مكوّمة يمنة ويسرة في انتظار تحمليها إلى السفن. هناك توقف أبوه أمام برميل وضرب على غطاه وكأنّه بصير يرى كلّ شيء قائلًا:

«ها هو البرميل الذي أبحث عنه. حجمه يكفي لاستيعابي. هيا! أمسك العتلة وانزع الغطاء».

فصعق عندها بنيامين ولم يعرف ما يفعل. كان الظلام يخيّم على المكان الخالي من الناس، والذي لم تكن تُسمع فيه سوى أصوات غناء بحارة ثملين قادمة من قمرة قبطان إحدى السفن. فكرر أبوه عليه أمره:

«هيّا! لا تخف. ولا تنس أنّ كل شيء تراه لا يتعدى أن يكون فكرة من أفكاري. وأنّي أستطيع بعقلي أن أغير جميع الأحداث. أستطيع مثلًا أن أجعل هذه السفينة تختفي بمن فيها إن أردت. هيّا! افعل ما آمرك به. إنّي آمرك بصفتي أباك».

فنفذ بنيامين أمر أبيه مضطرًا وهو يبكي ويعترض. ودخل أبوه في البرميل الذي كان فارغًا رغم مظهره الثقيل ثمّ قال له:

«والآن أحكم إغلاق الغطاء وارحل عن هنا فورًا».

لم يرغب بترك أبيه على هذه الحال، لكنّ شيئًا داخله دفعه لتنفيذ أمر أبيه وإحكام إغلاق الغطاء، فأغلقه بعد أن ألقى على أبيه نظرة أخيرة ثمّ جثى يبكي على الأرض.

وبعد مرور وقت طويل رأى أنّ أباه لم يتحرك أو يحاول الخروج، فقرّر أن يرفع الغطاء بالعتلة ليخرجه مهما كان ثمن ذلك. لكنّه في اللحظة التي اتكأ فيها على الغطاء صرخ أحد البحارة من على ظهر سفينة: «لص! عليكم باللص!». فارتعب وهرب باكيًا تحت جنح الظلام.

لجأ إلى مكان منعزل وأنفاسه تكاد تتقطع، ثمّ حاول استجماع أفكاره. صحيح أنّه فقد أباه حاليًا، ولكن يمكنه أن يعود لتخليصه بعد أن يلتقي بأبرهة. كان التشوش في ذهنه يتفاقم رغم محاولاته اليائسة لأن يركّز. كما أنّ شجاعته كُسرت. فحال أبيه الذي فقد عقله كان يقطع قلبه. لذا قرّر أن يمرّ على حانة يستجمع فيها شجاعته قبل أن يذهب إلى أبرهة.

دخل إلى أكثر حانة تصدر منها أصوات الضحك. كان المتواجدون فيها يعبّون

من الشراب ويقدحون غليوناتهم ويسخرون من رجل سمين بين فينة وأخرى. وقد عادت فيها إليه حيويته بعد نصف قنينة من الخمر. حتى أنّه ابتسم وهو يرى الرجل التي تضجّ الحانة بالضحك عليه يهبّ غاضبًا ليفتح الباب وينظر إلى الخارج عند استفزازهم له وعبثهم به قائلين: «انظر! انظر! جاء العربي!».

وقد همس له رجل خبيث تدور عيناه في محجريها كعيون جراء النمس مغطيًا فمه بيده كأنّه يفشي بسرٍّ أنّ ذلك الرجل كان فتوّة يدعى گوللاطوبوق، وأنّه مجنون يعتقد أنّ فتوة اسمه إحسان العربي ما زال حيًا، وأنه يبحث عنه في كلّ مكان لينتقم منه. لكنّ بنيامين لم يفهم آخر ما قاله الرجل بسبب تأثير الخمر عليه.

وبعد أن دفع الحساب وخرج أعاد له النسيم البارد بعضًا من رشده. كان الوضع برمّته غامضًا له وغير واضح، لذا قرّر أن يفتح أطلس أبيه ويقرأ جملة عشوائية تحدّد له طريقه. ولما فتحه قرأ تحت ضوء فانوس الحانة عبارة «أصبح عليه أن يتصرّف كبطل حكيم». وقد كانت العملة المنحوسة تلك ما تزال وسطه.

في نحو منتصف الليل ناول الزورقيّ في قاراكوي أقجتين وعبر الخليج إلى بوابة الحطب(93). ومرّ في الظلام بتخته قلعة أوقجولار باشي حتى وصل أخيرا إلى الضربخانة. طرق أبو خنزير على باب قراءت خانة مغلقة كان ينتظره أمامها لمّا رأى قدومه. فظهر بعد قليل رجل له سحنة قاتل أدخلهما ثمّ رفع ستارة مثسخة تؤدي إلى الدهليز السري.

الأفندي الأكبر

يُروى أنّه في القسطنطينية، وقبل إبحار السفينة بالبرميل الذي يحمل إحسان أفندي الطويل من مرسى غلاطة باتجاه جبل طارق بمئة وخمسين عامًا، كان بعض الباشوات وموظفي القصر والوزراء يسلّمون أرواحهم بشكل غامض. وقد تعرف حكماء القصر اليهود على أعراض التسمّم مباشرة.

ونتيجة لذلك دبّ الذعر من الموت بهذه الطريقة المؤلمة من دون نزف قطرة دم واحدة في شجعان القصر. وانتشرت في المدينة بسبب ذلك عادة وضع الطعام في أوعية بأقفال محكمة ومن ثمّ إحضارها إلى السفرة. كان أحد مفتاحي أقفال القدور يكون عند كبير الطباخين والآخر عند صاحب البيت. يُحضَر القدر المقفل إلى السفرة ثم يدخل المفتاح في قفله ويدار مع البسملة. بعدها يُدعى لروح هارون الذي اخترع القفل لحماية ثروته قبل ثلاثة آلاف سنة.

لكنّ عدد الوفيات لم يتناقص بسبب مثقاب فيثاغورس الذي اختُرع بعد هارون بمئة وثلاثة وسبعين سنة، وبسبب المفتاح الهيكلي الذي اخترعه لصّ بغداد ميردسنك سهبرنبي بعد ألف ومئتين واثنين وستين سنة.

الغريب أنّ الموتى كانوا دائما أشخاصًا تتواجد في بيوتهم وثائق سريّة تخصّ الدولة العلية. وقد كان الرجال الذين يبعثهم الصدر الأعظم لتعزية أهل الموتى واسترجاع الوثائق يعودون دائما بأيدٍ خاوية قائلين أنّهم لم يعثروا في بيوتهم على أيّة أوراق أو وثائق.

في أحد الأيام قُبض أخيرًا على مرتكب هذه الجرائم. وقد كان جاسوسًا فرنسيًا يذهب إلى الدور الكبيرة والمنازل الساحلية متنكرًا في هيئة امرأة تنظّف

وتغسل الملابس. تحسّس سلطان تلك الفترة ما بين فخذيه وأدرك بأنّه رجل. فعصر له عضوه وهو يسأله مهددا:

«أيّها الملعون! لم لا تحارب بالسيف كالشجعان بدلًا من التنكّر بملابس النساء وتسميم الناس بجبن وغدر؟ هل تظنّ في فعلك رجولة؟»

فأجاب الجاسوس ووجهه يتغير من شكل إلى آخر من الألم:

«أي سلطاني العظيم، ما فعلته ليس من الرجولة بالتأكيد. ولكنّه من العلم والدراية».

«ملعون كافر! علم ودراية؟ وهل أنت عالم؟ أيّ علم هذا الذي تسعى خلفه؟»

«أجل، أنا أعرف الكثير. أعرف ما تحمله السفن التي تدخل موانئكم من أحمال وما عقدتموه من اتفاقات سريّة وميول الشعوب التي تحت حكمكم للثورات ومقدار البارود في مستودعاتكم وعدد مدافعكم، وكلّ شيء، أعرف كلّ شيء».

«أيّها الملعون، لقد قلت بأنّك عالم. وهل يكون الإنسان عالمًا بمعرفة الأشياء التي عددتها؟»

«وماذا يعرف علماؤكم؟»

«منجمونا يعرفون الأوقات المناسبة لإعلان الحرب، والموافقة للسنّة. وشيوخنا يعرفون الأسرار المتعلقة بعالم الغيب، وعالمو مدارسنا الدينية يعرفون المحرّمات والمباحات».

«أيّها السلطان المهاب! إذا كان العلماء الذين تقول عنهم لا يعرفون سوى ما

عددت لي، فهم إذن لا يعرفون شيئًا ذا قيمة».

«ولم ذلك؟»

«لأنّ العلم يقاس بالخطر».

«وماذا يعني هذا؟»

«على العالم حتى يكون علمه صحيحًا أن يخشى من أن يخطئ كخوفه من الموت. هل يخاف علماؤك من ارتكاب الخطأ؟»

«في الحقيقة أنا لست متأكّدًا من ذلك. لكن أخبرني أولًا بما تعنيه تمامًا».

«أعني التالي: في حالة أخطأ منجموكم أو علماؤكم، هل يعاقبون على ذلك؟ إذا كانوا يخشون العقاب فقد يخافون من أن يخطئوا».

«كلّا. إنّهم لا يعاقبون، لأنّنا نجلّهم من أجل علمهم».

«هذا يعني أن لا وجود لشرط كافٍ يجبرهم على التفكير بشكل صائب. فهم سيلقون الاحترام والإجلال سواء فكروا بشكل صائب أم لا، ولن يخشوا من أن يخطئوا لعدم وجود ما يهدّدهم. لكن هل التجار كذلك مثلًا؟ كلا، فهم يفلسون في اللحظة التي لا يفكرون فيها بشكل صائب. والجواسيس من أمثالي مثلًا يُقبض عليهم في اللحظة التي يخطئون فيها ويُشنقون. لذا لا تكمن الثقة بمن لا يخسر ثروته بل وحياته في اللحظة التي يخطئ فيها. هذا ما كنت أعنيه بأنّ العلم يقاس بالخطر. أمّا عن سبب كوني عالمًا: فأنا أُحقّر في بلدي لتقاضيّ مبلغًا كبيرًا مقابل عملي. وأُشنق فورًا إن كانت المعلومة التي قلتها لملكي خاطئة. لذا فإنّي كجاسوس أعدّ أكبر العلماء بما أنّي أعيش أكبر الأخطار. ويتحتّم على المعلومة

التي أسعى خلفها أن تكون أصح المعلومات، فعاجلًا أو آجلًا سيُعرف إن كانت صحيحة أم لا، وعندها سأصبح إمّا ثريًا أو ميتًا».

استغرق الخليفة الذي تأثّرَ أيّما تأثُّرٍ بكلام الجاسوس بالتفكير ساهرًا حتى الصباح. وفي النهاية قرّر أن يعفو عنه مقابل أن يتتلمذ على يديه عدّة طلاب من مدرسة أندرون(94) ليتعلموا أسرار المهنة.

وعندما استدعى المحبوس في صباح اليوم التالي ليخبره بقراره تلقّى منه جوابًا لم يتوقعه. كان الكافر الملعون يقول بأنّه سيقبل العرض ليبقى على قيد الحياة، ولكن لا يمكنه قبول أيّ طالب. فسأله عن المتطلبات التي يبحث عنها في الطلبة وانفرج فاهه مقدار شبر عند سماعه للجواب.

كان الجاسوس يريد طالبًا يستطيع حساب قيمة نسبة محيط الدائرة إلى قطرها 3.14 حتى الخانة الستمئة والستة والستين. وقد ورّط هذا الطلب طلاب مدرسة الأندرون وأرّقهم. فبسبب الفرمان السلطاني الذي كان يطلب حساب العدد المذكور في أسرع وقت، كان الأولاد الذين كانت قاماتهم أقصر من الشعرة يتلقون عشرة ضربات عصا في كلّ يوم لا يصلون فيه للعدد المطلوب. ولمّا انقطع أمله من الأندرون توجه للمدارس التقليدية. إلّا أنّ طائفة العلماء لم تكن قادرة على حساب هذا العدد أبدًا.

فكلّف في النهاية مناديًا ليهتف في شوارع القسطنطينية بأنّ من يحسب قيمة نسبة محيط الدائرة إلى قطرها حتى الخانة الستمئة والستة والستين سيكافأ بعشرة آلاف قطعة ذهبية.

بعد شهر جاء صبيّ رجل يتولى شؤون محاسبة المرابين إلى باب الهمايون

وفي رأسه رقم يتكون من ستمئة وستة وستين خانة. وقد كان مصرًا رغم كل الإلحاحات على إخبار الخليفة وحده بذلك العدد.

فأحضروا الجاسوس من سجن يديقوله(95) في نفس اليوم وجعلوه يقابله. وقد وجد الجاسوس أنّ العدد الذي وجده الشاب صحيحا فقبله كتلميذ عنده بعد أن حلّفه أيمانًا بألّا يخبر به أحدًا آخر.

علّم الجاسوس هذا الصبي الذي كان اسمه عفرائيم كلّ ما يعرفه. كالتنكر بتغيير الملابس وتقليد اللهجات والتنصت على الأبواب والتخابر مع زملاء مهنته وتسميم الرجال والعديد من الطرق والسبل الأخرى التي لا تخطر على بال.

بعد وفاة الجاسوس أسس عفرائيم جهاز الاستخبارات الهمايونية بإذن الخليفة على أساس من السرّية التامّة كما علمه معلمه. وكان لا يعرف مكان مقرها الواقع تحت الضربخانة سوى الخليفة وعفرائيم ورجاله.

كان رجال عفرائيم هم أنفسهم الصاغة والساعاتيين الذين يصنعون المحابر ذات النوابض والخواتم ذات السمّ وترياقه والأنابيب المخصصة للتنصّت على المحادثات السرّية التي تجري في الغرف والخطّاطين وغيرهم ممن يقلّدون كتابة الفرمانات والمضبطات والشهادات وشهادات حسن السلوك والمتقنين للخطوط القوطية والمائلة وخط الثلث والكوفي والأختام والإمضاءات.

في غرف الاستخبارات الواقعة أسفل الضربخانة كان يُعلّم المرشحون للمهنة اللغات الافرنجية والأعجمية والسويدية والنمساوية والدنماركية والعربية. كما كانت تُعرض لهم طرق استعمال الآلات الغريبة المخصصة لتغيير الهيئة والتنكر والتنصت على الأبواب والتخابر والاغتيال.

مع مرور الزمن توزع هذا الجيل في الأقاليم السبعة والاتجاهات الأربعة. ومع عودة كلّ منهم بمخططات القلاع وأعداد الجنود وخطط المعارك وأسماء من اشتروا ذممهم وخطوط سير السفن الحربية وصيغ سك العملات وغيرها من المعلومات السرية ظهرت قيمة تنظيم الاستخبارات وتضاعف عدد الدفاتر التي كان عفرائيم يسجل فيها المعلومات بشفرات سرّية.

كانت تلك الكتابات المشفرة تُقرأ بواسطة جهاز خاص صنعه صائغ. كان يشبه صندوقًا عليه غطاء من الورق الشفاف. وكان في داخله 666 مرآة وأزار معدنية بنفس العدد، تدوّر حول محور كلّ مرآة. كانت المؤشرات فوق كل زرّ تُضبط على رقم بين الصفر والتسعة لتدور المرآة المرتبطة بالزر حول المحور حسب الرقم المختار ثمّ تضيء الورقة الشفافة على الغطاء. وعندما يوضع الدفتر الذي يحوي 666 حرفا في كلّ صفحة منه أسفل الصندوق تظهر نفس الأحرف فوق الورقة ولكن بترتيب مختلف. ولوجود مرآة واحدة لكلّ حرف في النص المشفّر بالأحرف الافرنجية فإنّ المرآة تعكس الحرف في المكان الصحيح على الورقة. وذلك يعني ضرورة حفظ ال 666 رقمًا غيبًا. صحيح أنّ الكثيرين يعرفون أول ثلاث خانات من هذه الأرقام، 3 و1 و 4، لكنّ قراءة النصوص المشفرة من دون معرفة ال 666 خانة كاملة مستحيلة.

بعد وفاة السلطان لم يبق من يعرف بوجود الاستخبارات سوى عفرائيم ورجاله. لذا رأى عفرائيم أنّ عليه أن يمثل أمام حضرة السلطان الجديد ويخبره عن جهاز الاستخبارات، رغم أنّه لم تكن هناك ضرورة لذلك.

وهناك لم يطلب منه مالًا للمصاريف، لأنّه كان حائزًا على أكبر رأس مال؛

المعرفة. حقًا لم يكن يعاني من مشاكل مالية. فقد كان يعرف مواعيد تحميل وتنزيل الأحمال القادمة والمغادرة من الميناء بواسطة جواسيسه. لكن كان هناك شيء يثير همّه: فقد كانت إحدى قدميه في القبر.

كانت الدفاتر الملأى بالمعلومات المهمة التي يأتي بها الجواسيس من كلّ أنحاء العالم تملأ الأرفف. لكن لعدم معرفة أحد غيره بالـ 666 رقما في جهاز القراءة فإنّها ستستحيل هباءً بعد وفاته. لذا قرّر أن يطبّق الاختبار الذي طبّقه معلمه عليه في ما مضى على تلاميذه ومساعديه ليختار من يخلفه.

كان على أعضاء الاستخبارات أن يحسبوا نسبة محيط الدائرة إلى قطرها حتى الخانة 666. ولا بدّ أن يظهر جاسوس يجتاز هذا الاختبار الذي سيتحول إلى تقليد مع الزمن ومن ثمّ يصبح هو «الأفندي الأكبر».

لكن الاستخبارات التي كانت تعمل بدقّة كالساعة وقعت بشكل محتوم لاحقًا في موقف غير متوقّع بسبب أساس السرّية التي تعتمد عليه.

عمل الأفندي الأكبر الذي خلف عفرائيم على رأس الاستخبارات بتفان وإخلاص كما فعل معلمه. ولكن حدثت المشكلة عندما عُزل السلطان عن عرشه.

فقد أوقفه الحرس لما ذهب إلى باب الهمايون من أجل أن يُعلم السلطان الجديد بوجود الاستخبارات ويقدم أيمان الولاء. ولما أخبرهم بأنّ لديه شيئًا في غاية الأهمية عليه أن يطلع عليه السلطان استدعوا له السيّاف. كان السيّاف يخبره بأنه سيدبّر أمر لقائه بالسلطان، ولكنّه وبكلّ جرأة يطلب مبلغًا كبيرًا مقابل ذلك. وبعد استلامه للرشوة لم يوف بوعده وأمر الأفندي الأكبر الواقف منتظرًا عند الباب أن يغرب عن وجهه ويرحل واضعًا يده على خنجره لتهديده.

لكن لم تكن الاستخبارات لتيأس بهذه السهولة. كُتبت المعلومات المراد إيصالها رغم خطورتها الكبيرة على ورقة، ثمّ وبواسطة جواسيس محترفين تُركت في غرفة نوم السلطان. لكنّ النتيجة كانت صفرًا كبيرًا. فلم يكن السلطان يصدّق بوجود جهاز استخبارات كهذا. وبذلك وقعت الاستخبارات الهمايونية ضحيّة السريّة التي سعت للحفاظ عليها.

كان للأفندي الأكبر الذي عقب عفرائيم طبعًا مخلصًا لأقصى درجة. لذلك أنِف من أن يستخدم الاستخبارات لمصالحه الخاصة. استمر جواسيسه بجلب المعلومات بالغة الأهمية من شتّى الأصقاع، واستمر هو بنقلها إلى الدفاتر بشفرة معلمه. وقد حاول مجدّدًا إبلاغ السلطان عن طريق إيصال معلومات تحمل أهمية استراتيجية كبيرة بواسطة الجواسيس إلى غرفته بالقصر، ولكنّه لم يحصل على أيّ نتيجة.

أخذ الجيش الهمايوني يتعرض للهزائم بسبب نقص المعلومات الاستخباراتية. وغرق القصر في اللهو واللذات. ففكر الأفندي الأكبر وقدّر وقرّر في النهاية أن يقود ويوجه الجيش والإمبراطورية بواسطة الفرمانات المزورة والأوامر التي يكتبها الخطّاطون.

وقد جُنيت ثمار ذلك على الفور. فبمجرد إيصال الجواسيس المتنكرين للفرمانات المزورة التي تحمل ختم السلطان الذي أتقن تقليده الخطاطون إلى قادة جيوش الغزو من الباشوات بدأت الغنائم تتوالى على القسطنطينية.

كانت فرق الإنكشارية وطوابير المدفعية، وأحيانا فيالق كبيرة، أو الجيش بأكمله حتّى، تقفز من نصر إلى نصر بفضل الفرمانات المزيّفة والمعلومات

الصحيحة. لكن ذلك الوضع لم يكن ليدوم طويلًا. فالأفندي الأكبر الذي هرم قرّر أن يختار من يخلفه بواسطة ذلك الامتحان.

أصبح رئيس جهاز الاستخبارات في هذه المرة جاسوس اسمه أبرهة يشبه وجهه وجه امرأة. كانت في ذقنه بدلًا من اللحية عدة شعرات فقط، وكانت تظهر تحت جلد صدغيه ويديه عروق زرقاء.

أبرهة هذا لم ير ضرورة بعد وفاة الأفندي الأكبر للذهاب إلى حضرة السلطان وتقديم البيعة والولاء. ولا يمكن القول بأنّه كان متحمّسًا لفعل ذلك حتى لو كان ممكنًا. فقد كان شديد الاختلاف عمّن سبقوه. وكان جهاز الاستخبارات في طريقه للتحول إلى طاولة لتجاربه.

ضبط جهاز القراءة على الـ 666 رقمًا وقرأ جميع الدفاتر التي كتبها سلفه وكأنّه يلتهمها التهامًا، ثمّ راح يستخدم الجواسيس من أجل فضوله الشخصي. كان مثلًا يجرب استخدام فرمانات مزوّرة لاختبار النتائج فقط. وقد كانت تلك الحيل والألاعيب التي يدبرها بمعونة وثائق الخطّاطين والجواسيس المتنكرين، وبغض النظر عن كلفتها في الأرواح، هي القوّة التي تجعل صيته يذيع بين الناس.

أضحى بعدها ينظر إلى الناس كما لو كانوا مجرّد أحجار شطرنج. وبعد أن أسكره هوسه بالمعرفة أصبح يلقي بالأبرياء إلى الحبس بمكائد شتّى ثمّ يرسل برجاله ليشاهدوا ردود أفعالهم ثمّ يخبروه بها. كانت الحياة بالنسبة له لعبة يتعلّم فيها الإنسان الكثير وهو يلهو ويلعب. وقد كانت هذه الدنيا التي يخشى الجميع من أن يعيشوها أكثر الألعاب إمتاعًا حقًّا.

كان في ذلك الزمن يحبّ الضحك كثيرًا، لدرجة أنّه في إحدى المرات جعل بوثيقة مزوّرة من أحد المجانين باشا وعينه على قلعة ذات أهمية استراتيجية حرجة على الحدود. وبينما كان رجاله يخبرونه بطريقة سقوط القلعة كان يضحك بأعلى صوته المبحوح.

استمرّ على حاله هذا حتى قبل سبع سنوات، حيث أبدى حينها فجأة اهتمامًا استثنائيًا بمرآة غريبة كان قد اشتراها من مزاد الجلادين(96). ومن يومها ذبلت بهجته وأصبح وجهه عابسًا على الدوام.

كانت تلك المرآة وحسب ما يقال تشبه قِدرًا كبيرًا غطاؤه عبارة عن مرآة، وتقف على أربعة أقدام على الأرض أو على طاولة بدلًا من أن تُعلّق على الجدار. كان طول أقدامها شبرًا. أمّا عرضها فيقارب الأربعة، وطولها الثلاثة أشبار. ولم يكن أحد يعرف ما تحويه هذه المرآة بالغة الثقل في داخلها.

كان يقال أنّها بطريقة ما تتنبأ بالمستقبل. صحيح أنّ أبرهة كان قد اشتراها قبل سنوات، لكن اهتمامه بها لم يبدأ إلّا عندما رأى فيها مرّة شيئًا جعله لا يفارقها من بعده. وقد بدأ اهتمامه المفاجئ بكتب الشريعة في تلك الفترة أيضًا. والتي أصبح خلالها بفضل رجاله يمتلك مكتبة شاملة فيها. لكنّ وجهه بقي عابسًا لا يضحك. كما كانت تبدو عليه أمارات القلق المستمر والشعور بالخطر رغم كلّ الاحتياطات الأمنية المتّخذة.

بعد ذلك بدأ شغفه بالكيمياء وعلوم الطبيعة الأخرى. كان كتاب الطبيعة لأرسطو طالس الذي قرأ فيه الفصل الذي يتحدث عن «الزمان» تحديدًا وختمه لمرات عديدة في يده على الدوام.

حدثه رجاله في أحد الأيام عن طائفة دينية غريبة في الشمال، فأمرهم أن يجمعوا له المزيد من المعلومات عنها فورًا. وفي غضون فترة وجيزة كان الكتاب المقدّس للطائفة بين يديه.

وقد أصبح اليوم الذي وصل فيه الكتاب إليه نقطة تحوّل لجهاز الاستخبارات. فقد عزف بعده عن اهتمامه القديم باللهو والتسلية، ولم يعد يقبل إلّا بمعلومات تتعلق بالتجارة والأموال.

من يومها بدأت شوالات النقود تأتي تباعًا إلى المركز. والتي كان يفتحها ثمّ يفحص ما تحويه من عملات محمّلة بالخطايا واحدة تلو الأخرى. ولمّا وصله خبر صدور الحكم بإعدام كتخدا المتسولين أنقذه بفرمان مزوّر ثمّ ألحقه بالاستخبارات. وبذلك أصبحت أموال المتسوّلين أيضًا تأتي إلى الاستخبارات.

استمر يفحص ويدقّق في العملات لليال طويلة مدّة خمس سنوات، ولم يكن يهمل حتى أصغر القروش منها. لكنّه لم يعثر على ما كان يبحث عنه. بيد أنّ الأمل بدأ يشعّ في عينيه لمّا أدلى له أحد جواسيسه بمعلومة جعلته يبدأ بالتخطيط والتجهيز لأمر خطير واصل من أجل تنفيذه أيامه بلياليه.

كانت الخطة هي إدخال زولفيار، أكثر رجاله إخلاصًا له، إلى قلعة في الشمال حتى يعثر له على ما يبحث عنه. وقد نجح في تحقيقها. لكن إخراجه منها كان بذاته مسألة متعسّرة. لذلك قام بواسطة فرمان مزوّر جهزه الخطّاطون بإرسال أربعة كتائب إنكشارية من معسكر أدرنة لحصارها.

في النهاية خُلّص زولفيار عن طريق نفق حُفر تحت القلعة. لكنّه اضطر لإصابته في قدمه أن يعطي الشيء الذي سرقه منها لصبيّ اللغمجي. وبعد اختفاء الصبي

في تلك الفوضى استنتج بأنّه هرب وطالب بتعجّل وحماقة كبيرتين بالقبض عليه وإحضاره إليه حيًا أو ميتًا. وبذلك جعل العصفور يفلت من قبضته.

كان أبرهة يأمل بالعثور على هذا الفتى المدعوّ بنيامين. إلّا أنّ الإنكشارية الذين أرسلهم لتفتيش بيته بفرمان مزوّر حطّموا البيت وقلعوا عيني أبيه إحسان أفندي الطويل وقطعوا أذنيه وأنفه في تصرّف أحمق صعّب المهمّة كثيرًا.

وكان أمله الثاني هو أن لا يعرف بنيامين أهمية وقيمة الشيء الذي بحيازته، حتى يكون احتمال تخلّصه منه كبيرًا. لذلك كثّف من عمليات البحث في القسطنطينية.

كان وجهه متجهّمًا أكثر من أيّ وقت مضى. لكن بعد أن أنقذه شاب متسوّل مشوّه الوجه من خطر الموت اختناقًا بلقمة علقت في حلقه في اليوم الذي ذهب فيه إلى نقابة المتسوّلين لحلّ مشكلة متعلقة بكتخداهم، عادت إليه حيويته وبهجته اللتان فقدهما قبل ستّ سنوات. وقد ذهل زولفيار لذلك. وازداد ذهوله لمّا أخبرهم أنّه لم تعد هناك حاجة لصدقات النقابة.

قد يُعزى جزء من هذا التبدّل في حاله إلى فكره الخاصّ، وجزء آخر إلى ذلك الشعور المَرَضي الذي أيقظته وقاحة الفتى الجريء في قلبه القذر. والذي كان شعورًا صعبًا على التعريف، شيئًا بين الحبّ والكراهية، وربّما خليط من الاثنين. بل قد يكون من الأصوب قول أنّه كان خليطًا من جميع المشاعر التي خبرها ابن آدم حتى ذلك اليوم، طينة ممزوجة منها. وقد أثبت له كلام زولفيار لاحقًا صحّة ما كان يشعر به تجاه الفتى أثناء تأمّله له. فقد أصبح الأمر في هذه المرة متعلقًا بالمشاعر لا بالعقل.

أحسّ أثناء تأمّله للفتى في منتصف الليل بغرفة الكيمياء أنّ بعض ما كان يعيشه من مشاعر يخصّ النساء. فقد كان يشعر بكراهية تجاهه لإنقاذه لحياته رغم أنّه من المفترض له أن يشعر بالامتنان لذلك. وفي نفس الوقت كان يحبّه لجرأته وتواقحه عليه رغم أنّه من المفترض له أن يكرهه. كان زولفيار يريد أن «ينهي الأمر» بأسرع وقت، لذلك لم يكن يفهم ما كان يفعله سيده.

ربّما كان أبرهة يسعى للقضاء على أسباب تلك المشاعر المزعجة أولًا لأنّه معتاد على الإحساس بأنّه قوي لدرجة التلاعب بالعالم. كما أنّه ما زال «أمامه وقت» رغم كلّ شيء.

كان يخطط للتلاعب بهذا الفتى الوقح كما كان يتلاعب بالدنيا تمامًا. وقد قرّر أن يريه قدر قوّته مع بعض الحجب والتورية لتبدو له أكبر بكثير ممّا هي عليه في الحقيقة. فربّما تنتهي وقاحته التي هي سبب حبّ أبرهة له عندما ينبهر بقوته ونفوذه الهائلين. ويتلاشى معها ذلك الشعور الذي كان قد بدأ يتبرعم في قلبه.

***

دخل بنيامين إلى غرفة كيمياء أبرهة في منتصف الليل، أي الوقت الذي حُمّل فيه برميل أبيه من مرسى غلاطة إلى إحدى السفن التي ستبحر في الصباح نحو جبل طارق. وقد كانت أبخرة الزئبق والكبريت فيها تخنقه وتثير ضيقه. عندها قبّل أبو خنزير يد سيده وانصرف.

كان يعمل في تلك الغرفة ثلاثة أشخاص. أحدهم كان يملأ إنبيقًا فوق أحد مواقد زوسيموس الموجودة في الغرفة بزيت الزاج. أمّا الآخر فقد كان يتأكّد من

اختمار الزنجفر الذي كان يرقّده في حوض الروث على الأرض بما يكفي. بينما كان الثالث الذي يبدو من أسلوبه الآمر الناهي أنّه أعلاهم مرتبة، يتابعهما ليتحقّق من تنفيذهما لعملهما كما يجب، ويلقي بالأوامر لتوجيههما بين حين وآخر.

كانت على أرفف الحائط حاويات مصفوفة ملأى بالإسرنج وحجر الشبّ والمرداسَنج والكحلاء والحجر الأزرق والطباشير والزنجفر والعديد من المواد الأخرى. أمّا مواد زيت الزاج وماء النار والتيزاب وروح الملح فقد كانت محفوظة في قوارير زجاجية. وكانت على المواقد أنابيق مصنوعة على شكل رَحِم لتسهيل تجمّع وتكثف المادة التي يُنوى الحصول عليها.

قال أبرهة مخاطبا بنيامين الذي بدا مندهشًا مما رآه:

«لا بدّ أنّك تفكر في ماهيّة هذا المكان الغريب منذ دخلت إليه. وربّما تظنّ أنّنا نسعى هنا لإنتاج الذهب. أليس كذلك؟»

«لا أعتقد بأنّكم ستسعون لإنتاج الذهب بينما يمكنكم غصبه أو كسبه بسهولة».

«تتحدّث بثقة وجرأة وكأنّك تعرف الكثير مع أنّك شخص هزيل واهن. تفاجئني الكلمات الخارجة من فمك، وكأنّ أحدهم يهمس بها في أذنك. من يدري، ربما تتلقى إلهامًا من أحدهم حقا».

لسبب ما تذكر بنيامين أباه إحسان أفندي الطويل. كان يريد أن يخرج من جهنم الكيمياء هذه ليذهب لتخليصه بأسرع وقت. لكنّ شيئًا بداخله كان يدفعه لتعلّم دوافع أبرهة.

«إذن ما الذي تنوي الحصول عليه هنا؟»

عاد الرضى إلى أبرهة ولمعت عيناه فقال له:

«لا بد أنّك تعرف بوجود سبعة أنواع من العناصر في الطبيعة. لكن قليلون جدًا من يعرفون بوجود عنصر ثامن إلى جانب الذهب والفضة والكبريت والقصدير والنحاس والرصاص والخارصين. وهو ما نسعى للحصول عليه».

«أليس هو نفسه حجر الفلاسفة الذي يبحث عنه الخيميائيون؟»

نعم ولا. لكن ربّما كان بعض العلماء والفلاسفة يقصدون الشيء الذي نبحث عنه».

«ما هو العنصر الثامن الذي تبحثون عنه إذن؟»

صمت أبرهة لبرهة وكأنّه متردّد من البوح بالسرّ. ثمّ ابتسم لسبب ما وقال هامسًا:

«العنصر الذي لم يُخلق بعد. إنّنا نسعى وراء ما لم يخلق بعد».

دُهش بنيامين من الإجابة فتهلل وجه أبرهة وبدا عليه السرور. فقد كان مصممًا على تشويش ذهنه وإقحام ظلّه المظلم في عقله. فأكمل قائلًا:

«لا يخيفنّك ما قلته. فأنا أتحدث عن شيء في غاية البساطة. لكن عليك حتى تفهم «ما خُلق» أن تفهم ما أقصده بـ «ما لم يخلق» أولًا. الحائك مثلًا يعتبر القماش «ما خُلق»، بينما يعتبر الخيط «ما لم يُخلق»؛ لأنّ ما يخلقه هو القماش وليس الخيط. لكنّ الأمر مختلف بالنسبة للغزّال. لأنّه بجذله وفتله للخيوط من الصوف المغزول يَعتبر الصوف «ما لم يخلق»، والخيط «ما خُلق». رغم أنّ الحائك يعتبر نفس الخيط «ما لم يُخلق». وبنفس المنطق فإنّ قماش الثوب

الذي عليك بالنسبة للخياط الذي خاطه «ما لم يُخلق». والحال مشابهة بالنسبة للخيميائي أيضًا؛ فكما أنّ الخيط سبب ظهور القماش للوجود، فإنّ فالكبريت سبب ظهور زيت الزاج إليه كذلك، وكما أنّ الصوف أساس الخيط، فإنّ حجر النار أساس الكبريت. نعرف أنّ الحائك يخلق القماش من الخيوط. ولكن ممّ خلق الله العالم برأيك؟»

«خلقه ممّا هو غير موجود طبعًا».

«إذن فكما أنّ الثياب التي عليك تكوّنت من الصوف، فإنّ العالم الذي نعيش فيه يتكون من «ما هو غير موجود». وهو ما ندعوه بـ «ما لم يُخلق».

«وأنتم تسعون إلى إظهاره للوجود؟»

«كلا. لا يمكن قول ذلك. فتحويل ثيابك إلى خيوط، والخيوط إلى صوف، شيء ممكن وإن كان شاقًّا. ويطلق على هذه العملية اسم «إفناء». لكن ما نفعله هو عكس عملية خلق الله للكون ساعين للوصول إلى ما لم يُخلق، أي إلى الفراغ».

«وذلك حتى تعيدون خلقه على الشكل الذي تريدونه؟»

«كلا. نحن في حاجة إليه هو ذاته. ألم تسمع بـ «عبّاد الفراغ» ؟»

«عبّاد الفراغ؟»

«إنّها طائفة إفرنجية. أناس يدركون قوة ما لم يخلق، أي قوة الفراغ. وهم حانقون على شخص ليس له علاقة بالطائفة اسمه فون غاريكه لإفشائه بأسرارها. قام هذا العالِم بتجربة في مدينة ماغديبورغ ألصق فيها نصفي كرة

ببعضهما ثمّ أفرغ الكرة من الهواء بواسطة المضخات، فتحصّل بذلك على الفراغ. بعدها ربط ستة خيول بكلّ حلقة ملتصقة بنصفي الكرة ثمّ ضربها بالسياط. لكن لم يتمكن الاثنا عشر حصانًا من فصل نصفي الكرة. وهذا يثبت قوة الفراغ الهائلة».

«يصعب تصديق ذلك حقًا».

«لكنّه صحيح. مع ذلك فإنّ الفراغ الذي يُحصَل عليه بهذه الطريقة لا يفيدنا. فنحن، أو أنا بمعنى أصحّ، أسعى للوصول إلى الفراغ الأصلي الذي خلق منه العالم».

«لنفترض أنّك وصلت إليه. ماذا ستفعل به حينها؟»

«ننتقل إلى موضوع مختلف تمامًا الآن. إذا تناولت حجرًا وألقيت به فكم تتوقع لسرعته أن تكون؟»

«يمكنني القول بأنّه سينطلق بسرعة طائر السنونو إذا توجّب التشبيه».

«ولماذا لا ينطلق بأسرع من ذلك، بسرعة لانهائية مثلًا؟»

«لأنّه ينطلق في الهواء، والهواء يقاومه. ولولا هذه المقاومة لربّما انطلق بسرعة لانهائية».

«لنفرض عدم وجود هواء، وأنّ الحجر ألقي به في الفراغ. ماذا تقول في هذه الحالة؟»

«أتريد الوصول للسرعة اللانهائية؟»

«ما زال الوقت مبكرًا للإجابة على هذا السؤال. يدّعي أرسطو طالس في كتابه المعنون بـ «الطبيعة» أنّ الفراغ غير موجود، وأنّ وجوده مستحيل لأنّه لو كان موجودًا فإنّ ذلك يعني أنّ الجسم المنطلق فيه يصل لسرعة لانهائية. ولكنّه بالنسبة لي موجود. أعرف ذلك كما أعرف اسمي. وهذا يعني أنّ السرعة اللانهائية كذلك ممكنة. أرأيت الآن قوة ما لم يخلق؟ إنّ مقارنة قوة الفراغ بقوة اثني عشر حصانا تعدّ استخفافًا به. فهو أقوى بكثير ممّا نتخيله. لذلك فإنّ عدد عُبّاده في تزايد سريع. وربّما سيدرك جميع الناس قريبًا أنّ الفراغ هو أصل العالم ومادته التي تكوّن منها».

«إنّك تتحدث عن العدم وكأنّه مادة يمكنك تقطيرها بذلك الإنبيق أو إجراء التجارب عليها».

«هذا صحيح، أنا موقن من ذلك».

كان يبتسم في كبرياء وهو مسرور من تأثير كلامه الذي لا يستوعبه عقل على الفتى الذي كان ينظر إليه بذهن مشوش دوّخته أبخرة الزئبق التي تخنق الغرفة. لكنّ قلقًا غامضًا كان ما زال يساوره رغم مواراته وإخفائه لدرجة إيقاعه به في شباكه. كان يشعر بأنّه يوليه اهتمامًا أكثر من اللازم ويعجز على تفسير سبب ذلك لنفسه بشكل كافٍ.

ومع أنّ صوتًا داخله كان يخبره بأنّ الفتى الذي ظنّ أنّه قد حبسه في قبضة كفّه يحميه شيء مجهول، كانت قوته تمنعه من أن ينصت له. بينما لو أنّه نبش قليلا في الضيق الذي كان يشعر به لأدرك أنّ القدرة مثقلة بتداعيات العجز، وأنّ الضعف مثقل بتداعيات القوة، وسيلاحظ ولو قليلًا أنّ بنيامين كان متفوقًا عليه.

قبل شروق الشمس بأربع ساعات قام أبرهة بفعل بشيء يصعب تفسيره، وكأنّه ينفّذ مسرحية خطّط لها سلفا. فقد نظر إلى ساعة الحائط وقال:

«لقد حان وقت الصلاة. عن إذنك، سأصلي».

في الوقت الذي مدّ الأفندي الأكبر فيه سجادته وراح يتجهز لأداء لصلاة لم يكن بنيامين قد استوعب ما يجري بعد. فهواء الغرفة الملوث كان قد دوّخ رأسه. كما أن أجيج النار المستعرة في المواقد وبقبقة الأنابيق وهسيس أبرهة بالأدعية والأذكار كانت تزيد من تشوش ذهنه وتجعله يخلط بين الحقيقة والخيال.

أخذ يتجول في الغرفة حتى يصحصح قليلًا، لكن عينه وقعت على شيء أثار اهتمامه. كان شيئا يشبه المجمر من ناحية الشكل، له أربعة أقدام ومغطى بقماش شامي مطرّز. لكن من المستبعد أن يكون مجرّد مجمر. فالقماش الذي يغطيه يساوي خمسين فيلورينة على أقلّ تقدير. كما كان على يمينه ذلك الجهاز الغريب الذي يستعمل في قراءة النصوص المشفّرة، وعلى يساره بوصلة بحّارة.

نظر إلى البوصلة ثمّ إلى أبرهة الذي كان يصلي فاختلطت عليه الأمور أكثر. ولمّا نظر إلى ساعة الحائط ارتبك والتبست الأفكار في عقله تمامًا. وحتى أنهى أبرهة صلاته لم يصل إلى لنتيجة من تفكيره. قال له عندها:

«لقد أدّيت صلاتك في وقت خاطئ ونحو اتجاه خاطئ. هذا في حال لم تكن الساعة والبوصلة معطوبتين. لأنّك صليت نحو الشمال تمامًا بدلًا من اتجاه القبلة».

لم يفاجأ أبرهة من السؤال، وكأنّه كان يتوقعه. مع ذلك قال بدلًا من أن يقدم

توضيحًا له:

«ليس هذا وقت الخوض في ذلك. أتفهّم فضولك حيال كلّ ما تراه. إلّا أنّ عليك حتى تحصل على الإجابات أن تثبت كونك مستحقًا لها أولًا. بداخلي صوت يطلب منّي أن أمتحنك. قد يهمس لك نفس ذلك الصوت بإجابات أسئلتك. وقد تكون لك القدرة الكافية لأن تتوصّل لجميع الإجابات بنفسك من دون حاجة إليه. هل أنت قويّ حقًا؟ أعتقد أنّ كلينا يريد معرفة الجواب. يمكننا قياس قوّتك إن أردت. أترى ذلك الصولجان على مائدة الشغل؟ حتى الصنديد شديد البأس لا يمكن له أن يحركه من مكانه. أتريد أن تجرب؟»

تقدّما نحو مائدة الشغل التي صنعت من أخشاب صلدة وقوية، والتي يستنتج من آثار الضربات والحروق عليها أنّها استُخدمت في أعمال عنيفة وثقيلة لسنين طويلة. كان عليها صولجان غريب يبدو أنّه عبارة عن عجلة حديدية تدور بسلاسة على بمحور بطول الذراع وسمك إصبعين ويحميها إطار معدنيّ. كما كان يحيط بها طوق يلفّه حبل متين. وكان يبدو أنّه يزن أكثر من عشرين أوقة.

قال أبرهة بصوته المبحوح:

«هيا! جرّب رفعه».

حاول بنيامين تنفيذ ما طلب منه مع أنّه كان يبدو مستحيلًا. لكنّ محاولاته باءت بالفشل. عندها استدعى أبرهة مساعديه الثلاثة الذين حملوا الصولجان بشقّ الأنفس وحشروه من محوره في الكلّابين المتجاورين كما أمرهم. بعد ذلك تعلّقوا بسلسلة متدلية من السقف وسحبوها إلى الأسفل بصعوبة بالغة. كانت السلسلة تمرّ من بَكرَتين معلقتين في السقف ومربوطة بجسم ثقيل من الرصاص

لا يقلّ وزنه عن مئة وخمسين أوقة.

بعد رفعهم للثقل ربط أبرهة طرف الحبل الملفوف بطوق الصولجان بإحدى حلقات السلسلة. وبمجرد إفلاتهم لها سقط الثقل وراحت العجلة المثبتة بالمحور المحشور في الكلابات تدور بسرعة كبيرة كسرعة الخذروف. عندها أمسك أبرهة بمحور العجلة وأرخى من قبضة الكلابات ثمّ راح يرفع الأداة الغريبة بهدوء بينما تدور عجلتها بسرعة. لكن ذلك لم يثر دهشة بنيامين. فقال له:

« ليس بأداءٍ سيّئ لإبهار أحدهم. هذه أداة تعمل بقانون الخذروف. فقوة الطرد المركزي تخفف من ثقل العجلة(97). وحينها يصبح بإمكان حتى طفل أن يرفعها».

لمع في عين أبرهة بريق شيطاني للحظة عند سماعه لهذه الكلمات الجريئة. إلّا أنّ بوادر الغيظ هذه سرعان ما تبدّدت. فعاد للابتسام بعد أن ناول رجاله الصولجان.

«تراودني فكرة ملّحة بأنّ أحدًا لا أعرفه أرسلك إليّ لغاية مجهولة. كأنّ كلّ ما تفعله وتقوله يُملى عليك من قِبله. كلامك الجريء لا يتوافق مع شخصيتك الواهنة الضعيفة. فأنت وقح ومتواضع في نفس الوقت. ضعيف ولكن لك تفوّق لم أتبيّن كنهه بعد».

سأله بنيامين:

«ولمَ ترغب بأن تكون قويًا لهذا الحدّ؟»

«من أجل البقاء، كما يفعل الجميع».

«ما تفعله أنت أشبه بالتحنيط. فالقوّة لا تحمي سوى الموتى».

«أنا متأكد من أنّ هذه الكلمات ليست لك!».

«ربما كان كلّ ما عندي ليس لي، بما فيه قدراتي العقلية. أما أنت فتريد أن تستحوذ على قوى الطبيعة».

«أجل، أنت محق. فالدنيا امتداد لي أنا. أنت لا يمكنك سوى التحكم ببدنك. أمّا أنا فيمكنني التحكم بمَلِكِ بلاد بعيدة كما أتحكم بيدي تمامًا. لي أن أخدعك إن شئتُ وأن أتلاعب بك، ولكن يروق لي رؤية كونك حرًّا. لو كنت تمتثل لكلّ ما أقوله كما يفعل زولفيار لما استمتعت لهذه الدرجة. معك حقّ. فأنا فعلًا أريد أن أتملّك جميع قوى الطبيعة. وقد توفقت في ذلك إلى درجة معينة، ولكنّ ذلك لم يكن سهلًا أبدًا. برأيك ما هي أكبر القوى الطبيعية تأثيرًا؟»

«لست متأكدًا. لكنّك غالبًا ستقول أنّه العقل».

«هذه ليست كلماتك. لكن لا يهم. جوابٌ صحيح. أجل، إنّه العقل. فكما تتغذّى النار على الحطب، يتغذّى العقل على المعرفة. وأنا أملك من المعرفة فوق ما يمكنك تخيّله. حتى بما يخصّك أنت».

كان يبتسم بخبث كشيطان. ويستحيل ألّا يكون قد لاحظ ارتباك بنيامين المفاجئ الذي أخافته كلماته الأخيرة.

عندما دخل الرجال إلى المكانّ ظنّ بنيامين أنهم سيربطونه ويفتشونه للعثور على العملة المنحوسة. إلّا أن أبرهة أمر رجاله بإحضار الدفتر رقم واحد وعشرين إليه. ولما جاؤوا به فتحه على صفحة عشوائية. كانت على الصفحة اليسرى

صورة رجل بملابس إفرنجية. أمّا اليمنى فقد كانت مسطورة بكتابات غير مفهومة. قال عندها الأفندي الأكبر:

«لديّ المئات من أمثال هذا الدفتر الذي يمكنك بالمعلومات الموجودة فيه أن تحكم الدنيا بما فيها. لنر عمّ يتحدث هذا. يبدو أنّها قائمة لرجال في إسبانيا. أوصافهم وأماكن إقامتهم وإنجازاتهم وإخفاقاتهم وسجلاتهم. لنقرأ المكتوب إن أردت».

وضع الدفتر تحت الصندوق المغطى بورقة شفافة ثمّ أدخل في ثقبه قبسًا من نار أشعله من شمعة فأضاءت الورقة فجأة. كانت الأحرف عليها ما تزال مبعثرة. طلب من بنيامين أن ينظر إلى الأحرف ثم راح يعبث بالـ 666 زرًا الموجودة على جوانب الصندوق واحدًا تلو الآخر. ومع دوران الأزرار كانت الأحرف الموجودة على الورقة تتحرك من مكانها بشكل سحريّ غامض.

«في كلّ ورقة للدفتر 666 حرفًا. تُحرك الأزرارُ المرايا الموجودة بنفس عددها جاعلة إيّاها تعكس الأحرف على مكانها الصحيح في الورقة. ولكن عليك لتتمكن من فعل ذلك أن تعرف الرقم الذي يُضبَط عليه كل زر من هذه الأزرار الـ 666. هذه الأرقام ليست سرّية، فكلّ من يثق بعقله يستطيع التوصل إليها إذا كان يقدر أن يحسب نسبة محيط الدائرة إلى قطرها حتى الخانة الـ 666. وإذا نجح في ذلك فإنّه يحوز كلّ هذه المعلومات ويصبح الأفندي الأكبر لهذا المكان. إلّا أنّ هذا صعب جدًا على البعض. زولفيار مثلًا ما زال يحاول حساب الرقم، ولكن أمامه طريق طويل. فهو لم يتوصل للخانات الست الأولى بعد».

وبعد أن ضبط جميع الأزرار على أرقام معينة ظهرت كتابات بالإفرنجية على

الورقة الشفافة. أخرج الدفتر من الصندوق وقلب الصفحة ثمّ أعاده ثانية. كان الدفتر يحوي أسماء جواسيس متواجدين في إسبانيا حقًّا، ومدوّنة فيه أماكنهم وسجلاتهم. قرأ أبرهة الدفتر كاملًا مضيفًا من عنده بعض التفاصيل. وبذلك أدرك الفتى الغاية من هذا المكان الغريب. كان الأفندي الأكبر يقول له:

«لا بدّ أنّك تفكر بالسبب الذي يجعلني أطلعك على كلّ هذه المعلومات السرّية. السبب الأول هو أنّك أنقذت حياتي. ولكن هناك سبب ثان أهمّ منه، إلّا أنّي لن أخبرك به. لا تظنّ أنّك ستخرج من هنا بسهولة بعد أن اطّلعت على كلّ هذا. أنت تعرف بأنّي لن أدعك تخرج من هنا على الفور. لكنّي متأكّد بأنّك لن تشعر بالملل في مركز الاستخبارات هذا على أية حال. فالعالم هذا أكبر من العالم الخارجي بكثير. بإمكانك الدخول والخروج إلى أيّ مكان تريد. وأعتقد أنّك تعرف ما لا يجب عليك لمسه. لا تنس أنّي أعرف كلّ شيء هنا. حتى عندما أدخل إلى غرفة فارغة وأقفل على نفسي تأكّد أنّ هناك عينين تراقبانك على الدوام. ربّما عليّ أن أعتذر لاستخدامي لهذه اللهجة، ولكنّها العادة للأسف. كان بودّي أن أتصرّف بلطف أكبر مع ضيفي، خاصّة إن كان قد أنقذ حياتي».

قالها ثمّ أعاد ضبط أزرار جهاز القراءة لوضعها الأول. فاختلطت الأحرف ببعضها من جديد ولم تعد قراءة النصوص ممكنة. ثمّ نفخ مطفئًا ضوء الجهاز وقال:

«والآن سأتركك وحدك. لعلّك ترغب بالتفكير فيما رأيته وتعلمته هنا. سيكون لديك متّسع من الوقت لفعل هذا، ثق بذلك».

بعدها انصرف وبقي بنيامين في غرفة الكيمياء وحده. كان عاجزًا عن إدراك

سبب وجوده في هذا المكان المشؤوم ومجيئه إليه، وكان يغمره إحساس بأنّ دافعًا مجهولًا يوجهه. في تلك اللحظة خُيل إليه أنّه أحد أولئك الإنكشاريين الذين يراهم في أحلامه بشكل متكرر. كان مثلهم يمشي وسط ضباب معتم وكأنّه في حلم، لكنّه كان حلمًا غير واضح.

كان يشعر بأنّه بطل، مع أنّه وكما قال أبرهة، واهن وضعيف أكثر من اللازم. وكأنّما كان أحدهم يهمس له بتلك الكلمات الجريئة. بدا كأنّه بدأ يتعرف على صوت ذلك الهمس. لقد كان يشبه صوت أبيه، وقد كان وكأنّ له نفوذ على كلّ شيء. فكّر لاإراديًا للحظة بأنّ أباه ومنذ البداية كان يؤدي مسرحية كبيرة يقلّد فيها جميع الأصوات كما يفعل الذين يتكلمون من بطونهم، بدءًا من خرير الماء والرعود وصرخات الألم وأنّات اللّذة وهتافات الباعة والحرفيين وانتهاءً بصيحات الحرب. ويغيّر من نبرات صوته كما يفعل الحكواتي متحدثًا بلسان الجميع.

ارتمى على أريكة لما أرهقته هذه الفكرة المَرَضية وراح يفكر في وضعه الحالي. كان يشعر بتعب غريب. كأنّه لا يتحكّم بجسده، وكأنّ شيئًا لا يستطيع مقاومته أمره بأن يتعب.

فجأة شعر بأنّه ليس وحيدًا في الغرفة، فنهض وراح يفتّشها لكنّه لم يجد أحدًا. تجمّعت الدموع في عينيه وراح يردد:

«أبي! أبتاه! أهذا أنت؟»

لم يجب على السؤال أحد. فأخذ يصرخ وهو يبكي شاهقًا:

«أنقذني من هذا المكان يا أبي! فأنا لست بطلًا ولا يمكنني أن أكون كذلك!»

واستمر يبكي بحرقة ثمّ انكبّ على الأريكة وذرف الدموع حتى انهار من التعب. ولمّا دهمه النعاس دعا الله ألّا يرى حلمًا في منامه. مع ذلك رأى أحلامًا تشبهه، واهنة وبلا ملامح.

***

في سالف الأزمان، وفي إحدى مناطق الأناضول الوسطى، في مفترق طرق تلتقي عنده جميع دروب القوافل، كانت هناك بلدة تدعى گيردباد. كان أصحاب الإبل المحمّلة بأنواع وأشكال البهارات القادمة من بلاد يأجوج ومأجوج وبالأقمشة الهندية والكمثرى السورية ومنسوجات الموصل النفيسة، يجفلون عند رؤيتهم لأضوائها من بعيد وكأنّهم رأوا قطّاع طرق. لكن الأمل كان يغمر قلوبهم في نفس الوقت. لأنّها كانت في عيون التجار -الذين خَبِروا جاذبية ربح الأموال ومخاطر الإفلاس- جذّابة لأقصى حدّ وخطرة لمدى لا يستوعبه عقل في نفس الآن.

كانت الجدالات التي تدور بين أفراد القافلة المضطرة للسفر ليلا بسبب أيام الكلب(98) بشأن الذهاب إليها من عدمه تنتهي دائما في صالح مقامري البلدة الواحد والخمسين. بعدها بوقت قصير يُسمع رنين أجراس الجمال وهي تدخلها. عندها تُخرج أحجار النرد الزئبقية(99) التي رُقّدَت في زيت الظربان من الليلة الماضية لزيادة الحظّ.

ثم تبدأ ألعاب الباربوت بعد أن يتوزع التجار الذين جمعوا بعد رحلة دامت لتسعة أشهر ثروة تكفي لإطعام أهل الأرض مدّة نصف يوم على بيوت المقامرين.

وعندما يبدأ الضيوف تدريجيًا بخسارة الأموال التي كسبوها من مساومات لا نهائية في بلاد فغفور والهند وديار وحوش البحر، يبدأون بإدراك فداحة فعلهم.

قرب الفجر يتذكّر التجار من جديد أنّ كمائن قطاع الطرق جميعها تهون ولا تشكّل سوى صفرٍ على الشمال بجانب گيردباد. ولكن حينها يكون قد فات الأوان.

في الوقت الذي تكون جميع الجمال المحمّلة بالبضائع والأملاك والزينة قد خُسرت تكون الشمس قد طلعت منذ وقت طويل. يخرج التجار الخاسرون حينها وهم ينتفون شعورهم، يضربون رؤوسهم بالصخرة والصخرة برؤوسهم ندمًا على حماقتهم.

كانت تلك الصخرة توجد في ميدان البلدة الوحيد. والتي لو رآها أحد العوام أثناء مروره بالبلدة لظنّ بأنّها مَعلَمٌ أو شاهد قبر أو مذبح. بينما كانت عبارة عن قطعة رخام يسميها من لم ينه حياته من التجار بـ «صخرة الندم». كانت عليها كتابات بالرومية يقال أنّها توضح أماكن كنوز مدفونة. وتقول الأسطورة أن من يضرب رأسه بها بما يكفي يعود له رجحان عقله ويتمكن من قراءة الكتابات فيهتدي إلى مكان الكنوز التي تشكل ثلاثين ضعف ما خسره من ثروة.

في أحد الأيام طاوع شيخ أبيض اللحية كان يمر بالبلدة الشيطان وأجاب دعوة المقامرين إلى لعبة الباربوت. ألقى بأحجار النرد فكانت سي دو(100)، وبذلك خسر عصاه وخصفه الحديديين. حزن بعدها أشد الحزن، لا لخسارته رأس ماله بل لمطاوعته الشيطان وسماحه للمقامرين بأن يخدعوه. فانزوى في كهف قريب من البلدة.

وقبل أن يهلك هناك من الجوع والعطش ألقى بلعنة عليها، وحصل بعدها ما

حصل. تغيّرت قوانين الطبيعة فجأة وأصبحت أحجار النرد دائمًا تكون سي دو بغض النظر عن المرات التي يلعق فيها المقامرون أكفهم قبل إلقائها. لم تعد الدوشيش والدورجهار القديمتين المُربحتين لأكوام الأموال تظهران. حتى الهب يك والدوبارة والشيش يك(101) التي كانت تُربح نصف الرهان اختفت. وكان النرد الوحيد الذي يظهر باستمرار هو السي دو الذي يكلّف اللاعب ضعف المبلغ الذي قامر به.

احتار المقامرون فيما عليهم فعله عندما لم تتغير النتيجة حتى مع نرد الزئبق وطرق الاحتيال الأخرى. ولم يتركوا شيئًا لم يجرّبوه من أجل عكس طالعهم من جديد. كان بعضهم يعتقد أنّ مذنّبا يحلّق في السماء كان يغطي على كواكب طالعهم. بينما كان آخرون يلقون باللوم على أصحاب الأرجل المسطحة.

في النهاية أحضروا حكيمًا ليفحص أرجل جميع أهل القرية، ولمّا وجدوا اثنين من ذوي الأرجل المسطحة رجموهما وطردوهما من البلدة. ولمّا لم يُفِد ذلك قتلوا جميع القطط السوداء التي تتمشى في الشوارع وفوق الأسطح.

ولمّا أصبح التجار يغادرون البلدة فرحين ومنتشين بعد أن ضاعفوا ثرواتهم مرتين وثلاثة منع القرويون أيّ تجمع يتكون من ثلاثة عشر فردا في گيردباد وزادوا من تقطير الزئبق في أحجار النرد.

وحين باءت تلك المحاولات كذلك بالفشل جرّبوا إطلاق ألعاب نارية لإشعال نجم طالعهم المنطفئ. فكان كلّ مقامر يعتمد على هذه المفرقعات، يلعق كفّه ثمّ يشعل فتيل صاروخ قبل أن يلقي بنرده. ولكن كان يصعب تخمين لحظة التفجير لأنّ الفتائل لم تكن مؤقتة. فاستمرت الأحجار بالظهور على سي دو.

في النهاية، وبعد أن هلك معظم المقامرين من الجوع والنحس استضاف من تبقى منهم عددًا لا يحصى من المشعوذين والسحرة. ونفّذوا في إحدى المرات توصية ساحر صيني بدحرجة حجري نرد ضخمين منحوتين من الرخام يبلغ طولهما قامة رجلين من مكانٍ عالٍ لإبطال اللعنة وجلب الحظّ. ولكن حتى هذه الأحجار الضخمة تدحرجت لتكون سي دو.

انتهى طالع گيردباد. لكنّ غضنفر الذي أُعطي في طفولته كصبي لأحد مقامري البلدة حتى يتعلم المهنة ويلبس أساور الذهب لم يقبل بذلك. فارتدى الخصف الحديدي الذي رُبح من الشيخ الذي لعن القرية وتناول عصاه الحديدية ثمّ خرج للسفر.

قادته العصى والخصف بعد ترحال طويل إلى قرية جبلية في الإقليم السابع. كان نفّاث هذه البلاد يعمل في حراسة ضريح بالقرية ويفتح أبواب القسمة والنصيب المغلقة في وجوه الناس. أخبره المقامر بمشكلته ورجاه أن يخلصه من السي دو التي كانت فيما مضى دوشيش(102).

أشفق النفّاث عليه عندما رأى نشيجه الصامت وحزنه على قدره المشؤوم، فأخرج من صرّته حجري نرد من خشب الأبنوس، وناوله إياها وأخبره بأنّ عليه أن يجوب العالم ليعثر على أعثر الناس حظًّا، وأن يجعله يلقي بالنرد 66 مرة ويدوّن الأرقام التي تظهر. وعندما يجد أحرف الأبجدية المقابلة لهذه الأرقام(103) ستتجلى له طريقة كشف الغمّة.

امتثل المقامر لما قاله حارس الضريح، وخرج للسفر من جديد وجاب بعصا الحديد والخصف أماكن تردّد أصداء البكاء والعويل والآهات حتى بلغ مكانًا

يدعى وادِ الأنين.

كان الجميع فيه يبكون، من النساء اللواتي يملأن جرارهنّ من عيون الماء إلى الرعاة الذين يرعون ماشيتهم في الجبال، وكانت أصوات نياحهم تبلغ عنان السماء. وبعد أن سألهم عن سبب ذرفهم لدموعهم حصل على الجواب المطلوب.

كانوا يتقطعون حزنًا على درويش يُدعى بشعيب اشتهر بنحسه وحظّه العاثر في جميع الأرجاء. لذلك هم ينتحبون وينظمون له المرثيات. فتتبع غضنفر أصوات النياح والعويل حتى بلغ إحدى القرى ورأى خلف نافذة بيت فيها رجلا يضرب على ركبتيه وينتف شعره ويمزق ثيابه. وقد كان ذلك الرجل هو شعيب، أعثر العالمين حظًا.

قبّل يده وعرّفه بنفسه كضيف الرحمن. ولما أخبره بمشكلته تهلهل وجه المنحوس، لأنّ حلّ نحسه كان في إلقائه لأحجار النرد التي يأتي بها رجل من الإقليم السابع لستّ وستين مرة.

أخيرًا أُلقيت أحجار نرد الأبنوس على أصوات العزف والطرب والطبول ودوّن غضنفر أرقام الأحجار بدقة في دفتره. وعندما حسب الأحرف المقابلة لها بالحساب الأبجدي عرف طريقة تعديل طالعه. لن يرى وجه السي دو بعد الآن. ولكن عليه من أجل ذلك ألّا يصرف إلّا ما نسبته واحد في المئة مما يكسبه من القمار.

كان عليه حتى يُراعي هذا الشرط أن يلعب على مستوى أكبر. لذلك قرّر أن يستقرّ في القسطنطينية. وفي غضون فترة بسيطة كنّز ثروة صغيرة قدرها مئة ذهبية من المبالغ التي ربحها من باعة تختة قلعة. لكنّ رأس ماله الأصلي

كان يضاهي العشرة آلاف فيلورينة، أي مئة ضعف تلك الذهبيات. لكن الشرط الذي يقيّد أمواله اضطره لدحرجة أحجار النرد مدّة أربع سنوات حتى يتمكّن من استئجار حانة قمار في حيّ فَنَر.

أخيرًا تيسرت أحواله وارتاح ماديًا بعد أن اشترى الحانة واستأجر حرسها. أفرغ المخزن من الكؤوس وكوّم فيه ما يمثل التسعة والتسعين في المئة من ثروته. ثمّ صرف جزءًا بسيطًا من الخمسة آلاف ذهبية التي تمثل الواحد في المئة المتبقية على الرشاوى الضرورية ليزيح كلّ العقبات أمام فتح الحانة ودوامها.

أصبح جميع مقامري القسطنطينية زبائنه. وكانت اللعبة الأساسية في حانته هي الباربوت. في جوّ الراحة الآمن هذا لمع نجم طالعه وقام بتنشئة مقامرين محترفين مثله.

مرت السنوات على هذا الحال ولم يعد مخزن الحانة يستوعب التسعة والتسعين في المئة الممنوع إنفاقها. لذلك استأجر عمّالًا يحفروا له حيطان المخزن لتوفير مساحة إضافية.

أصبحت خمسون ألف فيلورينة تشكل الواحد في المئة من رأس ماله الذي كان يكبر يومًا عن يوم. لكنّ صيته ذاع بين الناس بكونه بخيلًا. وبسبب قبضه ليده وحبسه لثروته المتراكمة بدأت تظهر إرهاصات مشكلة نقص النقد في السوق، ممّا أثار استياء التجار كثيرًا.

لكنّ أكبر المستائين من حبس أموال غضنفر عن التداول كان أبرهة. وقد فكّر في البداية بأن يدبر مداهمة إنكشارية لحانته. لكنّه تراجع عن قراره لمّا فكّر

في خبر بلغه صباح الليلة التي نجا فيها من الموت في نقابة المتسوّلين. كما جعلته جرأة الفتى ووقاحته أمامه بالذات يصمّم على إبهاره وخداعه. لذلك أخذ يجهز لخطّة بسيطة ويرسم تفاصيلها الدقيقة بينما كان بنيامين نائمًا في غرفة الاستخبارات.

قرب العصر استيقظ بنيامين من نومه العميق. كان زولفيار مستمرًا بوكزه وضربه على خديه حتى يستفيق رغم أنّه فتح عينيه. كان يخبره أن الأفندي مصمّم على تسلية ضيفه، لذلك عليه أن يتجهّز حالًا.

أحضر أحد الرجال طستا وإبريق ماء ليغسل وجهه ويديه، كما حضّر له صينية للإفطار. كانت شهية بنيامين معدومة، لذلك كان يبلع اللقمة دون رغبة. أثناء تناوله لطعامه دخل أبرهة ليرى مدى جاهزية ضيفه، وأخبره أنّهما سيستمتعان كثيرًا في المساء، وأنّه اشترى له ثيابًا مناسبة من أجل هذه الأمسية الحافلة.

خلع بنيامين أسماله البالية وألبسه أبرهة قميصًا حريريًا وشالًا أعجميًا قيمته خمسون فيلورينة وقفطانًا مزركشًا. ثمّ أخذه إلى غرفة كانت ملأى حتى سقفها بالأموال والكنوز. ذهل بنيامين من المنظر وكاد أن يبلع لسانه الصغير لمّا رأى تحت قدميه ذهبيات البندقية وفيلورينات وشاهيات وأشرفيات وذهبيات المجر وعملات ألمانية وأسديات وقروش إشبيلية وزلوطات وأثمان وأقجات ومنقورات. قال له أبرهة وهو يملأ صرةً بالذهب:

«ليس لهذا كلّه قيمة كبيرة عندي. بإمكانك أخذ ما تريد. فقريبًا لن تعود لها قيمة على أيّة حال».

قام بوزن الصرة المملوءة بيده ثمّ أفرغ نصفها لمّا رأى أنّها أثقل من اللازم.

أرخى حزامه ثمّ حشرها فيه وأشار إلى بنيامين نحو باب الخروج. ثمّ خرجا يرافقهما زولفيار ورجاله.

وجدوا بالخارج خيولًا مجهّزة تنتظرهم. كانت السماء ملبدّة بغيوم المطر، والظلام يوشك أن يخيّم على المدينة. همزوا خيولهم سالكين طريق الديوان(104) ومنه إلى طريق بازار الدجاج.

أوقف أبرهة حصانه أمام سوق النخاسة الذي كان الحشد طافحًا إلى خارج فنائه. كان المزاد بالداخل مستمرًا على آخر عبد يباع في ذلك اليوم، والذي كان زنجيًا مخصيًا.

كان الحشد متحمّسًا ومندمجًا لدرجة أنّ زولفيار اضطرّ لاستخدام كرباجه حتى يفسح طريقًا لسيّده. وبعد تدافع وتزاحم صعدوا السلالم إلى الطابق الثاني الذي كانت فيه مكاتب النخّاسين والعديد من الغرف التي يبقون الرقيق فيها.

تلقّى أبرهة احترامًا وتبجيلًا كبيرًا في مكتب دخلوا إليه. قبّل التاجر ومعاونوه أطراف ثيابه ثمّ قدموا له الضيافة المميزة. وبعد ثرثرة قصيرة دخلوا في الموضوع الأساسي.

كان البائع قد أبلغ أبرهة ذلك الصباح أنّ لديه إحدى عشرة فتاة روسية عيونهنّ كعيون الظباء وشفاههنّ كالكرز، وأنّ أعمارهنّ لا تتجاوز السابعة عشرة في أقصى الأحوال. أخذ يحلف له أيمانًا بأنه اشتراهنّ من التتار باثنتي عشرة ألفًا وخمسمئة فيلورينة. وأسهب طويلًا في مدح جمالهنّ وإطراء لباقتهنّ.

كما كان ينظر من ثقب باب غرفتهنّ التي تعج بالعويل والنحيب والشهقات

ويعضّ على شفته وكأنّه يرى بالداخل حوريات الجنّة، ويردّد كلمات تستعر بلهيب الحبّ والشهوة حتى يثير فضول زبائنه. ولمّا رغب أبرهة في رؤية الجواري تباطأ البائع في فتح الباب وهو ممسك بمفتاحه حتى يمتدح بضاعته لمدّة أطول قليلًا. وفي النهاية أدخل المفتاح في القفل وأداره عدّة مرات.

وحقًّا كان جمال كلّ واحدة منهنّ يضاهي جمال الأخرى. كانت أياديهنّ قد خضّبت بالحناء لعرضهنّ بشكل جذّاب للزبائن، كما أُلبسن ثيابًا حريرية لا تتناسب مع العزبة التي كنّ فيها.

أخبر أبرهة بنيامين أن يختار الفتاة التي يريد فارتبك ولم يعرف ما يفعل. لكنّ أبرهة لم يأبه لذهوله، فقد كان يعرف ما عليه فعله جيّدًا. كان يأمر البائع بنزع ثياب الفتاة التي يريد ليرى ما إذا كان بها جروح أو كدمات، وليتفحّص سلامة أسنانها محاولًا تخمين عمرها. ولمّا رأى أنّ بنيامين ما زال متسمّرًا مكانه أمره بأن يختار المرأة التي سيقضي معها الليلة فورًا لأنّ وقتهما ضيّق.

استقرّ قرار أبرهة أخيرًا على امرأة لحيمة حمراء الخدين، ثمّ قال لمّا رأى بنيامين ينظر إلى فتاة تبكي: «يبدو أنّها أعجبتك. لو كنت مكانك لاخترت فتاة أكثر نشاطًا وحيوية. لكنّي أحترم اختيارك». لم تكن تعابير وجهه الساخرة قد اختفت بعد وهو يناول الذهبيات للنخاس.

وزع البقشيش على المعلم وصبيانه في المكتب وأخبرهم بالعنوان الذي سيحضرون إليه الفتيات في تلك الليلة ثم أخبر زولفيار أنّهم ذاهبون إلى حانة قمار غضنفر.

ركبوا خيولهم ويمّموا صوب الخليج هذه المرّة. كان الظلام على وشك الحلول.

وأثناء مرورهم بالمنطقة الواقعة خلف جامع والدة السلطان كان العائدون إلى منازلهم قد أشعلوا فوانيسهم.

عند مرورهم من جانب جامع أمينونو صادفوا حشدًا غاضبًا ومهتاجًا. كانت جماعة مكوّنة من إنكشاريين وغليونجية وملالي تجرجر رجلًا وهي تشتم وتلعن. كان المسكين من مظهر ملابسه يبدو افرنجيا يقيم في فنر. وبما أنّه يساق نحو الصخرة التي تقطع عليها الرؤوس فلا بدّ أنّه قد اقترف جريمة عظيمة.

تبيّن أنّه أعرج لمّا أوقفوه على قدميه بجانب الصخرة وهم يتدافعون. منحوه فرصة أخيرة لتغيير دينه. لكن لا بدّ أنّهم تلقّوا منه إجابة سلبية، فقد طرحوه واضعين رأسه على الصخرة، ثمّ طيّر إنكشاري رأسه بمشمله.

سأل أبرهة الإنكشاري الذي كان ينظف سيفه عن جرم الرجل فأخبره أنّه في زمن ما كان كاتب قنصل البندقية، إلّا أنه غير من مهنته بعدها واشتغل بالجراحة. وبأنّهم قبضوا عليه وهو يشرح ويقطع جثة في بيته. فالتفت لبنيامين قائلًا:

«أترى إلى أيّ خاتمة يؤدّي شغف المعرفة بالناس؟ لم يكن احترامهم للجراح المسكين الذي يرغب أن يرى ويسمع ويطّلع ويتعلم، بل لجثّة لا تحسّ سوى بالظلام والبرد والصمت. ربما سيحكي قاتلوه لأولادهم عند عودتهم لبيوتهم نهايته معدّدين لهم مخاطر المعرفة حتى يتعظوا».

أثناء حديثه كان الإنكشاريون ممّن نفذوا الإعدام قد عرضوا ممتلكات المقتول للمزاد العام. فلا بدّ أنّهم وبعد ذلك الهياج والتعب يرغبون بالراحة قليلًا في إحدى الحانات بما سيكسبونه فيه.

بيعت مباضع ومدقات وكلابات ومناشير غريبة لقطع العظام مقابل منقورين، واشترى أبرهة الكتاب المتبقي بخمسة أقجات. قلّب صفحاته وهو على ظهر حصانه ووجد أنّه كان أطلس تشريح. كانت العضلات والعظام والأنسجة والعروق والأعصاب والأعضاء تحمل أسماء مشاهير فتوات وخمّاري وغلمان وشبيبة القسطنطينية. بعدها أعطى الكتاب لبنيامين وناول كافرًا كان قد شهد الإعدام ذهبيتين طالبًا منه أن يقوم باللازم لدفن القتيل.

ساروا بمحاذاة الخليج صوب حي فنر. ولمّا وصلوا إلى وجهتهم كان البدر قد طلع. كانت حانة قمار غضنفر عبارة عن بناء خشبي من طابقين بمحاذاة السور. ترجّلوا عن أحصنتهم أمام عتبة بابها وطرقوه ست مرات، ثلاث سريعة وثلاث أخرى بطيئة. ففُتح ثقب مراقبة الباب وظهرت عينان زرقاوان تحملق فيهم. وبعد مدّة قصيرة خرج ساسة في عجلة وتسلّموا منهم خيولهم وأدخلوها إلى الحظيرة، ورحّب بهم رجل متملّق إلى الداخل.

على عكس الطابق العلوي المخصص لأصحاب الصرّر الممتلئة، كان الدهماء والرعاع فقط من يلعبون الباربوت في الطابق الأرضي، كما كان حرس غضنفر الغِلاظ يجمعون رسومًا على الألعاب فيه.

كانت مظاهر الحماس والفرح والاستياء في هذه الحانة التي تتنقل فيها الأقجات والذهبيات والمنقورات من يد إلى أخرى آلاف المرات معدومة رغم عظم المجازفات والمخاطر والمبالغ التي تُخسر وتُربح؛ لدرجة أنّ تعابير الوجه لم تكن تكفي لتمييز الرابح من الخاسر. وذلك لأنّ جميعهم تقريبًا بلغوا مرتبة المشيخة في لعب القمار وانمحت من قلوبهم ورؤوسهم أيّ بقية من مشاعر. أمّا من لم يكونوا مثلهم من الآخرين فكانوا قد فقدوا قدرة التمييز بين الربح

والخسارة منذ مدة طويلة بسبب الخمر الممزوج بالأفيون الذي يُقدم مجانًا في أوعية فخارية.

كانت الأغلبية تثق بحظّها بينما كانت أقلية تعتمد على الزئبق في أحجار نردها. وبينما كان حِرفيٌ قد خسر معظم كسب يومه بسبب هب يك(105) يعول على قدم أرنب في يده اليسرى، كان بلطجي قد خسر إتاوته بسبب بنج سو(106) يؤمن بقوة حظّ جمجمة ثور يبقيها تحت إبطه. وبينما كان الإنكشاريون الذين تبخرت غنائمهم بسبب دوبارة(107) يعتقدون بأنّ تمائمهم وخرزهم ستتسبب عاجلًا أو آجلًا بظهور دوبيش(108)، كان شحاذان يتلوان دعواتهما المعهودة بعد خسارة صدقاتهما بسبب دوبارتين(109) منحوستين متتاليتين.

أمّا حال الموظفين الذين طارت رشاويهم بسبب جهار يك(110) بغيضة فقد كانت مختلفة. كان بعضهم يتغرغر بإكسير الحظّ السعيد ثمّ ينفث على أحجار النرد وهو يحرك معصم يده موقنًا أنّ دوشيش(111) ستظهر نتيجة لذلك. أمّا الآخرون منهم فقد كانوا يجعلون شخصًا له ستّ أصابع أحضروه معهم باعتبار يده مبروكة يرمي لهم بالنرد. بينما كان منقب الكنوز الذي منذ عام كامل وهو يخسر هنا جرار الذهب التي وجدها في أعماق الأرض يذهب إلى شيخ له نَفَسٍ قوي يقبل بالنفث على الأحجار مقابل إحدى وأربعين أقجة قبل أن يأتي إلى وكر الآثام هذا. وكان الجلادون المراهنون على بنج يك(112) بالبقاشيش التي أعطاهم إياها محكومو الإعدام حتى يقوموا بعملهم على أكمل وجه ينزعجون عند رؤيتهم للرقم الظاهر وتنعكس على وجوههم حمرة دماء ضحاياهم السابقين.

صعد أبرهة يتبعه بنيامين وزولفيار ورجاله إلى الطابق العلوي الذي يستضاف فيه الصفوة من الضيوف. والذي تكون الخمور المقدمة فيه ألذ وأطيب بطبيعة الحال. ورأوا عند دخولهم غرفة مفروشة بالسجاد الإيراني أربعة من أشراف القوم يجلسون برفقة غضنفر ومعاونه أولاه(113).

في هذا الطابق لا تُجمع رسوم على الألعاب الملعوبة لأنّ غضنفر كان يشترك في ألعاب القمار منيبًا عنه معاونه. كان التاجر العربي، أحد الأربعة المشاركين في لعبة القمار، قد خسر ثروة كبيرة منذ بدايات اللعبة. ولا يمكن اعتبار وضع السمسار الأرمني أفضل كثيرًا، إلّا أنّ وضع الإيراني الذي كان يبقي مبلغ الرهان منخفضًا أفضل نسبيًا من وضع العربي. ولكن إن كان ثمّة حقيقة لهذا المكان، فهي أنّ الفائز عادة ما يكون أولاه الذي يمثّل سيده غضنفر.

بعد أن رد أبرهة الذي يعرفه جميع من بالغرفة شخصيا أو غيابيا سلام الجميع جلس للعب الباربوت وسلّم صرّته الملأى بالعملات الألمانية لسمسار الحانة. وبعد أن تحولت صرّة العملات تلك إلى ثلاث صرر ونصف من الشاهيات الذهبية راهن بمبلغ جديد وألقى بالنرد، وبذلك بدأ فصل طويل متوتر من اللعب. زادت الإثارة وبلغ التوتّر ذروته لمّا رفع التاجران العربي والإيراني من رهانيهما بعد أن كانا يلعبان بتحفّظ حتى تلك اللحظة.

بعد أن خسر السمسار الأرمني آخر متليك له نزل إلى الأسفل وأخبر من كانوا هناك بأنّ لعبة قمار كبيرة حامية الوطيس تجري بالأعلى، فتزاحموا عند الباب، وحظي بعض منهم ممن تمكن من تجاوز الحرس الواقفين عليه بفرصة متابعة اللعبة الحماسية عن قرب.

رمق أبرهة الحشد الذي لم يستطع الحرس تشتيته ثمّ دحرج على طاولة خشب الجوز أحجار النرد لآخر مرة وظهرت له سي دو(114). فانتفض في مكانه وصرخ:

«أنتم تحتالون!»

أجاب غضنفر:

«لا حيلة في الأمر. لقد خذلك طالعك فقط».

فقال: «سنرى الآن». ونهض لينتقل إلى الطرف الآخر من طاولة خشب الجوز. لكنّ حرس غضنفر منعوه، عندها أمسك زولفيار ورجاله بمقابض مشاملهم. وأخذ الجمع المحتشد عند الباب يهمس ويهمهم.

قال أبرهة:

«أخاطبكم يا جميع من بالمكان! إنّ هؤلاء يغشونكم وينهبون أموالكم، امنحوني فرصة لأثبت لكم ذلك».

فوضع جميع المقامرين أيديهم على سكاكينهم ومشاملهم ومسدساتهم صارخين: «معه حق! نريد أن نرى دليله. دعوه يتحدث!»، عندها ألقى غضنفر بأحجار نرده أمام الجميع:

«ها هي أحجاري أمامكم. افحصوها. ولكن إن جعلتكم تدخلون إلى هنا مجددًا فلن أكون غضنفر. لم يجرؤ أحد من قبل أن يتّهمني بهذا الشكل!».

تفحص المقامرون الأحجار تحت ضوء الفانوس ووجدوا أنّها لم تكن منقوعة

بالزئبق. لكنّ أبرهة لم يكن بالرجل الذي يقتنع بهذه البساطة. لذلك قال بعد أن انتزع النقاط من على الأحجار بسكينه:

«انظروا. النقاط على الأوجه الخمسة مملوءة بالرصاص، بينما وجه «الواحد» المواجه للستة فيه حديد بدلًا من الرصاص».

قال غضنفر مزمجرًا:

«كيف عرفت أنّه حديد؟ أتعنى أنّ ثقل ذلك الوجه يجعل الستة تظهر عندما يُلقى به؟ ألق به إذن بقدر ما شئت. ولنر إن كان الرقم الذي تتوقعه يظهر».

وحقًّا كان احتمال ظهور الستة مساويًا لظهور الأرقام الأخرى بغضّ النظر عن عدد المرات التي يلقى فيها بالنرد.

كان غضنفر يشتم ويردّد بأنّه مستاء جدًّا من الطريقة التي يُعامل بها، ويقول أنّ غايته الوحيدة هي خدمة عاشقي القمار دون مقابل سوى كسب القلوب، وأنّ عليه من أجل أن يعلم الناس بقدره أمام هذه الوقاحة ونكران الجميل أن يغلق حانته لأسبوع كامل. فهرع المقامرون يسترضونه ويحاولون تهدئته خوفا من تنفيذه لما يهدّد به. عندها ثارت ثائرة أبرهة، فصرخ:

Telegram:@mbooks90

«يا لكم من حمقى! ويا لسهولة خداعكم. سأريكم كيف يقوم بالغشّ».

ورفع بحركة مفاجئة الجوخة التي ثُلقى عليها أحجار النرد، فظهر أنّ طاولة الجوز كانت مغطّاة بالصفيح. بعدها تحرك زولفيار بإشارة من أبرهة ونزع المسامير بمشمله ورفع الصفيحة، فاكتشفوا أنّ الطاولة التي كان الجميع يظنّ حتى تلك اللحظة أنّها مصنوعة من خشب مصمت كانت مجوّفة، وأنّ في

التجويف سبع عشرة بكرة(115) مثبتة على بعد مسافات موزونة من بعضها.

تظاهر عندها غضنفر بالذهول، وأخذ يحلف أيمانًا أنّه اشتراها قبل أسبوع في مزاد البيدستان. إلّا أنّ مقامرًا كهلًا سليط اللسان كان قد أفلس وأصبح يرتدي الأسمال بعد أن كان تاجرًا ثريًا صرخ غاضبًا وهو يضرب على الطاولة:

«أنت تكذب! لقد خسرت جميع رأس مالي وأنزالي وحماماتي وعبيدي ومتاجري وجمالي قبل ستّ سنوات بالتمام على نفس هذه الطاولة!»

قال أبرهة مخاطبا المقامرين:

«معنى هذا أنه استخدم مغناطيسًا. الآن فهمنا كيف كان يفوز».

ثم قام بتتبع السلك المربوط بالبكرات حتى بلغ مكان جلوس ممثله أولاه، الذي كان السلك مربوطًا بمفتاح خشبي في جانبه من الطاولة. كان المفتاح يُدار عند الحاجة ليتصل بسلك آخر ممدود إلى الطابق الأرضي.

أدار أبرهة المفتاح ثمّ طلب من أحد المقامرين أن يسحب سيفه ويقربه من البكرات. فالتصق السيف بها ولم يُنتزع إلّا بصعوبة. فابتلع جميع المقامرين ألسنتهم الصغيرة من الذهول وقالوا:

«انظروا إلى الخنزير! إذن فالمغناطيس هو السبب وليس الحظّ، كان في كلّ رمية يحصل على دوشيش(116)!».

كان غضنفر يحاول سدىً تهدئة المقامرين الذين استحال ذهولهم إلى غضب في لحظة. لكن الوضع خرج عن السيطرة تمامًا لمّا راحوا يطالبونه بما خسروه

في ذلك اليوم والأيام قبله. قال أبرهة مخاطبا بنيامين عندما بدأ الحرس يفلتون السيطرة على المتواجدين:

«بعد قليل ستفرقع الأسلحة. لكنّي أريد معرفة إلى أين يؤدي هذا السلك قبل الخروج من هنا».

كان السلك يمتدّ من قائمة الطاولة إلى الأرضية الخشبية ومنها إلى الطابق السفلي. لذلك خرجوا من الغرفة التي بدأت فيها معركة دموية متجاوزين بصعوبة عددًا لا يحصى من المقامرين المحتشدين ونزلوا من الدرج إلى الأسفل، ثمّ كسروا باب الغرفة التي يمتدّ إليها السلك. كانت غرفة تؤدي إلى القبو يلمع بها بريق أصفر. لا بدّ أنّه كان يصدر من الذهب الذي يمثل تسعة وتسعين بالمئة من ثروة غضنفر.

تفحّصوا المكان، فوجدوا حوضًا خشبيًا، تناول أبرهة فانوسًا كان معلّقًا على الحائط وقرّبه من الحوض. كان الحوض مملوءًا بالماء وفيه أسماك غريبة وبضعة سرطانات ضخمة. كانت السرطانات لا تكفّ عن إيذاء الأسماك التي لها خاصيّة الصعق بل والقتل عند لمسها، والتي يعرفها البحّارة جيّدًا.

كان السلك المربوط بالبكرات ينزل من الأعلى إلى هذا الجوض وينتهي به الحال مربوطًا باللوح الصفيحي أسفله. قال أبرهة لزولفيار:

«تعال واغمس يدك في الماء، لنرى ما سيحدث».

وفي اللحظة التي غمس فيها يده قفز يصرخ متألمًا. كان جميع جسده ينتفض، وعيناه تكادان تنفران من محجريهما. انفجر أبرهة بالضحك عليه بينما كان يتلوى

على الأرض. حتى زولفيار المسكين ورغم الصدمة التي عاشها حاول أن يتملّق سيده بمشاركته في الضحك، لكنّ ضحكته لم تكن تعبّر عن أيّ بهجة وفرح، بل عن ألم وتوجّع في أفضل الأحوال.

لم يستمرّ جوّ الضحك طويلًا. فقد أدركوا أنّ عليهم مغادرة المكان بسرعة عندما اشتموا رائحة دخان. كان المقامرون الذين أدركوا أنهم خُدعوا قد أشعلوا حريقًا بالحانة. ولكن لن يضرّهم ذلك. فسيكون بإمكانهم صباح الغد تصفية الرماد بالغربال والعثور على ذهب غضنفر طالما أنّه لا يحترق كالخشب.

وصلوا إلى فنر بعد منتصف الليل بقليل. كان البدر قد غاب عندما أوقف أبرهة حصانه أمام أحد البيوت. وقبل أن يترجّلوا من أحصنتهم فُتح الباب وخرج منه بسرعة خدم كانوا ينتظرون قدوم أسيادهم. كان هذا أحد بيوت أبرهة، والذي كانت الجاريتان اللتان اشتريتا من سوق النخاسة تنتظرانهما فيه.

عند دخولهم إلى البهو أسرع الخدم لتقبيل أطراف ثياب أسيادهم. كانت المائدة قد جُهزت في الطابق العلوي. وكان على ثلاث صينيات فيها واحد وأربعون نوع مزّة بالضبط. ويمكن القول من تواجد فرقة موسيقية مكتملة بعازف نايها ومزمارها وعودها وطنبورها وضارب نقارتها أنّ الليلة ستكون ليلة طرب ولهو.

بدأ الموسيقيون -الذين كانوا جميعهم وفقًا لعادة ذلك الزمان عميانًا حتى لا يروا الجواري- بالضرب على أوتار طنابيرهم وطبولهم، فجلس القادمون على المائدة. سُكب العرق في أقداح من بلور عين البلبل(117)، وراحت الجارية التي اختارها أبرهة تغنّي بصوت متناغم وجميل على مقام الحجاز رغم

محدودية التعليم الموسيقي الذي تلقته في خان العبيد.

أمّا الجارية التي كانت ستقضي الليلة مع بنيامين فلم تكن في حال يسمح لها بالغناء. لأنّ هذه الفتاة التي كانت ترزح تحت ثقل العبودية كانت تبكي منذ اختطفها تجار الرقيق. وقد أثّر حزنها على شريكة قدرها، فغنت بحزن وحرقة جعلت بنيامين الذي شرب العرق كَرهًا يكاد يبكي.

رأى أبرهة الدموع المتجمعة في عين بنامين فألقى بقدح البلور على الستار الذي يحجب الجاريتين صارخًا: «كفى!». فاضطرب الانسجام بين العازفين الذين فوجئوا بالصرخة الغاضبة وتباطأ إيقاع العزف ثمّ انقطع تمامًا. فصرخ حينها:

«اعزفوا لحنًا راقصًا!»

فعزفوا لحن كوجكجه(118) راقصًا يصحصح حتى متعاطي الأفيون. فهبّ أبرهة من مكانه وراح يرقص ببراعة وغنج لدرجة أنّ زولفيار الذي لم ير وجهه الابتسامة حتى تلك اللحظة شرب قدحه جرعة واحدة وراح يهتف: «يا سلاام!».

وعندما أخذ أبرهة يرقص أمام الجالسين على السفرة مميلًا ظهره نحو الخلف راحت الأقجات والذهبيات تُبلل بالبصاق وتُلصق على جبهته كما تجري العادة. ولمّا جاء دور بنيامين قام وبسبب تأثير العرق الذي لم يعتد عليه بالتصرف من دون تفكير. كانت العملة السوداء التي أعطاه إيّاها زولفيار سابقًا قد انزلقت من بين صفحات أطلس أبيه وسقطت مختلطة بالأقجات التي كانت في حجره. فلمّا أدخل يده في حجره ليتناول أقجة يلصقها بجبهة أبرهة وقعت يده عليها.

وبينما كانت يده في طريقها بهذه العملة الباردة الزلقة نحو جبهة أبرهة أدرك

متأخرًا ما كان بصدد فعله، لكنّ الأوان كان قد فات. فسيثير الشكوك لو عدل عن إلصاقها. لكن لحسن حظّه أنّها سقطت على الأرض لمّا اعتدل أبرهة واقفًا. كما أنّه لم يعد للانحناء أمام بنيامين بفضل الدربكجي الذي بدأ فاصلًا طويلًا بإيقاع مختلف أنهاه بضربة قوية منهيًا معه فترة الرقص.

عليه أن يستعيد العملة من دون أن يثير الانتباه. قرّر إن نجح في ذلك أن يتظاهر بأنّه ذاهب إلى الخلاء ثمّ يلقي بها في فتحته. إلّا أنّ أبرهة أمسك بذراعه في اللحظة التي قرّر فيها تنفيذ ما نواه وصرخ للرجال: «انصرفوا أنتم. فلدينا شأن آخر مع هذا الفتى».

سرت رعدة بجسمه لظنّه أنّه كان سيُفضح بالجرم المشهود. لكنّه تنفس الصعداء لمّا رأى أنّ أبرهة أمسك بذراعه ليساعده على النهوض من على السفرة وحسب. وقد كان في حاجة حقيقية لمساعدته لأنّ رأسه كانت تدور بشدّة بسبب أقداح العرق الكثيرة.

سحبه أبرهة من ذراعه نحو إحدى الغرف بينما كان زولفيار ورجاله يخرجون من البيت. كان بال بنيامين حينها مشغولًا بالعملة المشؤومة الساقطة على السفرة. قال له أبرهة:

«فتاتك تنتظرك بالداخل. لقد حُمّمت في الحمام وعُطرت وكسيت ثيابًا نظيفة وجميلة. مع ذلك ما زالت تبكي. هيا أرنا شطارتك! أنا واثق أنّك ستهوّن عليها».

ثمّ فتح له الباب ليدخل وأقفل عليه ودخل إلى الغرفة المجاورة. لم يكن ينير غرفة بنيامين المعتمة التي كانت المسكينة تبكي في أكثر زواياها ظلمة سوى شمعة واحدة. أطفأ بنيامين الشمعة واقترب منها قائلًا:

«لا تخافي. فلن أمسّك بسوء. حتى الشمعة أطفأتها حتى لا ترين وجهي. فليست لك طاقة بذلك، لأنّي شديد الدمامة».

فتوقفت الفتاة عن البكاء. ولكن كان يمكن بفضل النور المتسلل من القضبان رؤية الدموع في عينيها. أراد بنيامين لمسها ولكنّه عدل عن ذلك. فجلسا هنالك صامتين لمدّة. في تلك الأثناء بدأت أصوات تصدر من الغرفة المجاورة. وقد كانت تلك أنّات لذّة الجارية تحت أبرهة.

ألقى بنيامين بنفسه على الأريكة وغطى وجهه بيديه لأنّ عينه كانت ملأى بالدموع. لقد أفسد كلّ شيء بينما كان يريد إنقاذ أبيه، وألقى بنفسه بين أيدي الرجال الذين كانوا يبحثون عنه. كان يفكر باحتمال أنّ كلّ شيء حدث منذ يوم البارحة كان مسرحية مخطّطًا لها بإتقان، مع أنّ زولفيار لم يبيّن أنّه تعرف عليه.

لم يكن يشعر بأنّه بطل رغم وجوده وسط هذه المغامرة وإنقاذه لحياة أبرهة وتصرّفه معه بجرأة واستخدامه لكلمات أكبر من حجمه. فقد كان كما يقول أبرهة، مجرد شخص واهن وضعيف، ولا تميّزه سوى دمامة وجهه غير المحتملة.

غصّ حلقه وترقرقت الدموع في عينيه وهو يجاهد لئلا يفلت تحكّمه بنفسه ويبكي في وجود الجارية. وبينما هو على تلك الحال شعر بيد تحط على كتفه. دنت الفتاة منه وانحنت ممسكة بيده قائلة له بأجمل وأعذب صوت في العالم:

«آغلايا. مايا ميا آغلايا».(119)

في اللحظة التي شعر فيها بيدها لم يتحمّل أكثر، فانفجر يبكي ويشهق. مال مسندًا رأسه على حجرها واستمرّ يبكي لساعات. ولمّا انقطعت شهقاته وراح

يتنهدّ قادته آغلايا إلى السرير ثم رقدته وغطته. وخلال لحظات قليلة غطّ في نوم عميق.

عندما طلع الصباح كانت آغلايا قد رحلت. فوق ذلك كان زولفيار يصفعه ويكزه بيده الجلفة لإيقاظه ويقول له بأنّ عليه أن يستعدّ ويتناول إفطاره لأنّ الأفندي الأكبر ينتظره في مركز الاستخبارات.

جُهز له طبق إفطار متواضع في غرفة سَمر البارحة. وقد سبق زولفيار في دخول الغرفة وجلس على العملة المشؤومة القابعة على الأرض من دون إثارة انتباه أحد. ثمّ تحيّن الفرصة المناسبة ووضع الشيء الذي كان سيفضحه في جيبه.

أصبح بإمكانه الآن وبعد أن ارتاح من ذلك الهمّ أن يفكر في آغلايا كما يريد. مع ذلك لم تكن كلمات أبرهة تفارق عقله. وعندما تبدّدت سكرة النوم جفل مدركًا لسبب قدوم زولفيار إلى هنا. فقد كان هذا الرجل المكلف بأخذه إلى مركز الاستخبارات دليلًا على محاولات جعله يصدّق بأنّ هذه المسرحية كانت حقيقة.

كان بين كلّ لحظة وأخرى يكزه جاعلًا اللقمة تقف في حلقه ويردّد أن عليه الانتهاء من الطعام بسرعة وإلّا تأخرا. أصبح من المؤكد وبشكل لا يفسح مجالًا للشك أنّه تمّ التجهيز لمسرحية جديدة اكتملت التفاصيل والرتوش التي تهدف لجعلها تبدو حقيقية.

بعد هذا الإفطار السريع وعند خروجهما من البيت وركوبهما للخيول التي جهزها الساسة اقترب منهما شحاذ لا شعر ولا لحية ولا شوارب له بملابس قليلة مهلهلة. كان ذلك متعوس الذي أصابه البرق حتى ذلك اليوم ستّ مرات بالتمام.

وعلاوة على ذلك كانت السماء ملبدة بالغيوم وتبدو أنّها ستمطر.

غضب زولفيار وصرخ بالمتسوّل الذي طلب الصدقة ممسكًا بكرباجه: «أيّها المنحوس! أتريد أن تصيبنا بالبرق، اغرب عن هنا حالًا!» ولسع المسكين على وجهه بالكرباج ذي الطرف الحديدي. لكن لم تكفِ ضربة واحدة لإطفاء نهمه للضرب، فاستمر بضرب المسكين بكرباجه بشدّة.

تدخّل عندها بنيامين الذي أثارت تلك القسوة غضبه طالبًا من زولفيار أن يكفّ عن ضربه. ولكن حدث ما حدث عندما قابل الجلف تدخّل الشاب بشتيمة غليظة. فأمسك بنيامين بكرباجه وسحبه فاختل توازنه وسقط عن حصانه. مما جعل غيظه يستعر.

نهض من مكانه ليهجم على بنيامين فتلقّى على وجهه لسعة من الكرباج. ولمّا غطّى وجهه وحاول الهجوم ثانية لسعه الكرباج على بطنه. ثمّ على ظهره. فسقط على الأرض.

عندها ألقى بنيامين بالكرباج أرضًا وضرب بطن الحصان بكعبي قدميه جاعلًا إياه يعدو بأقصى سرعة. تتبّع متعوس الفتى الذي دافع عنه حتى جامع والدة السلطان. وعندما تقطعت أنفاسه توقف عن اللحاق به واكتفى بمراقبته يبتعد بامتنان وهو يسرع بحصانه إلى وجهة مجهولة.

أوقف بنيامين حصانه ثمّ ربطه أمام قراءت خانة بالقرب من خان الوالدة(120) وجلس متعبًا على كرسي وطلب فنجان قهوة. وقد أطال التفكير وهو جالس هناك، لكنّ اتخاذ القرار كان صعبًا عليه. فأمامه خياران؛ إمّا أن يذهب إلى أيّ مكان يريد، أو أن يعود إلى العالم المليء بالأسرار والغموض والمظهر

الخداع.

صحيح أنّ عالم أبرهة لا يشعره بالأمان، إلّا أنّه يقدح فضوله ويمنح خياله جناحين وإحساسًا زائفًا بالحرّية. اضطر أن يفتح أطلس أبيه حتى يقرّر. وقرأ فيه جملة «خرج للبحث عن السرّ مخاطرًا بحياته». فأخذ نفسًا عميقًا كأنّما كان سيغوص في أعماق البحر؛ لقد قرّر الآن. تغلّب الشعور بالحرّية على الحرّية نفسها، وصمّم بنيامين على كشف السرّ. فقفز فوق حصانه وهمزه ليركض صوب مركز الاستخبارات.

كان العرق يتصبّب منه عند مروره من الدهليز المؤدّي إلى الاستخبارات. بل يمكن القول أنّه بحاله الواثقة والمتعجلة هذه أفزع القهوجي صاحب سحنة القتلة. وعند دخوله للمقرّ استغرب الرجال لما رأوه وحده من دون زولفيار. وبعد قليل خرج أبرهة من غرفة الكيمياء ليستقبله.

«أرى أنّك جئت إلى هنا من دون زولفيار. أنت تدهشني كثيرًا. لو استمر الحال هكذا فلا أظنّ بأنّي سأفهمك أبدًا. بما أنّك جئت إلى هنا برضاك فهذا يعني أنّ هناك ما يجذبك. أشياء تثير فضولك وترغب في استكشافها».

قال بنيامين الذي تقطعت أنفاسه من الجري بالحصان طوال الطريق صارخًا:

«أخبرني! ما هي نيّتك؟ أعرف أنّك تدبّر شيئًا ما. لماذا أو لمن تعمل أنت؟ وماذا تعرف عنّي؟»

«اهدأ أولًا، ثمّ هات أسئلتك بالترتيب».

«أوّل سؤال لي هو: ما حكاية الفراغ هذه؟ لماذا أخبرتني بتلك الأشياء

الغريبة؟ وهل كنت ستحصل على شيء بفعل ذلك؟»

«أستطيع تخمين سؤالك الثاني. ستسألني عن سبب سعيي خلف السرعة اللانهائية».

«لا تعبث معي. أجبني فقط واخبرني بالحقيقة».

ظهرت أمارات سرور على وجه أبرهة لمّا رأى فضول الفتى يعذبه بسبب الغموض الذي يشلّ عقله، ويجعله تدريجيًا أكثر قابلية لتصديق ما يُلقَّن. لكنّه كذلك كان يعرف أنّه مصمّم على ألّا يصدق أيّ شيء بسهولة، لمعرفته -كما يعرف أبرهة- أنّ الغموض يسهّل الانخداع. وقد يكون ذلك هو ما يريده تمامًا. فربّما كان يريده أن يعتقد أنّ الحقائق التي يخبره بها مجرد أكاذيب. أدخل ذراعه في ذراع بنيامين وعلى وجهه تلك الابتسامة المشؤومة:

«تعال معي. سأخبرك بكلّ شيء».

دخلا معا إلى غرفة الكيمياء وتوقّفا عند الجسم الغريب المغطى بالقماش مبهرج الألوان. رفع أبرهة القماش فظهرت مرآة عجيبة. كانت من ناحية الشكل تشبه القدر الواقف على أربعة أرجل. ولكن كان في قسمها العلوي مكان غطاء القدر مرآة. وعلى تلك المرآة كانت توجد كتابات متعددة. دقّق بنيامين النظر ولاحظ أنّها كانت مؤلفة من عدد لا يحصى من حبات الرمل الملتصقة بالمرآة. لكنّ لمسها لم يكن ممكنًا. لأنّ المرآة كانت مغطاة بطبقة زجاجية بحيث يبقى فراغ بينها وبين المرآة بقدر نصف الإصبع. كان هذا الجهاز العجيب هو مرآة الكهانة التي غيّرت من حياة أبرهة.

واجه بنيامين صعوبة بالغة في قراءة الكتابات المتشكلة من حبيبات الرمال في البداية، لأنّ الأحرف التي كانت بالخط الكوفي كانت لها زوايا وخطوط مستقيمة. في النهاية وحين استطاع أن يقرأ المكتوب ذهل أشد الذهول. فقد كان مكتوبًا عليها:

قبل القيامة بعام

في البدر السابع

سيدخل المهدي من الباب الغربي

قال أبرهة الذي راقب ذهول بنيامين باستمتاع:

«أصبحت تشاركني سرّي الكبير الذي قد يكون أكبر أسرار الحاضر والماضي يا صديقي العزيز. والذي لا يعرفه حتى زولفيار. لو كنت مكانك لما أخبرته بشيء، لأنّه لن يصدّقك. بل حتى لن يرى حاجة للتأكّد ممّا تقوله له. أعرف أنّ الفضول يغمرك. لذلك اسمح لي أن أخبرك بحكاية هذه المرآة:

لقد اشتريتها من مزاد الجلّادين قبل خمس عشرة سنة. كانت وكما ترى الآن محمية بلوح زجاجي. وقد جذبت انتباهي حبات الرمل الواقعة بين المرآة واللوح. لكنّ في تلك الأيام لم تكن الكتابة التي تراها الآن قد تكوّنت بعد. وقد واجهت صعوبة في تصديق ما قاله لي الجلّاد بشأن ماضي هذه المرآة. لأنّه كان يقول بأنّها مرآة كهانة كان قد أهداها درويش للسلطان قبل خمس وعشرين سنة. وحسب ما يقول، فإنّ الدرويش قال للسلطان بعدما أعطاه الهدية واستلم البقشيش أنّ المرآة تظهر المستقبل، وأنّ ذلك لن يحدث إلّا قبل القيامة بسبع

سنوات، عندها سيعرف أبناء آدم عاقبتهم. كما قال الجلاد أنّ السلطان سئم منها بعد أن انتظر وقتا طويلًا دون أن تظهر شيئًا. وقال بأنّها في النهاية أهديت قبل سنوات إلى أحد الباشوات لأدائه الجيد في معركة غيريت، إلّا أنّه ولصدور طلب قطع رأسه في اليوم السابق لذلك، ذهب الجلّاد بنفسه وقتله. وكما تجري العادة، أصبح الجلّاد مالكًا لممتلكات وأموال المقتول، وقد كان من بين تلك الممتلكات مرآة الكهانة هذه. ظننتها في البداية حكاية نسجها خيال الجلّاد. فأخذتها ووضعتها في إحدى زوايا مركز الاستخبارات. ومرت الأعوام، ونسيتها هي وحكايتها. إلّا أنّ شيئًا رأيته فيها قبل ست سنوات بالتمام ذكرني بأنّها مرآة كهانة.

أيقظتني في صباح اليوم الذي أتحدث عنه نغمة ما. كانت شديدة الغرابة والكآبة وتصدر من غرفتي. وضعت يدي على مسدّسي لخوفي الشديد. وعندما رحت أبحث عن مصدرها وجدت أنّها تصدر من مرآة الكهانة. وبمجرد لمسي لها انقطع الصوت. فسرت رعدة في جسدي. بعد ذلك مباشرة راحت حبات الرمل الكائنة فوقها تتحرّك أمام عيني، فظننت أنّي فقدت عقلي. تحركت بشكل عمودي ثمّ أفقي ثمّ ظهرت عبارات تشبه هذه التي تراها الآن. ما زلت أذكرها، كانت:

قبل القيامة بسبع سنوات

في شمال المدينة الكبيرة

ستظهر سحابة حمراء

لم أعرف ما عليّ فعله. قلبت المرآة وهززتها. وتفاقم ذهولي لمّا رأيت حبات الرمل ثابتة مكانها وكأنّها ملتصقة. ظننت أنّها حيلة ما في البداية. لكنّ ذلك مستحيل. كما لم تكن هنالك إشارة إلى مكان يمكن إخراج لوح الزجاج منه.

ناديت على زولفيار فورًا وطلبت منه أن يتحقق ممّا إذا كان هنالك وضعٌ غير معتاد في شمال القسطنطينية. لكن لم تكن هناك حاجة لأن يفعل ذلك، لأنّ رجاله كانوا قد أخبروه منذ وقت طويل بظهور سحابة حمراء شديدة الكثافة خلف غلاطة في نواحي طوبخانة. وقد عد الأهالي ذلك -كما يقول- علامة على وباء سيظهر بعد ثلاثة أيام. لكنّهم ارتاحوا بعد مرور أسبوع لم يظهر فيه ما توقعوه. أما أنا فلم أرتح أبدًا.

كنت عند استيقاظي في كلّ صباح أهرع للنظر إلى المرآة. لكنّ الكتابات لم تتغير طوال سنة كاملة. وفي يوم ما استيقظت على صوت تلك النغمة المشؤومة من جديد. وكما حصل في المرة السابقة، انقطع الصوت بجرد لمسي لها، وراحت حبات الرمل تتحرك على سطحها. في المرّة هذه كان المكتوب:

قبل القيامة بسبع سنوات

ولي عهد النمسا

سيُقتل بالسم

بعد قراءتي لها مباشرة قمت بالتواصل مع جواسيسي في فيينا. وحسب الخبر الذي وصلني منهم بعد عشرين يومًا كان ولي العهد ابن الست سنوات قد قتل بالسمّ حقًّا. ووفقًا لجواسيسي الذين حضروا مراسيم الجنازة بأنفسهم فقد كان يخيم على المدينة وجوم وحزن كبيران. بعد ذلك بدأت أفكر باحتمال أن تكون لهذه المرآة قدرة التكهّن بالمستقبل حقًّا، إلّا أنّ ما رأيته في السنة التالية جعلني أتيقن من ذلك؛ لأنّ في تلك السنة كان المكتوب: «قبل القيامة بخمس سنوات ستقوم ثورة في الأناضول». وقد تحققت التكهنات التي تلت تلك أيضًا. خسر

النرويجيون حربًا خاضوها مع البولونيين، وقضى حريق هائل على مدينة تبريز.

وبالطبع فإنّ تحقّق جميع التكهنات يؤكّد صدق الكهانة الأساسية. أجل، بقي القليل على يوم القيامة كما تعرف. فالآن مكتوب على المرآة أنّه قبل القيامة بسنة واحدة، وفي البدر السابع، سيخرج المهدي. بعد سنة من الآن سينتهي العالم. سيظهر المهدي وتخرج دابّة الأرض من تحت الأرض ويعاقب الآثمون وتجفّ المحاصيل وتغطي السماء سحب نارية وتُسجّر البحار ويموت كلّ طائر وماشٍ وسابح. ولن يبقى شيء من هذه الدنيا.

لذلك يا عزيزي عليك أن تعرف قيمة هذه الأيام. ما أحدّثك عنه لا يعرفه سوانا. ربّما ما زلت لا تصدقني وتظنّ بأنّي أخادعك. أنا لم أخبرك بذلك إلّا لمعرفتي بأنّك لن تصدّقني. ولو كنت تصدق كلّ ما يقال لك كما يفعل زولفيار لما أخبرتك بكلّ هذا طبعا».

قال بنيامين:

«من الصعب جدًا تصديق ما تقوله. ولكنّي مصمّم على الاستماع لك حتى النهاية سواء كان ما تقوله صحيحًا أم لا. أخبرني، ما علاقة مرآة الكهانة بالفراغ أو بالسرعة اللانهائية؟»

فأجاب وقد بدا متوقعا للسؤال:

«تعال معي إن أردت أن تعرف. سوف أطلعك على شيء».

دخلا إلى المكتبة وفتح أبرهة فيها دولابًا مقفلًا مخرجًا منه ورقة صغيرة الحجم، ثمّ أعطاها له. كان بالورقة رسم تخطيطي لخذروف هائل الحجم. كان

الخذروف الضخم بارتفاع ثلاثة أبواع، ويدور بواسطة مجموعة تروس تتحرك بانفجار البارود. تعجب بنيامين لمّا رأى رسم إنسان وسطه.

«خذروف جاهز للتدوير وبداخله إنسان. يا له من تصميم غريب. ولكن ما فائدته؟»

راح أبرهة يشرح:

«التصميم الذي أثار استغرابك هذا هو السبيل الوحيد لشخص يريد الهرب من يوم القيامة المقترب لأنّه يعرف أن لا أمل له في النجاة مع كلّ الذنوب والمعاصي التي راكمها طوال عشرات السنين. أعرف أنّ كلامي فيه كثير من الغموض. المشكلة هي أنّي أعاني في اختيار العبارات الملائمة للتعبير لأنّي لم أخبر أحدًا بالأمر من قبل. لنبدأ بالقيامة نفسها إن أردت. بعد قراءتي لما في المرآة تحصلت على جميع الكتب التي تتحدث عن يوم القيامة تقريبًا. قرأت ما كتبه الطبراني وأبو الشيخ وحافظ ابن حجر وابن مردويه وغيرهم. وعرفت منهم أنّ الشمس ستشرق من المغرب وأنّ الأرض ستتقيأ كنوزها وأحمالها بعد نشوب الحروب وانتشار الأوباء وتصبح مسطحة بعد نسف الجبال، وسيخرج المهدي ليحارب من هم أمثالي وستسوق نار عظيمة أشباهي من العُصاة نحو المحشر مكان الجمع الأكبر. ربّما لا يبدو لك كلامي معقولًا، ولكنّي عندما أدركت بأنّه لم يتبقّ لي في الدنيا سوى بضع سنوات، وبأنّي سأشقى بعدها في العذاب الأبدي بما اقترفته من معاصٍ، قرّرت البحث عن مهرب.

لو كانت المرآة عند أحد آخر، عند السلطان مثلًا، لتاب وكفّر عن ذنوبه بلا شك. لكنّي لم أتب لأنّ تفادي يوم القيامة ممكن. حتى الحياة الأبدية التي

يسعى للوصول إليها معظم الخيميائيين ممكنة رغم كلّ هذه الظروف الصعبة. الخذروف الذي تراه هو الجهاز الذي سينقذني من النهاية الكبرى. سأشرح لك كيف سيتحقّق ذلك، وبذلك ستفهم سبب سعيي للحصول على الفراغ.

ها أنا أخبرك أخيرًا بما تريد معرفته: الخذروف وسيلة للوصول إلى الحركة المعاكسة، التي لا بدّ من الحصول على الفراغ للوصول إليها. لا بدّ أنّ عقلك تشوّش، أليس كذلك؟ دعني أشرح. نحن نعتقد أنّ عكس الحركة هو الثبات والجمود. ولكنّي أعرف أنّ عكسها هو الحركة المعاكسة. سأعطيك مثالًا على ذلك: يخرج رجل في الساعة الثالثة من آيا صوفيا، وعند وصوله في الثالثة والربع إلى بايزيد يخطف نشّال صرّة نقوده. وعندما يصل إلى أقسراي في الثالثة والنصف يؤلم صداع خفيف رأسه، وأخيرًا يبلغ طوبقابي في الرابعة.

لكن إن افترضت في الساعة الرابعة أنّ الزمن يجري نحو الخلف فسيمكنك تصوّر الحركة المعاكسة. في هذه الحالة، وبينما يدور عقرب ساعته من الرابعة نحو الثالثة، تعود جميع خطواته نحو الوراء، من طوبقابي إلى آيا صوفيا، كلّ شيء كما هو تمامًا سوى أنّه يمشي نحو الخلف هذه المرة. عندما تكون الساعة الثالثة والنصف يصل إلى أقسراي ويتوقّف صداع رأسه. وحين يمرّ من بايزيد في الثالثة والربع يحشر النشال صرّة نقوده في حزامه، وأخيرًا يصل في الثالثة إلى آيا صوفيا. جميع ما حصل في الحركة الأولى حدث في الحركة الثانية التي انعكس فيها الزمن، ولكن بشكل معكوس. وهذا ما أدعوه بالحركة المعاكسة التي لا أرى أنّ بلوغها مستحيل وإن كان يبدو صعبًا. لأذكر لك مثالًا آخر إن أردت».

توقف عن الكلام وتناول قلمًا، ثمّ رسم ثلاث ساعات على ورقة ومدّها إلى بنيامين:

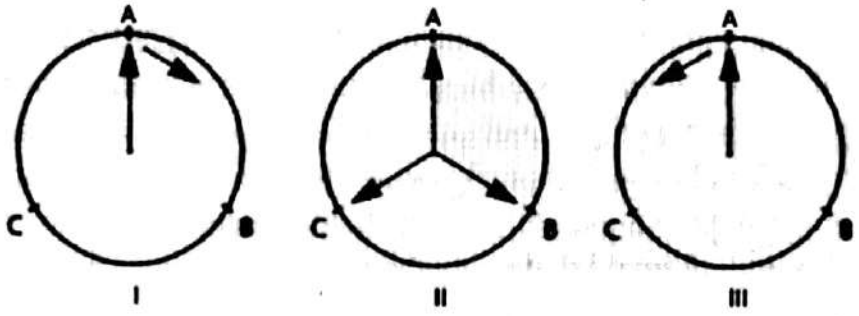

«ستفهم ما أعنيه بشكل أفضل من هذه الأشكال. الساعة الأولى تظهر حركة عقرب ساعة. يصل العقرب بعد حركته من النقطة أ إلى النقطة ب في عشرين دقيقة، ومنها إلى النقطة ج في عشرين دقيقة أخرى، بحيث تستغرقه العودة إلى النقطة أ من جديد 60 دقيقة.

لنفرض الآن أنّ سرعة العقرب ازدادت وأصبح يتمّ دورته في 6 دقائق مثلًا بدلًا من 60. وإذا زادت سرعته أكثر، لو بلغ سرعة رصاصة منطلقة من فوهة مسدس مثلًا، فسنظن العقرب موجودًا في النقاط أ و ب و ج جميعها في نفس الوقت. يظنّ بعض الجنود القنّاصون أنّ أعدائهم يموتون بمجرد ضغطهم على الزناد. بينما الحقيقة أنّ وقت الضغط على الزناد ووقت اختراق الرصاصة للجسم ليسا متزامنين. فالرصاصة لا تنطلق بسرعة لانهائية.

لكن دعنا نتخيل أنّ العقرب بلغ السرعة اللانهائية. عندها وكما قال أرسطو طاليس فإنّ الجسم المنطلق بهذه السرعة يقطع أيّ مسافة في زمن يقارب الصفر. أي أنّ العقرب يصل إلى أ و ب و ج ثم يعود إلى أ، وكل ذلك في زمن يقارب الصفر. ومن هذا نخرج بالنتيجة المرعبة أنّه إذا بلغ العقرب السرعة اللانهائية فإنه يتواجد في النقاط أ و ب و ج في نفس اللحظة.

لنعد للمثال الأول، إذا تحرك الرجل الخارج من آيا صوفيا بسرعة لانهائية، فإنّه سيكون موجودًا في آيا صوفيا وطوبقابي في نفس الوقت. لكن دعنا نكمل التفكير بمثال الساعة. إذا عرّفنا الحركة بأنّها «التغير في حالة شيء ما» كتحوّل شيء أحمر إلى أخضر، أو وصول شخص من آيا صوفيا إلى طوبقابي، فسنصل إلى نتائج أكثر رعبًا. لننظر إذا ما كان هنالك «تغير في حالة» الساعة التي يتحرك عقربها بسرعة لانهائية. أيتحرك يا ترى، أم لا يتحرك؟ كان العقرب قبل قليل في أ، لكنّه ما زال في أ، كما كان في ب وما زال فيها، وينطبق الأمر نفسه على ج. هذا يعني أنّه لا وجود لتغيّر في حالته. إذن هل يمكن أن نقول عن شيء لا يحصل تغيّر في حالته بأنّه يتحرّك؟ كلا! إذن فيمكننا عند بلوغ العقرب لسرعته اللانهائية القول بأنّ الساعة توقفت. وإذا لم تعد بها حركة فلا وجود للزمن. فالزمن غير ممكن من دون حركة.

لننظر الآن إلى الساعة الثالثة ولنتخيل بلوغ العقرب لسرعة تفوق السرعة اللانهائية. السرعة اللانهائية كانت تجعل العقرب يتواجد في ثلاث نقاط بنفس الوقت، ويوقف من عمل الساعة. أمّا السرعة الأعلى من تلك فتتسبب بحدوث الحركة المعاكسة، لا مجرّد إيقافها. في هذه الحال يدور العقرب في الاتجاه المعاكس، وعندها تحدث الحركة المعاكسة التي أسعى إليها، ويسير الزمن في شكل عكسي.

أجل يا صديقي العزيز، بذلك تكون قد فهمت إمكانية السفر عكس الزمن لشخص يكون بداخل خذروف يدور بسرعة فوق لانهائية ينجو بها من النهاية الكبرى القريبة التي تنتظر أمثاله من الآثمين. لأنّ الخذروف الذي رأيت تصاميمه سيصل للسرعة التي أريدها بما أنّه يتحرك في الفراغ. لذا فإنّ من يكون بداخله

سيتمكن من السفر عبر الزمن نحو الماضي. وقد يعود إلى الأيام الماضية الجميلة وإلى ما يسبق القيامة -التي ستقوم قريبًا- بكثير».

لم يكن عقل بنيامين يستوعب ما يقوله أبرهة. فمعنى كلامه أنّ جميع رجال جهاز الاستخبارات الهمايونية -فيما عداه- كانوا يعملون من أجل جعل السفر عبر الزمن ممكنًا من دون أن يعرفوا. صحيح أنّه وجد ما قاله بشأن الحركة المعاكسة منطقيًا، لكنّه ما زال يظن بأنّه يخادعه ويشرح له ما لا يمكن فهمه بشيء أعسر على الفهم منه كما يقتضي ذلك دستور الكيمياء. فقد ادّعى له أنّه يسعى للفراغ ليمنع مقاومة الوسط ويتمكن من الوصول إلى السرعة اللانهائية التي هي شرط أولي لبلوغ الحركة المعاكسة التي تجعل من شيء أكثر تعسّرًا على الفهم، ألا وهو السفر نحو الماضي، ممكنًا. وبينما كان بنيامين يحاول استيعاب ما قيل أخبره أبرهة أنّ الفراغ شيء مادي نادر موجود في الدنيا بمقدار «عملة» يُمكن الإكثار منها عن طريق استعمالها كـ «خميرة» واستخدامها في بلوغ الخذروف للسرعة فوق اللانهائية. يقول أنّه كما تُضاعف المرايا من أعداد الأجسام، فإنّه بفضل الخارصين الذي يعطى المرايا بريقها، والذي هو من العناصر السبعة الأوليّة، فإنّه يمكن بواسطة عملية كيميائية مضاعفة حجم الفراغ. كان الرضى ظاهرًا على وجه أبرهة وهو يرى اختلاط الأمور وتشوّشها في عقل بنيامين. فقطع كلامه قائلا:

«والآن أنت تعرف كلّ شيء. هل لديك ما تسأله؟»

توقف عقل بنيامين عن التفكير وشعر كأنّه محشور في مكبس ضغط. وازداد شعوره بقلّة الحيلة والعجز لأنّ عقله المشلول لم يعد يقدّم له أي حلول. مع ذلك كان في قلبه ذلك الشعور الغريب الذي غمره منذ ليلة البارحة. كما لم تكن آغلايا

تفارق عقله. فقال لأبرهة:

«أجل، عندي لك سؤال. أين آغلايا، إحدى الفتاتين اللتين اشتريتهما؟»

فتجهّم وجه أبرهة على الفور.

موتى وأبطال

في الوقت الذي كان فيه أبرهة يتلذذ بتلك الإهانة ويصطلي بنارها في نفس الوقت أثناء انتظاره لقدوم المخلّص الأكبر الذي يدخل من باب المدينة الغربي في البدر السابع قبل يوم الحساب بسنة واحدة كما تشير مرآة الكهانة، ذلك المهدي المنقذ الذي يعرف أوصافه الشريفة جميع العلماء، والذي هو من علامات الساعة البضع والسبعين، والذي سيقاتل الدجّال ومن اجتمع تحت رايته من الكفرة والمفتونين وينتصر عليهم، والذي يذكر القرطبي في تذكرته بأنّه سيخرج من الولايات الغربية، كانت القسطنطينية ترتجّ لخبر يشلّ العقول(121) .

كان القراصنة يهمسون للغليونجية أنّ رجلا مقلوع العينين ومقطوع الأنف والأذنين كان يمسك بدفّة السفن ذات الصواري الأربعة ويقودها من أكثر الممرّات خطورة وامتلاء بالصخور وفوق أكثر المياه التي تلعب فيها ثعابين البحر ضحالة، رغم أنّه لا يرى أو يسمع. وكان الغليونجية يقولون لعمّال المرسى وحمّالي العصي(122) وكأنّهم يبوحون لهم بسرّ أنّ نفس الرجل ورغم عماه وصممه يستطيع تحديد مواقع جميع النجوم والكواكب في قبّة السماء ويرشد السفن بلا بوصلة نحو جزر ملأى بالكنوز والوحوش العطشى للدماء دون النظر لخريطة، وكأنّه حافظ للطرق من قبل. كان عمال المرسى والحمّالون بدورهم يهرعون بمجرد سماعهم بالأسطورة إلى الحانات ليطّلعوا فيها على التفاصيل، ثمّ يحكون ما سمعوه للقراصنة المذهولين.

أصبح هذا الرجل -الذي يعرف رغم عماه أماكن المشتري وزحل وعطارد والسرطان والجوزاء والعقرب والأجسام السماوية الأخرى في أيّ ساعة من

ساعات اليوم ويسمع رغم صممه همسات ثورات البحّارة، وصوت مسمار يتحرك مكانه في صدر السفينة، وطقطقة ديك(123) سلاح العدو- فجأة موضوع الحديث المفضّل في حانات غلاطة.

لمّا أخبر قراصنة الجزائر طبّالي سفن القادس وأخبر أولئك بدورهم غواصي سفن باركالونغا(124) ونقل أولئك الخبر لمصلحي البوصلات بأنّ هذا المستكشف الأعمى والأصم كان متوجّهًا إلى القسطنطينية من أقصى العالم مستكشفًا القارّات في طريقه، رتّبوا له تجهيزات استقبال متواضعة.

أُخرجت خمور مسكت وبوزجا أضه من المخازن. وأُنزلت من الأرفف بوصلات مشبوهة وخرائط كنوز غير موثوقة من أجل عرضها عليه. وكُتبت في الليلة السابقة على الأوراق تحت أنوار الشموع أسئلة متعلقة بالطرق المأمونة والبلدان المجهولة وحكايات المغامرات المشكوك بها.

وعندما حلّ الصبح توافد الأهالي إلى مرسى غلاطة وأخذوا يتحرّون وصول المستكشف في فضول كبير. وعندما حلّ وقت الظهر من دون أن تأتي السفينة المرتقبة انصرف أقلّهم صبرًا. أمّا أكثرهم عزمًا فقد اضطروا للحاق بصلاة المغرب عندما رأوا أنّ الظلام حلّ ولم يظهر للسفينة أثر بعد. أخيرًا بقي المرسى خاليا بعدما رأى أشدّهم فضولًا الحانات تُفتح فراحوا يبحثون عن ندمائهم فيها.

أثناء أداء سكان القسطنطينية لصلاة العشاء في المساجد اقتربت من المرسى الخالي سفينة حالكة السواد تحمل على جسمها آثار مئات العواصف وما لا يحصى من الثورات والرصاصات والرماح، ونزل منها بأسماله وبقجته رجل أعمى أصم. كان كما تقول الأسطورة مقلوع العينين مقطوع الأذنين مشروم الأنف.

راح هذا الرجل الذي يرى النجوم من دون عين ولا منظار ولا إسطرلاب يمشي في أزقة غلاطة من دون حاجة لمن يرشده وكأنّه يستطيع الرؤية. وبعد أن توقّف لمدّة في الأرض الخلاء المجاورة لخان الشراعيين المتبقية ممّا كان يومًا بيته هو وابنه، دخل إلى أقرب حانة.

وقد صادف أن كان بالحانة ساحر يؤدّي عرضًا أمام المتواجدين. كان يجلس وعيناه معصوبتان بينما يرفع صبيّه أمامه أنواع الأشياء التي يأخذها من معاقري الشراب من قداحات وعلب أفيون ومنقورات ومسابح وغيرها ويسأله عنها، فيجيب بدوره إجابات صحيحة على جميع الأسئلة. وقد أثار ذلك ذهول وإعجاب أهل الكيف.

لكنّ المستكشف الذي كان يراقبهم أفسد العرض وقال مخاطبًا جميع من بالحانة أنّ ذلك لم يكن سحرًا، لأنّ مجموع الأشياء التي يحملها الجميع في جيوبهم لا يتعدى الخمسة عشر، وأنّهم لو دقّقوا الملاحظة لوجدوا أنّ الصبيّ يوجّه السؤال نفسه للساحر بخمس عشرة طريقة مختلفة. فعندما يسأل عن قداحة مثلًا يقول «ما هذا؟»، و«طيب ما هذا؟» عند السؤال عن السبحة، أمّا إذا كان ما بيده علبة أفيون فيقول «قل لي ما هذا إذن؟».

تعجّب الحاضرون هذه المرة لا ممّا فعله الساحر، بل من رؤية وحدس هذا الذي عرّف عن نفسه بأنّه أعمى أصمّ اسمه إحسان أفندي الطويل لكلّ ما كان يجري. والذي كان فوق ذلك يدّعي بكل جرأة أنّه لا يرى ولا يسمع، ويخبرهم أنّ الأمر مختلف عمّا يظنّونه، ممّا جعلهم يجنّون من الفضول.

ولمّا أحاطوا به وطالبوه بتفسير يوضّح زادهم ما قاله حيرة فوق حيرتهم.

كان يقول أنّه يعرف بكلّ شيء رغم عجزه عن السماع والرؤية، لأنّ كل شيء، أي الساحر والصبي والشراب المشروب في الحانة وجميع من يسكرون به وغلاطة والقسطنطينية بمن فيها، بل وكلّ العالم أيضًا، ما هو إلّا نتيجة لتفكيره. وما هذه الحانة والقهقهات فيها سوى أفكار محضة في ذهنه. وفي حال توقّف فرضًا لا سمح الله عن التفكير في الساقي الذي يقدّم لهم الشراب فسيختفي المسكين. فالساقي والساحر وغلاطة والقسطنطينية موجودون لأنّه كان يفكّر بهم. وهذا يوضح أكبر أغلاط رندكار: فلا بدّ أن يعتبر كونه يفكّر دليلًا على وجود هذا العالم الذي هو نتاج أفكاره، لا على وجوده هو. لهذا السبب كان يقول بين كلّ حين وآخر مشوشًا عقولهم:

«لست أنا الموجود لأنّي أفكر، بل أنتم. أنتم أفكار في عقلي».

استغرق من بالحانة بالضحك على ما يقوله لدرجة أنّ المارّين من الطريق فتحوا الباب لمّا سمعوا القهقهات وأخذوا يحملقون في المخمورين متسائلين ما إذا كان يوجد حكواتي بالداخل. ولمّا أخبرهم رجل تدور عيناه في محجريها كعيون النمس بالأمر وكأنّه يبوح بسرّ راحوا يبحثون عن مكان للجلوس فورًا. وبذلك بلغت الإثارة في الحانة ذروتها.

وبينما كانوا يردّدون ضاحكين: «يا للعجب! يعني هذا أنّنا مجرّد أفكار في عقل إحسان أفندي الطويل. ممّا يعني أنّ هذا الرجل هو المسؤول عن كلّ بلوى حصلت لنا بما أنّه يتحكم بكلّ ما يجري بعقله»، كان الأعمى الأصمّ صامتًا في عناد.

أثناء ذلك قام رجل على وشك أن يفقد عقله من الضحك والدموع تسيل من

عينيه بالتوجّه إلى إنكشاري سمين يغفو مستندًا على الجدار وصفعه ضربة معتبرة على قفاه. فأفاق الإنكشاري غاضبًا ممسكًا بخنجره، فقال له الرجل: «لا تغضب منّي يا آغا! لست أنا من لطمك على قفاك. فأنا لست إلّا فكرة في عقل إحسان أفندي الطويل. أنت أيضًا كذلك. ما من شيء يحدث إلّا وهو المتسبّب فيه. وهذا يعني أنّه هو من لطمك. والآن مع إذنكم، أنا ذاهب!» فتفجّر المكان بطوفان من الضحكات.

بيد أنه عندما باشر أكبرهم سنًا وأشدّهم تحمّلًا للشراب -والذي يكون بذلك أحكم أهل الكيف- بسرد حكاية تناسب هذا الموضوع تمامًا، هدأ الجميع. كانت تلك حكاية الطفل التعيس. حسب ما يقول، أخبر الكهنة في أحد الأزمان السالفة سلطان بلاد بعيدة جدًا أنّ بلاده تواجه تهديدًا جسيمًا. وقد كان ذلك التهديد طفلًا سيولد بعد عام يتحوّل كلّ ما يتخيله إلى حقيقة في لحظة. فلو تخيّل مثلا أنّ جميع بيوت العاصمة من ذهب، فستستحيل البيوت ذهبًا حقًّا. أمّا لو فكّر بأنّ السلطان فقير مثلًا، فإنّ القصور والأواوين والديباجات والذهب ستختفي فجأة ويبقى السلطان بلا مال ولا ملك. ولا يمكن قتل الطفل بمجرد ولادته، لأنّ القَدَر كان قد كُتب. وفي حال لم يفكّر بشيء فلا الدنيا ولا هم سيستمرون بالوجود لعدم تفكيره بهم.

فزع السلطان وأمر بالعثور على الطفل. وبعد أن عثروا عليه راح تسعة وتسعون عالمًا متخصّصًا في واحد وأربعين علمًا يعلّمونه كلّ ما هو حقيقيّ حتى لا يفكّر بشيء سواه، لكن منع الطفل من التخيّل جعله تعيسًا. رأى حكيم هرم أنّ الدولة تعيسة بتعاسة الطفل، فتوصّل بعد تفكير طويل دام أيامًا إلى حلّ يرخص فيه للطفل بأن يتخيّل أنّ الناس يتخيلون، لأنّ التخيّل ممنوع عليه هو فقط

وليس الناس.

أنهى صاحب الكيف المسنّ حكايته قائلًا أنّ كل ما يراه بني آدم من أحلام وينسجونه من خيالات هي من نتاج خيال ذلك الطفل التعيس، فالتفت من بالحانة لا إراديًا نحو مكان جلوس إحسان أفندي الطويل. ولكنّه كان قد رحل عن المكان. بحثوا عنه طوال الليل من أجل أن يتبعوه ويسخروا منه، ولكنّهم لم يجدوه. فلم يخطر على بالهم أن يبحثوا عنه في حطام السفينة المهجورة بالقرب من مصنع السفن.

كان إحسان أفندي الطويل يتجوّل وسط الحطام، ويتفحّص الصناديق التي تركها أفراسياب وجنوده الأبطال عند رحيلهم عن هنا قبل أسابيع. كانت آثار الاشتباك الذي دار عند مداهمة رئيس العسس للمكان في منتصف الليل لم تُمح بعد. كريات الطين مسحوقة وألعاب البهلوان مفلوقة والخشخيشات مكسورة. وما زال من الممكن رؤية بقع دم على الأرضية الخشبية المتحلّلة. كانت تمكن رؤية آثار الأسلحة الحقيقيّة هنا، والتي كانت النتيجة المحتومة للنهب والسطو الذي قام به الأطفال في المدينة طوال عدة أشهر. أضحى المكان خاليًا بعد أن كانت تتردّد فيه أهازيج الأطفال.

كان عددهم قد تناقص تدريجيًا حتى أصبح اثني عشر طفلًا مع عليبان، وذلك بسبب المسدسات العتيقة التي كانوا يشترونها من سوق البراغيث ثمّ يصلحونا ويشعلون فتيلها، وأيضًا بسبب خطفهم لمشامل الإنكشاريين الثملين من أغمادها في أول فرصة يغنمونها.

لاحظ إحسان أفندي الطويل وسط هذه الفوضى أثرًا مألوفًا. كانت آثار يد

عليباز الحمراء تبدأ على الأرضية الخشبية وتنتهي عند إحدى النوافذ. يبدو أنّه أصيب في مداهمة رئيس العسس وزحف بيده الجريحة حتى بلغ النافذة ثمّ قفز منها إلى البحر وهرب. لأنّه كان أفراسياب. وفي هذه اللحظة التي بدأ فيها أذان الفجر لا بدّ أنّه على وشك الوصول إلى هناك.

***

أجل، إنّه أفراسياب. والراية التي أقسم عندها وطبع عليها يده بالحبر الأحمر ما زالت في صديريته. منذ ما يقارب الستة أسابيع وهو يتتبّع الجيش الهمايوني الذي كان يزحف نحو مكان الشيطان في الشمال. ولأنّ مسدسه كان ثقيلًا عليه ألقى به في أحد القرى وهو يبكي. أمّا المشمل ذو الآيات الكريمة، ذِكرى إحسان العربي، فما زال في خاصرته.

كان قبل أسبوع فقط وقبل أن تُفتح المدن وتُغنم الثروات قد لحق بالجيش الهمايوني، ولكنّه لم يلق استقبالًا حسنًا كما توقّع. بل إنّهم صفعوه حتى يكفّ عن إزعاجهم بالمشي عند أقدامهم وسلّموه إلى أحد الجنود. لكنّه تمكن من الهرب قبل أن يزول أثر الصفعة. وقرر أنّه من الأفضل له أن يتعقّبهم من على مسافة نصف يوم.

أخيرًا وصل الجيش الهمايوني في أحد الأيام إلى قبالة قلعة نجمية الشكل ترفرف على أبراجها الشمالية رايات سوداء، وتبدو أنّها ستكون عصية على الفتح. وبينما كانت خطّة الحصار تُجهّز في نفس اليوم وقبل أن يخيم الظلام، كان الإنكشاريون والمارتالوز(125) والمجانين(126) والفدائيين والسباهيين(127) والشوربجيين(128) والأوضة باشية(129) ووكلاء

الخرج والبيرقدارية(130) والباش إسكية(131) والقرة قولوقجية(132) يتراكضون يمنة ويسرة؛ بينما كان قادة الزغرجي باشية(133) والصاكسونجية(134) والتفكجية(135) والزمبركجية(136) والعديد من الضباط الآخرين يلقون بالأوامر تلو الأخرى.

كانت الأنفاق تُحفر وتفرغ التربة منها بالسلال. وتتكون من التربة تلال ارتفاعها ثلاثون باعًا. وكانت مدافع القولومبورنه ذات رؤوس التنانين تُلقّع بقطع القماش بعد ترطيبها ببخار الأنفاس.

لمّا حلّ الظلام كانت استعدادات الحصار على وشك الانتهاء ولم يتبقّ سوى شحذ السيوف. في منتصف الليل خُيّل لمن كانوا بالقلعة عندما نظروا إلى مقرّ الجيش الهمايوني أنّهم رأوا عددًا لا يحصى من النجوم على الأرض. لأنّ الأضواء الوحيدة في تلك الليلة المعتمة كانت تصدر من الشرارات المتطايرة من حجارة شحذ السيوف التي تدور بدوّاسة القدم.

لم يرغب الكفار لأعدائهم بأن يتفوّقوا عليهم في ذلك فقاموا بحشو مدافع الشاهي(137) والقولومبورنه(138) والضربة زن(139) والبال يماز(140) بالسلاسل والرصاصات والمسامير وقطع الزجاج بدلًا من القذائف وراحوا يشعلونها واحدة تلو الأخرى. وبعدما استهلكوا حمل عشرين بغلة من البارود على ذلك الاستعراض العبثي طلع الصبح. عندها أطلق الجيش الهمايوني قذيفة مدفع شاهي ضربة زن تزن أربعة عشرة أوقية على الأسوار.

رأى علیباز الذي كان يريد أن يكون أوّل من يدخل القلعة الفتحة الكبيرة التي تسبّبت بها قذيفة المدفع في السور فراح يرتعد. لقد أرهبته القوة الشيطانية التي

لم يشهدها من قبل لمدفع ضربة زن واحدٍ وجعلت أسنانه تصطك من الرعب. فجأة تذكر أنّه لم يكن أفراسياب، بل عليباز، ذلك الطفل الذي لا يستطيع النوم.

راح يركض وهو يبكي ويطلب النجدة عندما راحت البنادق تتوالى بإطلاق رصاصاتها التي كانت تؤزّ في الهواء وتصدر أصوات فرقعة تفوق بأضعاف ضجيج مفرقعات العيد. وكاد أن يفقد عقله لمّا انفجرت بجانبه قنبلةٌ مقذوفة من القلعة فقفز إلى الخنادق وراح يجري كالمجنون وهو يبكي ويصرخ دون أن يعرف إلى أين يذهب.

استمرّ بالجري إلى هناك ودموعه تسيل دون توقف ووجد نفسه أسفل أسوار القلعة فجلس منهارًا هناك واستمر يبكي لمدّة. لكنّه أدرك أن عليه أن يبتعد عن المكان لمّا اصطدمت بالسور رصاصات المسدسات الفتيلية وبنادق القربينة والمسكت المنطلقة بشكل كثيف من التحصينات.

كانت الفتحة التي تسبّبت بها قذيفة الشاهي ضربة زن فوقه تمامًا. فتسلّق ودخل منها ووجد نفسه وجهًا لوجه مع من كانوا يحاولون سدّ الفتحة بأكياس الرمل. إلّا أنّ معظمهم تساقطوا بنيران بنادق قربينة متزامنة انطلقت من التحصينات. فانطلق يجري إلى داخل القلعة.

كان المكان يبدو أكثر أمنًا للوقت الحالي. راح يجري بشكل عشوائي دون أن يحدّد وجهته. لكنّه كان ذاهبًا إلى هناك بالتأكيد. استمرّ بالركض نحو الشمال قافزًا ومتجاوزًا للسلاسل الممدودة في المنعطفات لإعاقة من يتمكن من الدخول من خيالة العدو. ولمّا رفع رأسه رأى الرايات السوداء. كان من المستبعد للناس المذعورين الذين كانوا يتراكضون هنا وهناك أن يلاحظوا وجوده. إلّا أنّه خاف

من ملابسهم الغريبة التي لم يرها من قبل، فدخل إلى هناك.

كان داخل المبنى الذي كان سقفه عاليًا كالمعابد شديد الهدوء على عكس الخارج. وكان يتردّد فيه صدى خافت لنشيد ديني. اتّجه عليباز نحو مكان صدور الصوت، ورأى عددًا كبيرًا من الرجال المتشحين بالسواد يترنّمون بأنشودة كئيبة.

كانوا يدفعون برجل عار مصفّد اليدين نحو نِصفَي كرة من البرونز كانتا على الأرض وقطر الواحدة منها باع واحد. قام بعضهم برفع النصفين بشقّ الأنفس ولصقهما ببعضهما لتصبحا كرة. كان في وسط هذه الكرة العملاقة فتحة وعلى يمينها وشمالها صمّامان اثنان. كان البعض يربطون مضخّة بكلّ صمّام حتى يفرغوا الكرة من الهواء بينما كان الآخرون يسندون الكرة بأيديهم حتى لا تنفلق. وقد استغرق ما يفعلونه زمنًا طويلًا. وأخيرًا، التصق نصفا الكرة ببعضيهما بسبب الفراغ داخلها.

بعد ذلك حلّ مكان خوف عليباز فضول لمّا رآهم يربطون الرجل العاري بالكرة بحيث تلتصق بطنه بالفتحة. كانوا قد دهنوا بطنه بالزيت وألصقوها بأنبوب الفتحة بإحكام بواسطة كلّاب. وبعد أن أحكموا ربط يديه وقدميه بالحبال راحوا يترنّمون بالأنشودة بصوت أخفض من قبل.

في النهاية قام من يبدو بأنّه رئيسهم بفتح الصمّام فأطلق الرجل صرخة ألم وانفصل النصفان عن بعضهما متدحرجين على الأرضية الصخرية الباردة فورًا، وهتف متشحو السواد «فيرتوس فاكوي(141)!». كان نصفا الكرتين ممتلئين بالدم وقطع اللحم. لأنّ الفراغ بداخل الكرة شفط بواسطة الفتحة المربوطة ببطن الرجل دمه وأمعاءه وأعضاءه الداخلية.

أخذ عليباز يبكي من الفزع. فقد شعر بأنّه محاصر من كلّ جهة. وبينما كانت دموعه تسيل وحنكه يطقطق من الخوف لمست يدٌ ظهره فكاد قلبه أن يتوقف. أراد أن يهرب لكن لم تبق بركبتيه أيّ قوة. أمسكت اليد التي لمست ظهره بذراعه هذه المرة ورفعته عن الأرض. وعندما تشجّع على رفع رأسه رأى أحد الرجال المتشحين بالسواد يبتسم ويلتمع في عينيه الزرقاوين بريق شيطاني.

أخذ الرجل عليباز إلى الرجال الآخرين الذين لم يبد أيٌّ منهم متفاجئًا لمّا رأوه. ذهب الرجال الذين أصبحوا يتحدثون همسًا بدلًا من الضجيج الذي كان قبل قليل بعليباز إلى غرفة ضيّقة كئيبة كان بها الكثير من زجاجات المحاليل الكيميائية. تناول أحدهم من بينها وعاء مليئًا بمسحوق أسود ووضع منه مقدار ملعقتين أو ثلاث في كوب ماء. كان يكفي أن يضع أقلّ من ذلك في الحقيقة. فخُمس ما وضعه يكفي لقتل الطفل بما أنّ ملعقة من هذا المسحوق تكفي لصرع ثور. ولمّا مدّ الرجل البشوش السمّ إلى عليباز لم يرغب الطفل الذي كان ظمآنًا أن يعكّر عرض الصداقة هذه فشرب ما بالكوب من سائل حتى نهايته.

وقد فسّر تركه إياه يخرج من ذلك المكان المرعب أيضا كتكملة لعرض الصداقة ذاك. ولكن حصل عندها شيء غريب؛ فقد بدأ هذا الطفل الذي لم ينم دقيقة في حياته يلاحظ أشياء لم يشعر بها من قبل. بينما كان يمشي في أزقة القلعة الضيقة وسط تلك المعمعة وبين الصرخات والهتافات وأصوات البنادق والمدافع كان يقاوم ثقل جفنيه ويتثاءب باستمرار. أخيرًا غلبه نعاس النوم الذي انتظره لسنوات. ولمّا لم يعد يستطيع مقاومة إغماض جفنيه أخذ يبحث عن مكان مريح ينكفئ فيه لينام. وأخيرًا رأى قمة إحدى الأشجار مناسبة فتسلقها وهو يغالب نعاسه ويتثاءب. وعند بلوغه للقمة كانت عينه على وشك أن تغمض

تمامًا. من حظه أنّ عشّ لقلق كان في القمّة. كانت اللقلق الأم قد قُتلت برصاصة طائشة ذلك الصباح. فاستلقى وسط العش فوق البيض في وضعية منحنية وغطّ في نوم عميق.

بعد مرور أيام فقس البيض بتأثير حرارة جسده وكبرت الفراخ بأكل فتات البقسماط وحبات اللوز والسكاكر والكزبرة في جيبه. وعندما تعلمت الطيران هاجرت نحو الجنوب. ولمّا حلّ الربيع وعادت للعش الذي فقست فيه وجدت الطفل ما يزال نائمًا فيه، فباضت في العش من دون مقاطعة أحلامه المسترسلة، وشدّدت بتحذير النسل الجديد من إيقاظه من نومه العميق.

***

بينما كانت صورة المهدي -المخلص الأكبر الذي سيدخل إلى المدينة في البدر السابع من تلك السنة- التي رُسمت بناء على أوصافه تُتداول من يد إلى يد في مركز الاستخبارات، كان بنيامين يفكر في آغلايا فقط. كان يسعى بشتّى الطرق لأن يتخلص من ذكراها في عقله لمعرفته بأنّه لن يراها مرة أخرى، لكن تلك الطرق كانت تقوده إلى أماكن مختلفة: فعندما فكر مثلا بالآلات العجيبة الموجودة بالمركز تشوّش ذهنه واختلطت عليه الأمور.

تفحّص في البداية بفضول علب التبغ التي كانت تطلق أسهما صغيرة مسمومة وأدوات التعذيب المحمولة والمسدسات ذات الستّ سبطانات. كان يفعل كلّ ذلك دون أن يواجه أي عقبة أو منع ويدخل ويخرج من وإلى أي مكان يريده. فلا خوف من إفشائه بأسرار الاستخبارات مثلا لأنّه يعيش هنا ما يشبه حياة السجن. ولأنّ خروجه من المكان كان ممنوعًا منعًا باتًّا.

كانت آلات التخابر التي تستخدمها الاستخبارات في التواصل قد أثارت دهشته كثيرًا. والتي كان أبرزها الطائرات الورقية التي يتغيّر لونها وأنواع الألواح التي تصدر عند احتراقها ألوانًا مختلفة من الدخان والمزامير التي تصدر أصواتًا لا تلتقطها أذن الإنسان ولا تستجيب لها سوى الخفافيش المحبوسة في الأقفاص.

لكنّ أكثر شيء شدّ انتباهه بينها كان آلة مخصصّة للتنصّت من وراء الحيطان. كانت ببساطة عبارة عن أنبوب مرن مصنوع من أمعاء حيوانية على شكل حرف Y. يلصق أحد أطرافه بالحائط، ويربط الطرفان الآخران بالأذنين بواسطة زنبرك، حينها يمكن سماع المحادثات خلف الحائط بكلّ سهولة. وضع بنيامين آلة التنصّت وسط قميصه حتّى يتأكّد ممّا إذا كان هنالك من يراقبه.

كان هدفه أن يجمع معلوماتٍ عن أبرهة. لكن لم يبد أنّ آغلايا كانت ستفارق تفكيره. لذلك قرّر أن يكتب لها شعرًا. كتب ستة أبيات تعبّر عن غرامه وهيامه على وزن العروض، وفي الأيام التالية أعاد كتابتها مرات ومرات مصفّيًا إيّاها من أيّ شيء عدا العشق والغرام. ولكن محاولاته فشلت في ضبط القافية لعجزه عن إطالة مقطع بيت ما، أو الانتقال من فعلن إلى فاعلن.

لمّا فتح الكيس من أجل أن ينهي كتابتها قبل ثلاثة أيام من البدر السابع، وجد أنّ أحدهم قد فتّش أوراقه. كما أنّه فوق ذلك عدّل له شعره وضبط له فاعلن بإضافة ألِف إلى البيت. أدرك فورًا أنّ أبرهة هو الفاعل. لكنّه لم يلحظ دموع حسده وغيرته التي جفّت على ورقة الشعر.

جنّ جنونه لإخلاله بخصوصيته بهذه الطريقة، وفقد ثقته به. أصبح يفكّر أنّ

كلّ ما يفعله مُتوقع، وجميع ما يصادفه مخطّط له من قبل، وأنّ ما يظنّ أنّه يدبّره بسرّية مفضوح في الحقيقة.

كما كان موقنًا أنّهم كانوا يثيرون فضوله بشأن مواضيع معيّنة ثمّ يلقنونه معلومات خاطئة عنها في إدامة لمسرحية ذات مصداقية مخيفة لا يستوعبها عقل، جاعلينه يتوصّل بنفسه إلى ما يريدون له أن يعرف.

على الأغلب أنّهم يعرفون بسرقته لآلة التنصّت كذلك. ولا بدّ أنّ الهمهمات التي كانت تصدر من غرفة أبرهة المجاورة كانت مدروسة كذلك. منذ أيام وهو يمتنع في عناد عن الاقتراب من الحائط والتنصّت لحلّ لغز تلك الهمهمات. لكنّ فضوله تغلّب عليه في الليلة السابقة لبدر السنة السابع. فوضع الآلة على أذنيه وألصق طرفها بالحائط.

تعرّف على صوت أبرهة فورًا. كان كأنّه يروي حكاية. فراح يستمع للحكاية مع أنّه يعرف أنّها ستجلب له النعاس:

«في زمن ما، كان يعيش في إحدى القرى رجل اشتهر في الأرجاء بجهله. في يوم من الأيام راوده سؤال لم يعرف له جوابًا، فعزف عن الطعام والشراب. كان يحيّره أشدّ الحيرة أنّه كان يرى الدنيا عندما يفتح عينيه، والظلام عندما يغمضها. لذا راح يفكّر ويتأمل لأيام وليال بعقله الجاهل. وتوصّل في النهاية إلى أنّ الظلام أيضًا شيء يمكن رؤيته. وتيقّن من رأيه لمّا وقع بين يديه كتاب حكيم قديم يقول فيه أنّ الموتى يحسّون بالظلام والصمت والعدم. وحسب ما يقول، فإنّه وكما لا يمكن للموتى رؤية النور، فإنّ الأحياء كذلك لا يمكنهم رؤية الظلام بالدرجة التي يمكن للموتى رؤيته بها. وبما أنّ النوم شقيق الموت،

فإنّ النائم يمكنه رؤية الظلام بشكل أفضل بكثير ممّن يكتفي بإغماض عينيه فقط مثلًا. لذلك راح الجاهل يبحث عن الشيء الذي يراه حين يغمض عينيه. ووجد أنّ في الظلام الذي يراه عندما يغمض عينيه عدد لا يحصى من الخيالات والأفكار(142). ولكنّه طمع بالمزيد لأنّه لا يقنع بما يحصل عليه. فأخرج من الأرض جرّة عملات النحاسية كان قد دفنها في زمن سابق. حمل الجرّة الثمينة تحت إبطه وطرق باب حكيم يشتغل بالعلوم الخفية، وسأله عن كنه الظلام الذي يراه عندما يغمض عينيه. وسواء كان صحيحًا أم خاطئًا، فقد قال له الحكيم:

«إنّه لسؤال ذكي لا يُتوقع من رجل اشتهر بجهله في الآفاق مثلك. لذلك سأكافئك بعدم ترك سؤالك دون جواب، أنصت لي جيّدًا: كما أنّ الجبة التي عليك جاءت من الصوف، فإنّ الموسيقى كذلك جاءت من الصمت. وبنفس المنطق، فإنّ العالم الذي تعيش فيه كذلك مخلوق من العدم. ولكن زادت بعد الخلق قطعة من الفراغ، الذي هو الاسم المرادف للعدم. وقد فُصِلت تلك الفضلة إلى نصفين وؤهبت لك على شكل لوح فارغ. وذلك الظلام الذي تراه هو هذا اللوح الفارغ. ولأنّه فارغ فلا يوجد به ضوء بالطبع، ولذلك ترى فيه الظلام. ولكنّك تخلق من الظلام الذي هو جزء من الفراغ الذي خلقت به الدنيا أحلامًا وأفكارًا».

لم يستوعب الجاهل الذي كان ينصت بكلّ اهتمام إحدى النقاط فسأل:

«أيها الحكيم. قلت أنّ العالم خلق من الفراغ، وأنّ الفراغ زادت منه قطعة قسّمت إلى نصفين. وأعطي منها نصف إلى بني آدم كلوح فارغ. ولكن ماذا حدث للنصف الآخر؟».

فقال الحكيم الذي كدّره السؤال بنبرة متلعثمة تظهر أنّه ليس متأكّدًا ممّا يقوله:

«القطعة الأخرى أعطيت لابن صباح الذي يغار من عدّوه بسبب كثرة الهدايا التي يتلقاها. ولكنّه بدلًا من خلق الأحلام، صنع لنفسه عملة من الفراغ وضرب عليها صورته. وبعد أن أطلقها في العالم، راح ينتظر أن تشتري هذه العملة التي هي الفراغ بعينه جميع ما في الدنيا. وفي النهاية بدأ ما كان يريده يتحقق. فقد قام بنو آدم الذين رأوا العملة بصنع كميات لا تحصى من أشباهها بالذهب والفضة، وظنّوا أنّهم ضربوا عليها صور وأختام سلاطينهم وملوكهم. ولم يعرفوا أنّ تلك الصور والأختام كانت تعود لابن صباح في الحقيقة. وهكذا راح بتلك الأموال يشتري الدنيا وما فيها. كان الشيء الوحيد الذي يمكن لابن صباح تخيّله هو أنّ تلك العملة كانت هي ثمن وقيمة الدنيا، والتي هي أيضًا خيال. لذلك انتظر من بني آدم أن يبيعوا الدنيا التي كانوا يتفرّجون عليها حتى ذلك اليوم بمتعة بما فيها قطعة تلو الأخرى مقابل تلك العملة».

استفسر الجاهل غير مكتف بما سمع:

«أيّها الحكيم. لقد قلت كلامًا غريبًا. حسنًا ولكن أين يمكن لي أن أجد ابن الصباح هذا؟»

أجاب الحكيم:

«ذلك في غاية اليسر. ابتعد عن هنا قدر ما استطعت، وعندما يحلّ الظلام اصرخ باسمه نحو الشمال. وسيردّ عليك حتمًا».

فقبّل الجاهل يدي العالم بعد أن أشبع فضوله أخيرًا وقدّم له جرّة النقود التي أحضرها فتقزز الحكيم واشمأزّ غاية الاشمئزاز، وطرد الجاهل -الذي لا يفهم- بالصفعات والركلات هذه المرّة. صُدم الجاهل ولم يستوعب ما جرى، فعاد إليه

فضوله الذي كان قد خمد قليلًا. لذا مشى بأسرع ما يمكنه نحو بلاد ابن صباح. وعندما خيّم الظلام بلغ سهلًا مقفرًا لم تكن في سمائه ولا نجمة واحدة حتى.

استقبل اتجاه الشمال وصرخ:

«يا ابن صباح! لقد عرفت ما فعلته وجئت إلى هنا. أخبرني، من أنت؟»

سمع صوت هزيز عاصفة رغم عدم هبوب أيّ نسمة بالمكان. وصدر صوت من الشمال يقول:

انسدّت أذن بنيامين أثناء تثاؤبه بسبب التأثير المنعس للحكايات على الأطفال، ولم يسمع آخر جملة من الحكاية. لم يكن يهتمّ بنهاية الرجل الجاهل في الحقيقة. ولكنّه عندما نزع الآلة من أذنه تذكّر شيئا يتعلّق بابن صباح كان قد سمعه في زمن سابق، فاتّسعت عيناه فجأة، وطار نومه. وراحت العملة التي صنعها ابن صباح من العدم تعبث برأسه.

وحتى يخمد من فضوله الزائد طاوع صوتًا صادرًا من داخله وذهب إلى ورشة الكيمياء وتناول وعاء فيه برادة حديد. ثمّ نشر البرادة على ورقة ووضع العملة أسفلها، فتجمعت البرادة ملتصقة ببعضها مكونة خطوطًا مغناطيسية. لكنّها لم تكن كالخطوط المعتادة. رأى وهو يترنّح من أبخرة الزئبق أنّها كانت أحرفًا، وميّز فيها ختم إبليس عليه اللعنة.

استيقظ من نومه العميق قبل الظهيرة ورأى عند خروجه من غرفته أنّ أبرهة ومعظم رجاله خرجوا ولم يبق بالمركز سوى بعض المناوبين. كان بدر السنة السابع سيطلع في تلك الليلة، وإذا كانت حكاية مرآة الكهانة صحيحة فإنّ المهدي

سيدخل من باب المدينة الغربي في تلك الساعات.

كرّس -وهو ما يزال يظنّ بأنّ كل ذلك كان جزءًا من مسرحية وخدعة يقومون بها- كلّ قوته الذهنية حتى يربط الأحداث ببعضها. لكنّه لم يصل إلى شيء. ولمّا رأى الأرضية في مدخل المركز مدهونة بمادة تشبه شحم الخنزير تعجّب ولم يعرف كيف يفسّر ذلك. لذا قرّر التفكير في آغلايا حتى يمنح عقله شيئًا من الراحة والسلام.

ردّد أبيات الغرام التي نظمها همسًا مرات ومرات حتى انتصف الليل. وبينما كان يحاول العثور على طريقة للفكاك من الأفكار السوداوية وهو يذرف الدموع، سمع قبل طلوع الصبح بأقلّ من خمس ساعات جلبة ودبدبة.

كان أبرهة ورجاله قد عادوا. خرج من غرفته ورأى بين زولفيار ورجاله رجلًا أوثقت يداه وقدماه بالحبال ويسيل الدم من أنفه وفمه. يفترض أنّ هذا الرجل الذي دُهن بشحم الخنزير لحظة القبض عليه لإبعاد الأرواح الطيبة والملائكة كان هو المهدي بذاته. كان شكله يطابق أوصاف المهدي حقًّا. أجلى الجبهة، كما تنصّ كتب الأحاديث، دقيق الأنف واسع العينين أسنانه لامعة متباعدة عريض الفخذين وأسمر البشرة.

مشى أبرهة الذي كان آخر من دخل وهو يحرص على إبقاء مسافة بينه وبين المهدي نحو الزنزانة التي سيحبسه فيها دون أن يأبه بوجود بنيامين. فكّر بنيامين بأنّه ربما لم يكن اشتراك الزنزانة مع غرفته في حائط صدفة.

أخرج آلة التنصت بعد أن دخل إلى غرفته وأغلق الباب. كان يفكّر بأنّهم يتوقعون تصرفه هذا بعد رؤيته للمهدي، لذلك لم يكن يخش من أن يكتشف أمره.

فألصق الآلة بالحائط وسمع التالي:

كان أبرهة يخاطب زولفيار على الأغلب:

«بالخارج ما يقارب الثلاثين شحّاذًا. أرسل بعض الرجال ليتبيّنوا الأمر».

زولفيار:

«أجل، لقد لاحظت ذلك. لا يمكن التنبّؤ بما سيفعله أبو خنزير. علينا اتّخاذ الحيطة. كان عليه أن يأتي البارحة لأخذ الحبّة الحمراء ولكنّه لم يفعل».

أبرهة:

«افعل ما أقوله لك. واجعل الخطاطين يجهزوا فرمانًا سأخبرك بمحتواه لاحقًا. لنركّز على عملنا الآن. اطرحوه على طاولة التعذيب. ولكن ادهنوا القيود بدم الخنزير أولًا وإلّا فإنّها قد تنقطع. واخرجوا عند انتهاء عملكم. فسوف أقوم باستجوابه وحدي».

سمع بنيامين بعدها صوت سلاسل وتأوهات. كان صوت أنفاس المعتقل الذي بقي وحده مع أبرهة بعد إغلاق باب الزنزانة بقوة يُسمع بوضوح.

أبرهة:

«كان يراودني شك من أنّك المهدي عندما رأيتك في بوابة طوبقابي. لكن لم يبق من الشك شيء عندما وضعت الشوال على رأسك. لأنّ الشوال الذي رُقّد في دهن الخنزير مدّة عام كامل سلبك كلّ قوتك».

الرجل:

«أقسم لك أني لست المهدي. والشيء الذي تقولونه لم يسلب قوتي. لأنّي أنا أصلًا ضعيف. أرجوكم لا تعذّبوني. سوف أخبركم بكلّ شيء. وظيفتي وديري وأسماء جميع رجالنا وبكلّ شيء. وإذا وجدتموني خطرًا عليكم فاقتلوني وأنهوا الأمر. لكن لا تعذبوني. فأنا لا أتحمّل الألم. آه يا أماه! أماه، أين أنت!».

بعد شهقات الرجل الذي أخذ يبكي، سمع بنيامين صوت صفعة. كان أبرهة يقول:

«اخرس! ولا تحاول خداعي! أسنانك متباعدة، ولسانك ثقيل، وحتى الختم على ظهرك مطابق لوصف الكتب. فوق ذلك أظهرت مرآة وقعت في يدي قبل سنوات أنّك ستدخل في هذا اليوم من تلك البوابة تمامًا. كلّ شيء يدلّ على أنّك أنت المهدي. وقد جئت إلى هنا حتى تقضي عليّ. أعرف ذلك. لكنّي أنا من أمسك بك وسلب قوتك بدل أن تمسك بي. أعرف أنّ قتلك مستحيل، لكنّ سلب قوتك سهل جدًا. فقوة المهدي تضعف حتى تصبح شبه منعدمة طالما كان تحت التعذيب كما تنصّ معظم كتب العلوم الخفية. لذلك أحضرت لك أبرع وأغلظ معذّب في السبعة أقاليم. والذي معه خمسون مجلّدًا في شرح تفاصيل أفظع طرق التعذيب. وقد أخبرني أنّ بإمكانه قتلك إذا وجد الطريقة».

«آه يا أماه! أماه! ارحموني. أنا لست المهدي. اسمي فرانز!».

ثمّ راح يبكي من جديد. عرف بنيامين المعذّب الذي كان يتحدث عنه أبرهة. كان رجلًا ألثغ متجهّم الوجه. وحسب ما يقال فإنّه لم يكن يعرف لغة سوى العربية، وكان قد جاء إلى الاستخبارات البارحة. عاد بنيامين للتنصّت عندما انقطع بكاء الرجل مع صوت صفعة ثانية.

ضرب أبرهة باب الزنزانة صارخًا نحو الخارج:

«زولفيار! أحضر هَطّقاي إلى هنا فورًا».

بعد أن فُتح الباب بمدة سُمع زولفيار يقول:

«أبرهة العظيم، هل أنت متأكد من قدرة هذا الرجل على التعذيب؟ لقد رأيته قبل قليل. إنّه لا يعرف استخدام الكماشة حتى. ولكن لم أستطع استجوابه لعدم معرفتي بالعربية. كما أنّه لم ينزل القلنسوة عن رأسه منذ وصل. مظهره يطابق صورة هطّقاي ولكن شيئًا ما غريب في الموضوع».

رغم تلك الكلمات أُغلق الباب بقوة في وجه زولفيار. نطق أبرهة ببعض الكلمات العربية الموجهة لهطقاي والحماس الشديد باد عليه. سمع بنيامين بعدها صوت اصطدام معادن وصلصلة سلاسل فعرف أنّ الرجل يُجهز للتعذيب. كان واضحًا في تلك الأثناء أنّ المعتقل مرعوب.

المعتقل:

«لا! لا! لا تعذبوني! أنا جاسوس نمساوي. لا! لا تقربوا الكمّاشة. سأعترف بكلّ شيء! اسمعوني أولًا!»

أبرهة:

«ما الذي لديك لتقوله؟ كلّ شيء واضح».

المعتقل:

«كما أخبرتك، أنا جاسوس نمساوي. لقد أخبروني أنّ كلّ شيء سيكون سهلًا. كنت سأستقبل استقبال الملوك حسب كلامهم».

«من أخبرك بذلك؟»

«جهاز استخبارات النمسا».

«أكمل».

«كان لديهم مخطّط مجنون. مخطّط عملوا عليه لما يقارب المئة سنة منذ حصار فيينا».

«عن أيّ شيء تتحدّث أنت؟»

«كلّ شيء بدأ قبل سنين طويلة. في دولتي اختيرَ خمسون شخصًا ممن توافق أوصافهم المهدي من النساء والرجال، ثمّ حُبسوا في دير».

«ثمّ ماذا حدث؟»

«زُوّجوا ببعضهم».

«ماذا تقول يا رجل؟ وماذا كان الهدف؟»

«ممّن ولد لهم وكبر من الأطفال وبلغ مرحلة المراهقة، اختيرَ أكثرهم مطابقة لأوصاف المهدي. وقد كان اثنان منهم أبي وأمي. كان خروج الأطفال خارج الدير ممنوعًا. ومن أجل سلامة سرّ الدير، قُتل كلّ من تبقى من الجيل الأول. كان الجيل الثاني أكثر شبهًا بالمهدي من الجيل السابق. وقد زُوّجَ هؤلاء أيضًا فوُلد الجيل الثالث الذي كنتُ أنا منه. أمّا الوسم الذي يقال أنّه على ظهر المهدي فقد

كان موجودًا في خمسة منّا فقط. ولا أعرف ما حصل بالباقين. لم أر أبي أبدًا. أمّا أمي فقد رأيتها مرّة واحدة وأنا في سن الثالثة ولم أنس وجهها بعدها قطّ. كنّا نحن الخمسة نبقى في نفس المهجع. لم يكن لنا أسماء، وكانوا ينادوننا بالأرقام. لذلك عندما بلغت السابعة سَمّيتُ نفسي فرانز. لم نكن نعرف لغتنا الأمّ. وقد كان التحدّث في الدير بغير اللغة التي تتحدثون بها ممنوعًا. كنّا نُربّى بالضرب، ونتعلّم دينكم وعاداتكم وتقاليدكم. اثنان من إخوتي انكفأوا على نفسهم بسبب ذلك. أصبحوا يحيطون أجسادهم بأذرعهم بشدّة ويتأرجحون إلى الأمام والخلف طوال اليوم ولم يعودوا يتدبّرون أبسط احتياجاتهم بأنفسهم. فبقينا نحن الثلاثة. وقد توفي أحدنا بالسلّ. والثاني فقد عقله في السادسة عشرة من عمره، فبقيت وحدي في النهاية».

قال أبرهة الذي أنصت لكلام الرجل بصبر صارخًا عندما لم يعد يتحمّل:

«كاذب! مرآة الكهانة عندي منذ سنوات. وكلّ ما قرأته فيها تحقق، واحدًا تلو الآخر. وأحدها كان يُنبئ بخروجك».

الرجل:

«أمّا مرآة الكهانة فهي حكاية مختلفة تمامًا. استدعى جهاز الاستخبارات قبل نصف قرن إلى فيينا أمهر ساعاتي في أوروبا وطلب منه أن يصمّم جهازًا. كان ذلك الجهاز هو مرآة الكهانة التي تتحدث عنها. هذه المرآة تتألف من عدة أنظمة منفصلة. أوّلها كان نظام توقيت، والذي كان سيبدأ بالعمل بعد أربعين سنة من إهداء المرآة إلى السلطان على يد رجل يدّعي أنّه درويش، وسيخبر حينها باقتراب قيام الساعة. عند بلوغي السادسة والعشرين من عمري، وفي اليوم الذي

رُقّيت فيه إلى رتبة يوزباشي(143) ذهبت إلى دار المجانين وزرت الساعاتي الذي جُنّ بعد سنة من صنعه للساعة العظيمة. كنت أعرف حتى اليوم الذي أخبروني فيه بـ «التصميم» بإمكان صنع ساعات تعمل من دون ضبط طوال ستة أشهر. لكن عندما أخبروني أنّ هذا الرجل صنع جهازًا يعمل دون ضبط لعشرات السنين لم أصدّقهم في البداية. لذلك أروني رسومات مرآة الكهانة التي تتحدّثون عنها. حسب ما أتذكر، كان النظام الأول يفعّل النظام الثاني بعد إهداء المرآة بأربعين سنة، في تلك الأثناء تضرب مقامع معدنية داخل الساعة أصناجا بأحجام مختلفة عازفة نغمة كئيبة كما تفعل صناديق الموسيقى تمامًا. وأترك لكم التفكير بالتأثير الذي تحدثه مرآة تصدر أصواتًا غريبة بعد أربعين سنة من الجمود في زاوية».

«إذا كان كلامك صحيحًا، فكيف لحبات الرمل على سطح المرآة أن تتحرك وتكون الكتابات من دون أيّ تأثير عليها؟»

«سأخبرك. ما تقول أنّها حبات رمل هي في الحقيقة برادات حديد ملونة بدهان أبيض. أمّا أسفل المرآة فقد كانت أعوادًا حديدية صغيرة تشبه قضبان القفص ولكنّها غير مرتبطة ببعضها. يمكنك كتابة الجملة التي تريد عن طريق اختيار أعواد محدّدة في نظام القفص هذا. أمّا النظام الثالث، فبمجرد ارتباط بعض هذه الأعواد بالمغناطيس الرئيسي تلتصق برادات الحديد بها. وبذلك تظهر كتابات الكهانة التي تتحدث عنها. وكلّ كتابة منها تبقى على المرآة لمدّة عام كامل».

«ما تقوله لا يفسّر كيفية تغير الكتابات. كيف تُمسح كتابة الكهانة إذن؟ لأنّي رأيت الكتابات تُمحى وتحلّ مكانها كتابة أخرى فجأة».

«فهمت ما تقصده؛ بعد سنة تتمغنط الأعواد التي تشكل الكتابة الجديدة في نظام القفص. ولكن تبقى بعض البرادات الحديدية على الأعواد القديمة رغم أنّها لم تعد ممغنطة. وقد وجد الساعاتي حلًّا لذلك أيضًا: يتحرك عودان حديديّان مغناطيسيتهما ضعيفة ماسحان للمرآة بفضل النظام الرابع ويدفعان بحبات الرمل إلى الأعواد الممغنطة الجديدة صاحبة المغناطيسية الأقوى. وفي كلّ مرة تتغير فيها الكتابات تضرب المقامع الأصناج مصدرة موسيقى كئيبة».

«وماذا تقول عن تحقق تكهّنات المرآة؟»

«صدّقني، كلّ ما أقوله حقيقي. فعندما أهدي الجهاز إلى سلطانكم على أساس أنّه مرآة كهانة كان يُعرف بأنه سيبدأ بالعمل بعد أربعين سنة. حتى أنّه جُهّز تقويم بمواعيد كلّ ما سيحدث بتفاصيله. بعد إهداء المرآة بأربعين سنة، أيّ قبل ست سنوات، وقت ظهور أولى التكهنات، أحرق رجالنا في المناطق الواقعة خلف غلاطة أربعة براميل من المسحوق الأحمر. كانت تفاصيل الحدث مكتوبة في التقويم بسنته ويومه بل وحتى ساعته. كلّ شيء محدّد ودقيق بحيث أنّ جهاز استخباراتنا الذي انتظر مرور الأربعين سنة بكلّ صبر انتقل للتنفيذ أخيرًا وأمّن تحقق جميع تكهّنات المرآة. الكهانة التالية كانت عن اغتيال ولي عهد النمسا. لم يُقتل الولد بالطبع، ولكن رُتّبت مراسيم دفن مزيفة. والتكهنات الأخرى حُقّقت بنفس الشكل: تمكّن رجالنا من إشعال ثورة في الأناضول، وخسرنا حربًا مع البولنديين بأقلّ الخسائر تاركين لهم أراض جدباء، وأشعلنا حريقًا في تبريز. كلّ ذلك كان من أجل أن تصدّقوا الكهانة الأخيرة، أي كهانة خروج المهدي. وبما أنّ جميع التكهنات تحقّقت فلا بدّ لكم أن تصدّقوا هذه أيضًا. لذلك كان من المتوقع لكم أن تستقبلوا المهدي مخلّص المؤمنين بكلّ حماس وحفاوة. كان هدف

«الخطّة» الوحيد أن يقبّل سلطانكم يد المهدي الذي يدخل من الباب الغربي ويتنازل له عن عرشه، وبذلك يحكم بلادكم جاسوس نمساوي. ذلك ما جعلهم يخبروني بأنّي سأستقبل كالملوك ولن أواجه أيّ صعوبة. ولكن لم يحدث ما قالوه. فقد قبضتم عليّ. ولكن لم تريدون تعذيبي وأنتم تعتقدون أنّي المهدي؟ من أنتم؟»

«اخرس! أعرف أنّك المهدي! تكذب عليّ بهذه الحكايات حتى تعبث بعقلي. ولكنّي أذكى منك. أنت المهدي، أعرف ذلك كما أعرف اسمي. أووه! عاد الدم إلى خدك كما أرى. يبدو أنّ قوتك بدأت تعود. أترى هذا الرجل الذي يقف عند المجمر؟ اسمه هطقاي. أشهر معذّب في السبعة أقاليم. إنّه يسخّن على الجمر الأسياخ التي ستلامس جلدك بعد قليل. ظننت أنّك ستخدعني، لكن التعذيب سيبدأ الآن. هطقاي!»

من خلف الجدار سمع بنامين أبرهة يقول شيئًا بالعربية لهطقاي. واضح أنّه كان يطلب منه أن يبدأ التعذيب. لكن حدث حينها شيء غير متوقع. فقد تعرّف بنيامين على صوت هطقاي.

هطقاي:

«ساعتي تعطّلت أيّها الأفندي الأكبر. لا بدّ أنّ ساعتك تعمل، أخبرني، كم الساعة بالضبط؟ هل طلع الصبح؟»

أبرهة:

«الصبح على وشك أن يطلع، ولكن ألم تكن لا تعرف سوى العربية؟ من أين

تعلمت لغتنا؟ ما هذا! شيء ما حصل لوجهك. هل أنت مجذوم؟»

«لست مجذومًا أيّها الأفندي الأكبر. حرارة الجمر في المجمر أذابت شمع العسل عن وجهي. حتى أنا أكره حصول هذا».

«أنت لست هطقاي! أين هطقاي؟ من أنت؟»

«هطقاي ينام منذ البارحة مع الأسماك في بحر سرايبورنو وقدمه مربوطة بحجر. أمّا عن هويتي. فأنا لصّ بغداد المشهور الذي اختطفه ابن الباشا ظانًّا أنّه الحسناء التي كان يعشقها. لكن انتظر! دعني أولًا أقفل الباب حتى لا أتورّط برجالك».

«ماذا تفعل؟ زولفيار! زولفيار! أنجدوني!»

«لا فائدة للصراخ. فلن يخلصك أحد من يدي أيّها الأفندي الأكبر. ولا تفكّر بفعل شيء شقي. صحيح أنّ عيني لا ترى جيّدًا ولكنّ مسدسي لن يخطئك من هذه المسافة القريبة».

لم يسمع بنيامين الكلمات الأخيرة للشخص الذي يدّعي أنه هطقاي. لأنّ زولفيار ورجاله هبّوا عندما سمعوا صرخات أبرهة وأخذوا يحاولون كسر الباب. مع ذلك كان من الممكن سماع صرخات أبرهة الخائفة والغاضبة:

«عرفتك أيّها الحقير الوضيع! أيّها الشحاذ القذر! أيّها الكلب الأسود الذي يأكل الخنزير!»

خرج بنيامين من غرفته حتى يشاهد ما يحدث فوجد نفسه وسط فوضى كبيرة. كان زولفيار ورجاله يسعون بكلّ طاقتهم لكسر الباب. أطلق أحد الرجال

بحماقة كبيرة النار على قفل الباب ظانا أنه سيفتحه بتلك الطريقة. لكنّه أدرك خطأه لمّا جعلت الرصاصة القفل لا يُفتح حتى بمفتاح هيكلي.

لذلك قضوا دقائق وهم يبحثون عن جذع شجرة يكسرون به الباب، ولكنّهم لم يجدوه. في النهاية طلب زولفيار إحضار مدفع صغير من المدافع التي تستخدم في السفن حتى يكسرون به الباب. وبينما كانوا يحشون فوّهته صدرت جلبة كبيرة من مدخل المركز: كانت الشتائم الغليظة للرجال الموجودين عند المدخل تتحوّل إلى صرخات ألم فجأة. فأسرع بنيامين مع الآخرين إلى فسحة المدخل ورأى المرأة السمينة في دهليز مدخل المركز.

كان اسم المرأة التي تشبه بثدييها الضخمين وكرشها العظيمة وأردافها الكبيرة أمّ الغول أمّ البركات(144). هذه المرأة التي تشرف على تسوّل سبعة أطفال مزعجين بصفتها أمّهم، والتي يخشاها أبو خنزير نفسه، كانت قد علقت بباب الدهليز الضيّق بسبب فخذيها الهائلين، وكانت تطرح كلّ من يهجم عليها من الرجال أرضًا بصفعات متتالية. ومن الأصوات القادمة يُفهم أنّ هناك آخرين خلفها. كانوا يطلقون زغاريد وصرخات عالية وحادّة تجمّد الدم في الأبدان ويدفعون المرأة من الخلف لفتح الطريق.

في اللحظة التي أشهر فيها من بالمركز مشاملهم نجح من كانوا خلف المرأة بزحزحتها عن مكانها وفتح الطريق. فامتلأ المركز فجأة بعدد لا يحصى من الأطفال المتسوّلين. تسلّق الأطفال الذين كانوا بطبيعتهم مزعجين لآخر درجة، وعنيدين لا يفلتون ما يمسكون به، ولزجين أكثر من صمغ الصنوبر، وأسرع وأرشق مع الزئبق، فوق زولفيار ورجاله ومخاطهم ولعابهم يسيلان.

وعندما بدأ البالغون من المتسوّلين بالدخول وجدوا أنّ الأطفال قد سبقوهم. كانت حركة الرجال الذين لم يجدوا فرصة ليهووا بسيوفهم قد شُلّت بسبب عدد الأطفال الذين كانوا يركبون ظهورهم ويتعلقون برقابهم ويعتلون أكتافهم ويتعلقون بأذرعهم ويعضّون آذانهم. فوق ذلك كانوا يتعرّضون للضرب بالعصي على يد البالغين وهم يصرخون من ألم عضّ الأطفال لربلات سيقانهم.

ولكن ظهر أنّ زولفيار كان متينًا، فقد نفض عن جسده الأطفال طارحًا إيّاهم يمنة ويسرة ثمّ سحب مسدسه صاحب الستّ فوهات. ولكن حتى ذلك كان بلا فائدة. فقد صرخ من الوجع عندما عضه عشرات الأطفال الذين تسلقوا فوقه من جديد في ربلته ومؤخرته وزنده ورقبته وأذنيه فسقط على الأرض. في النهاية كان رجال الاستخبارات مطروحين على الأرض وموثقين بإحكام تحت أقدام الأطفال المتسولين. كان منظرًا لا يصدّق. فها قد دفع رجال الاستخبارات ثمن الاستخفاف بخصومهم.

لمّا هدأت الجلبة سُمع صوت اللصّ الذي خطفه ابن باشا بغداد قبل زمن طويل لتنكّره بهيئة امرأة. فتعرّف المتسولون على صوته وتجمّعوا أمام باب الزنزانة مباشرة. كان عاجزًا عن فتح الباب من الداخل بسبب تعطل القفل برصاصة المسدّس، وكان يأمر أتباعه بتخليصه. حاولوا استخدام المدفع ولكنهم لم يتمكنوا من إشعاله. فقرّروا خلع مفاصل الباب بالعتلات.

في النهاية خُلع الباب وأخرج أبو خنزير وهو في ثياب الجلاد الأفندي الأكبر من الغرفة وهو يجرجره. أمّا الجاسوس النمساوي فرانز المسكين فكان قد سلّم روحه خوفًا من التعذيب. كان الشحّاذون في جوّ فرح عارم. قال كتخداهم لهم:

«أشكركم جميعا! لقد جئتم في الوقت المناسب تمامًا. لكن إن لم أكسر رأس من أعطاني هذه الساعة فلن أكون أبا خنزير. لأنّها تعطلت في منتصف الليل تمامًا. لحسن الحظّ أنّ الأفندي الأكبر لديه ساعة. من دونها لم أكن لأستطيع تحديد الوقت حتى لو توقّفت الدنيا. هيا! حان وقت النهب! كلّ ما هنا من نصيبكم! افعلوا ما يحلوا لكم. فلن يسمعكم أحد بالخارج في كلّ الأحوال».

أطلقوا عند سماعهم لهذه الكلمات صرخات الفرحة واندفعوا في كلّ اتجاه ناهبين كلّ ما كان موجودًا بعد أن خلعوا جميع الأبواب المقفلة. وقد فوجئ بعضهم عندما خرج حيوان مرعوب بعد كسرهم لأحد الأبواب. فقد كان قردًا له لحية. رأى القرد بنيامين فارتمى في أحضانه على الفور. كان ذلك قرده، مشتري. قال أبو خنزير مخاطبا الفتى:

«أرأيت يا فتى ما يحدث في الدنيا. لقد ارتكبوا خطأ فادحًا باستهتارهم بأبي خنزير. لقد كنت أراقبهم منذ أشهر. صبرت وانتظرت ثمّ أخذتهم على حين غرّة. سأجعل أفنديك الأكبر يدفع ثمن ما فعله بي. أجل، أصبحت أعدّك أنت أيضًا منهم. لو لم تكن منهم لبحثت عن أبي خنزير الذي ساعدك ولسألت عن حاله. لا تظنّن أنّي لا أعرف بمشاركتك في جلسات السمر والشراب معهم. لكن احمد الله أنّي رجل صبور متأن متفهّم. لذلك لن أقتلك هنا الآن. أمّا أصدقاؤك الآخرون فلم يبق في أعمارهم أكثر من نصف ساعة في أفضل الأحوال. بالذات أبرهة هذا. لنر ما ستكون كلماته الأخيرة».

ثمّ تفضل بطلب إحضار أبرهة المربط بالحبال جيّدًا إليه. والذي كان في حالة تثير الرثاء حقًّا. قال موجهًا له الكلام:

«كما ترى أيها الأفندي الأكبر، أصبحت أنا أفنديك الآن. حياتك مرهونة بكلمة من شفتيّ. لحظة! أتعرف؟ منذ أسبوعين وأنا لا أتناول حبوبك الحمراء. أراد هذا العبد الآثم أن يقتل نفسه فتوقف عن تناول الحبوب. ولكن المسكين، ولا يُعرف لأيّ حكمة ولأيّ سبب، لم يسلم روحه لا في اليوم التالي ولا الأيام التي بعده. ربّما مات ولم يدرك ذلك لتأخّر انتقاله إلى العالم الآخر. أخبرني بالسبب. أم أنّك خدعتني طوال تلك السنوات؟»

غير من النبرة المتهكمة في صوته قائلًا وهو يعضّ على أسنانه:

«لقد خدعتني يا ديوث! سمّمت حياتي سنين طويلة واستغليتني لأعمالك الآثمة. نعتّني بالحقير وكرّهتني في الحياة. والآن تعرف ماذا سيحصل لك، أليس كذلك؟ مع ذلك لن أكسر خاطرك إن كانت لك رغبة أخيرة. ألديك رغبة أخيرة؟»

قال أبرهة الذي أدرك أنّ كل شيء قد انتهى هامسًا وهو ينظر إلى الحبل الثخين المعقود عقدًا فوق بعضها لخنقه:

«أجل، لديّ رغبة. أريد أن أتحدث مع بنيامين على انفراد».

في تلك اللحظة دخل شحاذ باندفاع إلى فسحة المدخل والذهبيات والأقجات والفيلورينات المتساقطة من حزامه وجيوبه وبقجته تتناثر يمنة ويسرة وصرخ قائلًا:

«اسمعوا! هلمّوا! هلمّوا! أقول ذلك لأجلكم. هنا غرفة عامرة بالأموال. تعالوا واملأوا بقجاتكم ولا تنسوني من صالح دعائكم. فالأموال تعتبر لي بما أنّي وجدتها، لكنّي أهبها جميعها لكم كصدقة عن رأسي وعيني».

علّق أبو خنزير الحبل الذي جهّزه لشنق أبرهة على مسمار في الجدار بينما كان الشحّاذون يهجمون كالسيل على غرفة الأموال. ثم قال: «سأحقق لك رغبتك الأخيرة. تحدّث مع الفتى بما أردت. ولكنّي سأقتلك بيدي عندما أعود». ثمّ لحق بالناهبين إلى غرفة الأموال.

قال أبرهة الذي بقي مع بنيامين في فسحة المدخل:

«هذه نهاية الطريق يا عزيزي بنيامين. يحزنني كثيرًا أنّ مصدر معلومات كبير سينتهي مع موتي. أقصد بذلك المعلومات التي جمعتها الاستخبارات طوال سنين عديدة. سيتفرق الجواسيس في البلدان البعيدة لعدم تلقيهم رسائل من المركز. انظر لهؤلاء البؤساء الناهبين للأموال في غرفة الخزنة. لا يعرفون أنّهم لو كانوا في وضع يسمح لهم بالاستفادة من معلومات المجلدات الكائنة في المكتبة فسيكون بإمكانهم الحصول على عشرة، وربما مئة ضعف ما ينهبونه. أعرف أنّهم وبعد أن ينهبوا كلّ شيء فضيّ وذهبيّ سيشعلون النار في المكان. وبذلك سيختفي عقل جبار من الوجود. أما أنا فسأموت كآثم. إن كان ثمّة عالم آخر فإنّي متأكد من أنّي سأشعر بشيء واحد فيه، ألا وهو العار. ربّما كنت لسنوات أهرب من هذا الشعور، لا من القيامة. أمّا بشأنك يا بنيامين، فلا بدّ أنّك تعرف أني أعرف أنّك ابن إحسان أفندي الطويل منذ البداية. عرفت أنّك من كنت أبحث عنه في اليوم الذي أنقذت فيه حياتي. العملة كانت معك، وسط الكتاب الذي تحمله في صدرك. لا تتفاجأ! أعرف ذلك. لاحظت ذلك عندما كنت أدخل إلى غرفتك ليلا وأنت نائم. أجل، دخلت غرفتك أيضًا. لم تكن لتستيقظ، لأنّ في القهوة التي تشربها مساحيق تجعلك تغطّ في نوم عميق. راقبتك طويلًا أثناء نومك وتخيّلت شكل وجهك الأصلي. كنت تشبه أباك.

لا إمكان لوصف مشاعري تجاهك. فالشعور ليس بشعور حقًّا إن لم يكن مستعصيًا على الفهم. كان بإمكاني قتلك وأخذ «العملة» من البداية. لكن لم أرد فعل ذلك. لأنّك كنت في قبضتي بكل الأحوال، كما كنت بالنسبة لي قيّما بقدر تلك العملة. كأنّ شيئًا أظهَرك في طريقي عمدًا. لذلك رغبت بتفحّصك عن قرب. وبذلك تحصّلت على فرصة معرفة كنه ضعفك ورقّتك. وفي نفس الوقت عرفت كم كان في الشغف بالقوّة والنفوذ وضاعة وسفالة. ربما كنتَ راضيًا بالموت من البداية. كأنّ هدفك كان شيئًا آخر غير البقاء حيًّا. كنتَ شاهدًا. أجل، أصبحت متأكدًا من ذلك. لكنّك لم تكن بطلًا بالتأكيد. كأنّ أحدهم كان يهمس لك بكلماتك الجريئة ويسخر منّي. وكأنّ كلّ ما يحدث لي ولهم وللجميع يحدث من أجل أن تشاهد أنت وتتعلم. فأنت، بضعفك وعجزك كنت تتفوّق عليّ أنا، صاحب كلّ أشكال القوة. لأنّك أنت من كان يرانا ويشاهدنا جميعا من دون أن يتدخل في الأحداث. عندما سحقتك كنت تبكي. هذا الشيء الذي كان يمكن تفسيره كعلامة ضعف كان في الحقيقة دليلًا على كونك حيًّا. بينما كنّا نحن بلا أرواح بقدر ما كنّا أقوياء كالصخور.

بهذا تعلّمت منك أنّ القوة هي الموت بذاته. لأنّي راقبتك. آه! ليت بإمكاني أن أشاهد الدنيا كما تشاهدها أنت، وأن أنظر إليها كما تنظر! لقد نظرت إليها كوسيلة لحيازة النفوذ والقوة، فلم أر فيها سوى انعكاس ظلامي الداخلي. أنت يا بنيامين أجمل وأحسن شيء رأيته في حياتي. كان بودّي أن أقول لك الكثير من الأشياء. ولكنّ دقائقي معدودة. لذلك أرجوا منك أن تفعل لأجلي شيئًا أخيرًا. بعد أن أموت ضع تلك العملة في فمي واربط حنكي. لأنّي لا أريد لها أن تقع بيد أحد. وداعًا! وداعًا بنيامين!»

قال كلماته الأخيرة في عجلة وبصوت خفيض. لأنّ أبا خنزير كان مقبلًا نحوه وهو يردّد بلهجة الفتوات أغنية وقحة الكلمات، وهو ينثر الفيلورينات التي ملأ بها حزامه وصدره من السعادة يمنة ويسرة، وكأنّ الأموال التي وجدها أسكرته.

أخذ الحبل الذي علقه وهو ما زال يغنّي ثمّ دهنه بصابونة في يده. كان واضحًا من كلّ أحواله وتصرفاته أنه يؤدّي المهمّة بعناية حرصًا على إطالة لحظات المتعة هذه التي انتظرها سنين طويلة للتمتّع بها قدر الإمكان. لفّ الحبل الذي علّق طرفه بالجدار برقبة أبرهة ثمّ سحبه بقوّة فجأة.

انتفخت عروق رقبته لبذله أقصى قوته في الشد، لكنّه استمر مع ذلك بالترنّم بالأغنية الفتوّاتية. قفز لسان الأفندي الأكبر خارجًا على الفور. كان وجهه بنفسجي محتقن، وعيناه جاحظتان. وبإفلات أبو خنزير للحبل في لحظة ثمّ شدّه له مباشرة مال رأس أبرهة ساقطًا إلى الجنب. كانت رقبته قد كُسرت. لو لم يُسحب الحبل بتلك السرعة لطالت عملية قتله، ولسعد المتسوّلون وكتخداهم بذلك كثيرًا.

كان يلهث لمّا انتهى من المهمة. صرخ بالمتسوّلين بعد أن بصق على الجثة:

«هيّا! تجمّعوا حتى نرحل عن هنا، املؤوا كلّ الأموال في شوالات. ولا تتركوا ولا متليك. خذوا معكم كلّ ما له قيمة، لا! بل أشعلوا فيه النار. أمّا الرجال فاقتلوهم إن شئتم أو اتركوهم ليحترقوا أحياء. فهذه الحيطان تتحمّل الحريق. لذا لا تخافوا من أن تنتشر النار إلى الخارج وتورّطكم. ضعوا جثة أبرهة في شوال. وخذوه معكم، فسندفنه بالنقابة. سأشرب على قبره كلّ ليلة وآكل الخنزير. تحرّكوا! أسرعوا! سنخرج من الباب واحدًا واحدًا. وآخر من سيخرج

ستكون أمّ البركات. فمهمّة إشعال النار من نصيبها».

ثمّ التصق بذراع بنيامين وراح يقوده نحو باب الخروج. عند خروجهم من الدهليز إلى القراءت خانة لم يكن القهوجي صاحب سحنة القتلة فيها. كان عالمصاتي، ذراع أكل خنزير اليمنى، يراقب المكان بينما كان أحد الأطفال يمسح دم القهوجي بخرقة في يده عن الأرض. كما كان شحّاذان آخران يجهزان ملاطًا لبناء جدار يسدّ الدهليز السريّ من الخارج.

لمّا خرجوا من القراءت خانة كان قد مضى على آذان الفجر وقت طويل. في الوقت الذي كان فيه آخر شحّاذان يسحبان شوال جثة أبرهة بمشقة بالغة، كان أبو خنزير ملتصقًا بذراع بنيامين وهو يسوقه نحو النقابة ويصرخ في من ينظرون إليه باستغراب في الطريق: «إنّه عبدي! لا تتدخلوا!».

دخلوا إلى النقابة في الوقت الذي بدأ فيه المطر بالهطول. كانت شوالات النقود ما تزال بالطريق. طلب أبو خنزير فورًا أن يحضروا له قهوة تعب وأن يسخّنوا ماءً ويحفروا قبرًا من أجل الجنازة. ثمّ شرب قهوته بينما كان ماء غسل جثة أبرهة يُسخّن في أحد القدور.

بعد قليل بدأ البقية بالتوافد من الخارج مع شوالات لا تنتهي من النقود. أخبرهم الشحّاذ الأخير أنّ أمّ البركات احترقت حيّة؛ لأنّها علقت بباب الدهليز ولم تستطع الهرب بعد إشعالها للنار، فانطفأ البريق الذي كان في أعينهم حتى تلك اللحظة. إلّا أنّ ذلك الحزن لم يدم طويلًا لأنّ شوالات النقود كانت تنتظر أن تفتح وتُعدّ. وقد أراد بعض الشحّاذين أن ينتهوا من حفر قبر أبرهة أولًا. فقد كان الماء الذي ستغسل به الجثّة قد سخّن منذ مدّة طويلة.

قال أبو خنزير مخاطبًا بنيامين وهو يفك حبل شوال أبرهة:

«أنت من سيغسل الميت. فأنت تعتبر قريبه الوحيد طالما أنّك أنقذت حياته».

مُدّدت الجثّة على صخرة كانت تستخدم قبل الفتح في عهد متسوّلي الروم لتقديم القرابين لإله مجهول. ثمّ أُحضر حاجزان وحجبت الجثّة عن الأعين ووضع على بطنها صابونة وسكّين. وبعد أن أُحضر قدر الماء الساخن وقماش الكفن بقي بنيامين وحده مع الجثّة.

لم يكن يعرف من أين يبدأ. والأسوأ أنّ القرد كان يتحرك تحت قميصه باستمرار ويعيق حركته. لذا واجه مشقّة في نزع ملابس الجثة.

كانت عمامة الأفندي الأكبر قد وقعت عن رأسه لما شُنق بحبل أبي خنزير. كان شعره مهملًا ، كما لم يكن قد أطال شعر الناصية كما هي العادة. ولأنّ دمه انسحب أصبحت بشرته الشفافة أصلًا كالزجاج، لدرجة أنّه كان من شبه الممكن رؤية عظامه تحت الجلد الرقيق ليده.

بينما كان مستمرًا بنزع ملابس الجثّة، تحرّك رأس أبرهة بشكل مفاجئ وبالغ نحو الخلف بسبب عظمة رقبته المكسورة ففزع بنيامين وقفز للخلف. كانت أوّل مرّة يلمس فيها جثّة. ولمّا حلّ نطاقه وخلع سرواله صعق ما رآه. فقد كان بين الفخذين «أكرنبج» مثبّت بالأربطة.

سكب عدّة طاسات من الماء ثمّ أخرج العملة من صدره ووضعها في فم أبرهة فوق لسانه. ثمّ ربط حنكه وكفّن الجثة وعقد الأربطة. في النهاية أصبح الأفندي الأكبر جاهزًا للدفن.

قرب المساء وفي الوقت الذي اشتدّ انهمار المطر فيه، دُفنت الجثّة في قبر حُفر وسط النقابة تمامًا. وبعد أن مُلئ القبر بالتراب أُعيدت أحجار بلاط الأرضية مكانها كما كانت بينما كان أبو خنزير يراقب ما يجري بمتعة كبيرة.

ستزيد متعته بعد قليل بالتأكيد لأنّه كان قد أعطى منذ مدّة الأوامر اللازمة لتجهيز مائدة ضيافة عامرة. وحقًّا بدأ ذبح الخراف ونتف الدجاج داخل النقابة. ووضعت القدور على المواقد وجيء بعدد لا يحصى من أطباق البقلاوة المشتراة بأموال الاستخبارات المنهوبة.

وبينما كانت الرعود تجلجل والبروق تضرب في الخارج كانت الخراف قد بدأت تحمرّ، ونضج الخشاف الذي يغلي في القدور. ولمّا أحضر بعض الشحاذين أربعة دلاء من القشطة وثلاث قصعات من العسل طار الأطفال من الفرح. تخلّى الشعراء عن أغانيهم الحزينة لذلك اليوم وشاركوا المطربين الذين عزفوا ألحانًا راقصة بالغناء. حتى الأطفال المخدّرين بالأفيون ليبدوا معلولين فتحوا أعينهم وراحوا يحملقون في بالدجاج المحمرّ والبقلاوة وقدور الأطعمة اللذيذة منتظرين أن يُدعَوا إلى السفرة.

أشعل أبو خنزير مسدّس إشارة وجده بالنقابة مزيّنًا به قبّة النقابة بالشرارات الحمراء فبلغت بهجة الموجودين أوجها. لكن في اللحظة التي لمع فيها برق وجلجل من بعده رعد صرخ أحد المتسوّلين في ذعر:

«متعوس هنا! بيننا!»

وحقًّا كان متعوس مختبئًا يراقبهم من خلف أحد العواميد التي تحمل القبّة. فراح الشحّاذون يصيحون ويصرخون:

«سيجعل البرق يصيب المبنى هذا المنحوس! اطردوه!»

«اكسروا ظهره! اقتلوه!»

«ارجموه بالحجارة! اقضوا عليه!»

«احذروا! لديه مسدّس!»

توقف الجمع الذي كان متّجهًا نحوه بالحجارة والعصي لمّا رأوا السلاح. وقد كانت حيرتهم أكبر لمّا رأوا المسدس الثاني في حزامه. لكنّ أبا خنزير قفز إلى الأمام صارخًا:

«أيّها القوّاد! بأي جرأة جئت إلى هنا؟ أم أنّ لك نذرًا أن تصيبنا بالبرق؟ ألم أقل لك بأنّي سأقتلك إذا خطوت خطوة واحدة داخل هذا المكان؟ لن أطلب منك أن تغرب عن هنا هذه المرة. سترى ما سأفعله بك الآن!»

انخفض محتميًا بالصخرة التي غُسل عليها أبرهة وسحب مسدّسه من حزامه وأطلق النار على متعوس، فضجّت قبّة المكان بصدى صوت السلاح. لكنّه أخطأ الهدف. فأخذ متعوس يقترب منه بمسدّسه بينما كان يصرخ من مكان احتمائه بالشحّاذين:

«بحقّ الشيخ!(145) إنّهم قادمون لقتل كتخداكم! أنجدوني!»

إلّا أنّ الرعب استملكهم لمّا أضاءت نوافذ المبنى بفعل برق ضرب قريبًا جدًا منه. لقد نجوا بأعجوبة لأنّ السماء أيضًا أخطأت هدفها على ما يبدو. وقت جلجلة الرعد عقب البرق كانت عزيمتهم قد كُسرت تمامًا. فمن المؤكد أنّ البرق

التالي سيصيب المبنى.

هرب من الباب أكثرهم جبنًا في البداية، وقبل أن يمرّ وقت طويل لحقهم الشجعان ركضًا تاركين المكان. لكنّ أبا خنزير كان عاجزًا عن النهوض من خلف الصخرة ليهرب. لذا أخذ يتوسّل متعوسًا. لكنّ الآخر لم يكن يجيبه. إلّا أنّه في لحظة أنزل مسدّسه وكأنّه يسمح له بالذهاب. فظنّ أبو خنزير أنّه نجح في إقناعه، ونهض من مكانه يركض في عجلة. ولمّا كاد يصل إلى الباب دوى صوت السلاح، وأصابت الرصاصة ساقه.

بينما كان المتسوّلون في الخارج تحت المطر الشديد ينتظرون مردّدين: «لنر ما إذا كان البرق سيصيب النقابة حقًّا؟» بقي بالمبنى ثلاثة أشخاص. قال متعوس لبنيامين هامسًا أثناء تلوّي أبي خنزير من الألم:

«أنا لا أنسى المعروف. بإمكانك الخروج من هنا. لكن أسرِع. هناك باب صغير يقود إلى الخارج. لو خرجت منه فلن يلاحظك أحد. سترى قفلًا على الباب. لكنّه يُفتح بسهولة. هيا! حظًّا سعيدًا».

فتح بنيامين قفل الباب بسهولة حقًّا، وخرج ليصبح حرًّا أخيرًا. أخذ يجري باتجاه طريق الديوان. لمّا نظر خلفه لم يكن مبنى النقابة يُرى في الليلة الظلماء تحت المطر الشديد، لكن برقًا ضرب فجأة أضاء كلّ شيء. كان قد أصاب مبنى النقابة. ولمّا جلجل صوت الرعد بعد مدة قصيرة مغطّيًا على صوت صرخات الشحّاذين، كان المبنى يشتعل.

الظلام

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان يعيش في إحدى بلدات الأناضول تاجر حالم وشارد. كان شاردًا وسارحًا لدرجة أنّه كان دائمًا ما ينسى مواعيد تسديد واستلام ديونه، ويخطئ عادة في حساب حصيلة اليوم، ويرتكب في دفتره الكبير الكبير والصغير من الأخطاء. لذلك كان رأس ماله يذوب مع الوقت. مع ذلك لم يتمكن من كبح نفسه عن الشرود والتخيّل. ولأنّه لم يكن يتشبث بما يمسكه أو يسعى خلف مصلحته(146) أو يجدّ في عمله كما يفعل زملاء مهنته، فلم يكن يتعب كما كانوا يتعبون.

في إحدى الليالي استلقى على فراشه لا ليرتاح من تعب اليوم، بل ليحلم فقط. ورأى في حلمه نفسه أمام نافذة. لمّا نظر من خلالها رأى بالداخل رجلًا نائمًا يشخر في سرير يشبه المهد وبجانبه عند رأسه رجل يدوّن بقلمه أشياء في دفتره. هذا الرجل الطويل ضيق العينين كان بين حين وآخر يترك القلم ليغطّي النائم، وحين يبدو كأنّه سيستيقظ يطبطب عليه في هدوء. فجأة التفت نحو النافذة والتقت عيناه بعيني المراقب من خلفها. كانت على وجهه تعابير تمزج بين الدهشة والغضب. عندها انقطع الحلم واستيقظ التاجر.

لم يذهب ذلك اليوم إلى عمله وبقي يقلّب في كتب تفسير الأحلام. ولمّا لم يجد تفسيرًا لا بشرّ ولا بخير، تمدّد على فراشه في اليوم التالي على أمل أن يرى تكملة الحلم. وعندما استغرق في النوم بعد مدّة قصيرة وجد نفسه أمام تلك النافذة من جديد.

كان الرجل الطويل ما زال يكتب أشياء في دفتره بينما الآخر نائم يحلم. وبينما

كان التاجر يراقب ذلك المنظر بفضول التفت الرجل مرة أخرى ورآه فنهض ماشيًا بسرعة نحو النافذة وأسدل الستارة في وجهه.

هرع التاجر الذي انتهى حلمه بهذه الطريقة نحو كتب تفسير الأحلام يقلّب في صفحاتها ولكنّه لم يعثر على شيء. فعقد الأمل على نوم الليلة. عندما حلّ الليل بعد انتظار على أحرّ من الجمر تمدّد على فراشه وانتظر أن يغطّ في النوم.

في مدة وجيزة غاص في نوم عميق ووجد نفسه مجدّدًا أمام نفس النافذة. كانت الستارة مسدلة. لذلك اضطرّ أن يزيحها قليلًا حتى يرى ما بالداخل. لم يكن يعرف أنّه كان فخًا. ففي اللحظة التي نظر فيها من فرجة الستارة وجد نفسه وجهًا لوجه مع الرجل الطويل. بينما كان الرجل الآخر ما يزال نائمًا. همس الرجل الطويل حتى لا يوقظ النائم:

«يا قواد! لثلاثة أيام وأنت تراقب المكان! بسببك تركت الدفتر والقلم وأجّلت عملي. أيّ فضول هذا الذي عندك؟ أخبرني الآن. بم أعاقبك لفضولك المزعج؟»

أجاب التاجر في توسّل:

«اعف عنّي أيّها الرجل الطويل. لثلاثة أيام وأنا أجيء لأراقبك من النافذة لأنّي أريد معرفة ما تفعله. إذا عرفت ذلك فسأعرف إن كانت رؤياي خيّرة أم لا. لذلك أخبرني بما تفعله هنا. ثمّ عاقبني بالشكل الذي تراه مناسبا».

فراح الرجل الطويل يشرح له:

«أترى الرجل النائم في الفراش؟ أنا فكرت به. هو ينام ويرى بعض الأحلام. وأنا أسجل الأحلام التي يراها».

قال التاجر وفمه مفتوح مقدار شبر من الدهشة:

«وماذا يرى في أحلامه؟»

أجاب الرجل منزعجًا من تركه لعمله وكأنّه مكره على الإجابة:

«يراك أنت والآخرين والعالم الذي تعيشون فيه. كم أنت فضولي! يبدو أنّك لن تتركني وشأني بسهولة. هل أجعل منك قردًا الآن بما أنّك فضولي إلى هذه الدرجة؟ ها! أخبرني!»

فأجاب التاجر بخوف:

«لا! لا! أرجوك لا تفعل. أقسم لك بأنّي لن أجيء مجدّدًا».

همس الرجل بقلق وغضب عاضًّا على أسنانه:

«اصمت! لا تصرخ! سوف توقظه. هذا مكان عمل جادّ. أمّا بشأنك، فلن أجعل منك قردًا. لكنّي لا أريدك أن تزعجني مرّة أخرى. لذلك أقسم بأنّك لن تنام في حياتك بعد الآن».

استيقظ الرجل بنهاية الحلم وفتح كتب تفسير الأحلام على الفور. ولكن لم يصادف أيّ تفسير معقول في هذا الشأن. لذا كان أمله كله في الحلم الذي سيراه عندما ينام ليلًا.

انتظر العشاء بصبر نافذ، ثمّ استلقى على فراشه. ولكنّ الليل انتصف دون أن يزور عينه نوم. وفي الصباح شعر بالنشاط رغم أنّه لم ينم أبدًا. ولمّا استمر معه الأرق في الأيام التالية قرّر الذهاب إلى حكيم.

لم يفده مشروب النوم رغم أنّه شرب منه في اليوم الأول ملعقة وفي الثاني ملعقتين وثلاث في الثالث، ثمّ شربه كلّه في اليوم الذي بعده. بعد ذلك أصبح يشربه بدلًا من الماء ويمضغ صمغ الأفيون طوال اليوم، ومع ذلك لم يستطع أن يتثاءب حتى. فاشترى من مسافر جوّال ذبابة تسي تسي أحضرها من المغرب في وعاء زجاجي مقابل ذهبيتين، وجعلها تقرصه. بل وبلغ به الأمر أن حمل فراشه على ظهره و ذهب إلى مغارة السبعة النائمين وفق نصيحة أحد جيرانه. ولم يفد ذلك.

في النهاية ذهب إلى ساحر اسمه على ألسنة الناس، وشهرته تبلغ السبعة أقاليم وأخبره بمشكلته. وحصل عنده على بعض الأمل. فقد أخبره الساحر أنّ هناك شخص نائم منذ عشرات وربّما مئات السنين، وبأنّه لو وجده وتمكّن من إيقاظه فسيتخلص من علّة الأرق هذه.

باع التاجر متجره والأمل يحدوه، واشترى ثلاثة جمال وحمّلها بسماد طائر المُرمُر وراح يجوب البلدان والديار وهو يبيع هذه البضاعة الثمينة التي تُكبّر بصيلات التوليب في ستة أيام. وفي الدول والبلدات التي كان يمرّ بها كان يسأل عن الرجل النائم ويغيّر خطّ سيره حسب ما يتلقاه من إجابات.

أخيرًا وفي بلدة بالقرب من دمشق أخبره أحد القرويين عن وليّ نائم منذ سبع سنوات تطوف به امرأته ليتفرج الفضوليّون عليه مقابل ثلاث منقورات. وحسب ما يقول فإنّ زوجته قد كوّنت ثروة معتبرة من ذلك، وأنّ بإمكان من يرغبون برؤيته أن يذهبوا إلى الخيمة المنصوبة خارج البلدة بأنفسهم.

وصل التاجر إلى الخيمة المذكورة ووجد نفسه وسط حشد عظيم. كان الناس

قد اصطفّوا أمام الخيمة لرؤية الولي المبارك النائم منذ سبع سنوات. كان من يحين دورهم يدخلون سبعةً سبعة مناولين زوجته ثلاث أقجات عن كلّ شخص. بينما كان زنجي ضخم البنية يراقبهم حتى لا يحدثوا ضجّة. وفي حال كان أحدهم على وشك إطلاق صرخة دهشة توقظ الولي وتقفل بذلك باب رزقهم، فيعلم الله أنّ عصا الزنجي الحديدية كانت تنتظر لتهوي على رأسه.

دخل التاجر لمّا حان دوره، ورأى الولي النائم على فراش من الريش ففكر بأنّه هو من يبحث عنه واختلج قلبه بالأمل. أخذ بعدها يبحث عن طريقة يوقظه بها. مكث يفكّر حتى المساء وتوصّل إلى فكرة أخيرًا.

في الليل سأل في الحانة عن مكان أعلى الديكة صوتا في قرى المنطقة، وبعد أن عرف الجواب خرج قبل طلوع الصبح إلى مسعاه. ومع انبلاج الصبح وصل إلى قرية أهلها عصبيون ومترنّحون. كان بعض من الرجال الذين كانت بجميعهم سكرة النعاس ذاهبين بديك قبضوا عليه بشقّ الأنفس نحو جذع شجرة ليذبحوه. كان ذلك الديك هو سبب ترنّحهم، لأنّه كان منذ فقس وحتى اليوم يصيح مبكرًا جدًا وبصوت فظيع ولا يدع أحدًا لينام في القرية.

اشترى التاجر الذي وصل في الوقت المناسب أعلى الديكة في المنطقة صوتا بنصف أقجة مستغلًا نعاس القرويين وعاد به إلى البلدة. كان الوقت يقترب من الغروب.

انتظر حتى انتصف الليل ثمّ خرج من البلدة متّجهًا إلى خيمة الوليّ النائم. ثمّ حل رباط منقار الديك الذي يمنعه من الصياح ووضعه فوق الخيمة. رأى الديك أنّه أصبح حرًا فقفز قفزتين ثمّ جلس فوق عمود الخيمة.

ابتعد التاجر والحماس يغمره واختبأ خلف صخرة فوق تلّة يستطيع منها مراقبة الخيمة، ثمّ سدّ أذنيه بشمع العسل. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل بكثير، ولم يبق على الصباح سوى مدة قصيرة.

في اللحظة التي كان يخيم فيها الهدوء التامّ على الوادي الذي نصبت فيه الخيمة صاح الديك فجأة بصوت فظيع وبطريقة شنيعة بحيث أُشعل الضوء في الخيمة فورًا وراحت زوجة الولي تصرخ وتلطم لاستيقاظ زوجها الذي كان يساعد في إعاشة البيت بنومه. وقد حاول الزنجي أن يطبطب على الرجل الذي كان باب رزقه هو أيضًا ولكن بلا فائدة.

كان الرجل- ومعه كلّ الحقّ في ذلك- يرغب بوجبة إفطار معتبرة بعد كلّ هذا النوم، ويطلب بيضًا بالسجق بالذات. لكنّ زوجته التي كانت ما تزال تذرف الدموع ذبحت الديك الجالس على عمود الخيمة وقدمت لزوجها الناعس أرزًا طبخته بمرقته.

عاد التاجر إلى البلدة وهو يقفز ويرقص من الفرح واشترى من البازار أنعم مخدة ريش وشلتةً محشوة بقطن ناعم نُدِفَ سبعين مرّة بالتمام. وبعد أداء صلاة العشاء عاد إلى النزل الذي كان يقيم فيه وتمدّد على فراشه وانتظر النوم. لكنّه لم يتمكن من النوم لا في تلك الليلة ولا في الليالي التالية. لذا فكّر بأنّ الساحر خدعه، فبحث عنه ووجده وأخبره بما حدث طالبًا منه أن يعيد ما قد دفعه له.

لكنّ الساحر لم يرجع المبلغ. لأنّه كان يدّعي أنّ التاجر أيقظ الشخص الخطأ. فالولي هذا كان شقيًا وقع في غرام فتاة وخطبها من أبيها. لكن الأب الظالم طلب منه أن يسوي الجبل الشاهق الكائن في شرق القرية بالأرض بالمعول والمجرفة

حتى يجعل الشمس تشرق أبكر من العادة بساعتين. وأخبره بأنّه إن لم يفعل ذلك فلن يزوّجه ابنته أبدًا. وقد عقد المشتعل بنار الغرام العزم وعمل ليل نهار، وهو يضرب بمعوله حتى يلبّي طلب الأب المجحف. ونال في النهاية مراده. ولكنّه في ليلة الدخلة وبمجرد دخوله إلى الغرفة سقط على السرير نائمًا من التعب. وذلك هو سبب نومه منذ سبع سنوات.

خرج التاجر وهو في شدّة التعاسة من عند الساحر الذي نصحه أن يجعل تلك القصة قرطًا في أذنه. ولمّا طاف البلدان من جديد وجد أنّه كان محقًا. فقد صادف في ترحاله أناسًا نائمين منذ سبع وثماني، بل وخمس عشرة سنة. ولكن لم يكن أيًا منهم الرجل الذي يبحث عنه.

ترك جماله في أسكودار. ثمّ حمّل سماد طائر المرمر الذي كان ينوي بيعه في تخته قلعة إلى الزورق بنفسه حتى لا يدفع العُشر للسماسرة. واستقرّ بنزل بالقرب من البيدستان.

وبعد أن تقلب في فراشه يمنة ويسرة دون أن ينام نزل إلى الفناء. وهناك رأى تحت الحواف البارزة للحائط الذي يحيط بالمكان حارس النزل نائمًا على فراشه وهو يشخر. فأخذ يراقبه في غبطة حتى الصباح. ولمّا لم يستيقظ الرجل رغم مرور وقت طويل على طلوع الشمس حمّل بضاعته على البغال واتجه نحو المزاد.

وبينما كان سماد طائر المرمر يُباع بثلاثة أضعاف سعره وصرر النقود تتكوم عند قدميه كان ما يزال يفكر بالحارس. في المساء وعندما عاد ليجمع أغراضه وجده ما زال نائمًا، فتضخّم السؤال في رأسه. ولمّا عبر إلى أسكودار

وأبس(147) على جماله التي تحمل بضائعه، كان كأنّه على وشك أن يجد الجواب. لكنّه أثناء بيعه لبضاعته في أماكن بعيدة جدًا عن القسطنطينية لم يكن قد توصّل لجواب أكيد بعد.

اتّخذ بعدها المجيء إلى القسطنطينية مرتين في السنة والتحقّق مما إذا كان الحارس ما يزال نائمًا عادة له. كان الحارس دائمًا على فراشه ينام شاخرًا. ولا يحدث حتى أن يستيقظ للتبول. سأل التاجر ذو الطبيعة الخجولة أهالي النزل عمّا إذا كانوا قد رأوا الحارس وهو مستيقظ من قبل ولكنّه لم يحصل على نتيجة. فلم يكن أحد قد اهتمّ بالحارس حتى ذلك اليوم، ولا يبدو أنّهم سيبدأون بفعل ذلك بعده.

بعدها أصبح التاجر الحالم الخجول ينغلق على نفسه أكثر فأكثر، وزادت مرات زيارته للقسطنطينية. وقد كبرت ثروته بطريقة ما في تلك الفترة بشكل هائل. لكنّه لم يكن يهتمّ بالمال والملك. وكان كلّ ما يفعله هو انتظار اليوم الذي يستيقظ فيه الحارس على أحرّ من الجمر.

بعد مرور سنوات على هذا المنوال جاء التاجر إلى القسطنطينية من جديد. وكما في كلّ مرة، حمّل البغال بضائعه في أمينونو. ولمّا دخل طريق الديوان بدأت السماء تمطر بشدة. وعند مروره من أمام الضربخانة رأى دخانًا يخرج من فتحات تهوية قبو المبنى. والأمر الغريب أنّه كان هناك الكثير من الشحّاذين في المنطقة.

لمّا اشتدّ هطول المطر أكثر وصل إلى النزل. وجد الحارس الذي راقبه لسنوات ما يزال نائمًا على فراشه تحت الحافّة. فأوى ووجهه يشعّ بنور الأمل إلى غرفته

ليطرح عنه تعب الطريق ولو قليلًا. ولتزجية الوقت راح يفكر وهو يتفرّج من النافذة ذات القضبان الحديدية على البروق الضاربة بالخارج. لكنّه لم يجد جوابًا على سؤاله الذي أرّقه لسنوات، ولا البرق الذي كان ينتظره بَرَق داخل عقله.

أصاب في تلك الأثناء برق قبّة مبنى كنيسة مهجورة كان يتّخذها المتسوّلون سكنًا لهم، فأخذ يشاهد الحريق الذي اشتعل فيها لمدّة. وقد تسبّب انحسار المطر وتوقفه بعد مدّة قصيرة في انتشار النار وتعاظمها. لكن السؤال في رأسه لم يفارقه. بل كان يمنعه عن مشاهدة ذلك المنظر براحة وطمأنينة.

في النهاية أنزل طاقية النوم حتى أذنيه وارتدى قفطانه فوق ثوب نومه ونزل إلى الفناء. كان يحكّ ظهره بعود خشبي طرفه يشبه اليد وهو ينزل من سلالم النزل حافي القدمين. كان الحارس ما يزال نائمًا على فراشه تحت الحافّة. فمشى حافيًا نحوه على أرضيّة الفناء الموحلة. وكما هي العادة، شعر وهو يتأمل الرجل أنّ شخصًا ثالثًا كان يراقبه فنظر إلى الزاوية المنعزلة المظلمة.

كان في الظلام ظلّ شخص اتّضح على الفور كونه شابًا. فتناول الفانوس المعلّق بالحافّة ومشى نحو الظل. ولما أضاء الفانوس الوجه المشوّه للفتى لم يفاجأ الرجل ولم يخف. وقال للفتى:

«السلام عليكم. أنت أيضًا لم تستطع النوم على كلّ حال رغم أنّك تبدو في غاية التعب. تبدو وكأنّك سافرت مجتازًا لبحار ومحيطات. لو كنت مكانك لبحثت عن فراش مريح ونمت. بالمناسبة، ما اسمك؟»

«بنيامين».

«هذا الاسم يُلفظ في بلادنا بِن يمين. وهو يعني «ابن اليد اليمنى». لا بدّ أنّ أباك يحبّك جدًا. وإلّا لمّا سماك بهذا الاسم. ألديك مشكلة ما؟ الجميع ذهب ليتفرّج على النار في نقابة المتسوّلين. اذهب أنت أيضًا إذا كنت لا تستطيع النوم. اذهب وضيّع بعض الوقت».

«لا داعي لذلك. فأنا قادم من هناك. ولكن لماذا لا تذهب أنت؟»

«صراحة يوجد هنا شيء يجذب انتباهي أكثر من الحريق. لذلك لا يمكنني تضييع وقتي بمشاهدة الحريق حتى الصباح».

«وما هو؟»

«تبدو كمن عاش مغامرات كثيرة يا فتى. لذا أنت تقدّر الوضع. أترى حارس النزل؟ ذلك الذي ينام ويشخر في فراشه. هذا ما يجذب انتباهي. لا تسئ فهمي، فأنا لست منحرفًا أو ما شابه. منذ سنوات وأنا أتردد على المدينة، وفي كلّ مرة أجد الرجل ما يزال نائمًا. ولم أره أبدًا يقوم ولا حتى للتبوّل أو للأكل والشرب. كأنّه جاء للدنيا من أجل أن ينام فقط. ولم ينتبه لوجوده أحد غيري. يبدو من مظهره أنّه ينام في هدوء، ولكن من يدري أيّ أحلام يرى. من الجليّ أنّه يحلم. لأنّ شفاهه تتحرك باستمرار. تعال إن شئت، لننظر إليه عن قرب».

نهض بنيامين من مكانه وذهب معه إلى عند الحارس. كانت شفاه الرجل تتحرّك حقًّا. تحسّس التاجر الخجول بالعادة -ربما متشجّعًا بوجود بنيامين- ما بين فخذي الرجل وقال مندهشا:

«عجيب! عضوه متصلّب بسبب البول. سينهض بعد قليل ليتبول غالبا»

تقلّب حارس النزل في فراشه نحو الجهة الأخرى بعد تلك الكلمات تمامًا وتوقّف شخيره لمدّة. وعندما صاحت الديكة كان كأنّه سيستيقظ. ترك الشخير مكانه للهسيس. كان واضح أنّه في درجة نوم بين الكرى والإغفاء. ولما صاحت الديكة من جديد حكّ رأسه من تحت طاقيته وتقلّب في سريره من جديد وراح يتنفس بشكل عادي هذه المرّة. ولم يهمل أن يحكّ ما بين فخذيه كذلك. وعندما صاحت الديكة للمرّة الثالثة سعل. العجيب أنّ عكس أعراض استيقاظه كانت تحدث عند الرجل. لأنّه بينما كان الرجل يقلب أذنه بإصبعه الصغير وهو ما يزال نائمًا، بدأ التاجر بالتثاؤب. وقبل أن يمرّ وقت طويل كانت سحب النوم قد هبطت على عينيه. ولقلقه من أن يطير الوسن الذي غمره فجأة افترق عن الفتى دون أن يودّعه حتى، وصعد درجات السلم وهو يترنح برأس ثقيلة. ثمّ دخل غرفته وارتمى برأسه على مخدّة الريش المطعمة بروح الأفيون.

Telegram:@mbooks90

لم يفهم بنيامين الذي بقي بمفرده مع الحارس سبب عجلة الرجل. لكنّ دافعًا غامضًا ذكّره فجأة بأطلس أبيه. أخرج الكتاب من صدره وقلب صفحاته وقرأ اسمه كاملًا في هذه المرّة. كان اسمه أطلس القارّات الضبابيّة. لم يفاجأ لمّا صادف بعض الأسماء المألوفة خلال تقليبه للصفحات. فتح آخر قسم للكتاب الذي لن يتمكن أبدًا من قراءته كاملًا ونظر إلى موضع عشوائي منه، فوقعت عينه على الأسطر التالية:

«ابني الحبيب،

في زمن ما ظننت بأنّ قدراتي العقلية ضعفت لمّا علقت برأسي فكرة أنّ البيت الذي أعيش فيه، والفانوس الذي أحمله أثناء عودتي في منتصف الليل، والسجّاد الفارسي المعلّق على الحائط، وكلّ شيء أراه في غلاطة التي هي بلدة حقيقيّة،

كان مجرد أفكار في ذهني. لكنّني الآن أرى أنّي كنت مخطئًا في تفكيري. لأنّها كانت أفكاري بالفعل.

وقد شرحت فكرتي هذه في أوّل مرّة لعلي سعيد شلبي في قراءت خانة على طريق ميخائيل. أنت تعرف أنّ هذا الرجل حسن النية يكنّ لي أشدّ الاحترام ويصدّق أيّ شيء أقوله له فورًا. لمّا أخبرته أنّ القراءت خانة التي كنّا نتحادث فيها وزبائنها وكلّ ما في الدنيا عبارة عن أفكاري أشار إلى نفسه قائلًا: «وماذا عنّي؟». ولمّا تلقّى الإجابة المعهودة تكدّر كثيرًا. من يدري بم كان يفكر. وهكذا أصبح علي سعيد شلبي أوّل شخص يصدّق بأنّه يعيش في عقلي. ولا يمكنني أن أقول أنّ ذلك هزّ كيانه كثيرًا. لأنّه في اليوم التالي باح لي بأحد همومه: أخبرني أنّه كان يريد أن يصبح أحد مؤذّني جامع السلطان أحمد، ولكنّه لم يكن قادرًا على الوصول لتلك الوظيفة، رغم أنّ تحصيله يؤهّله، لعدم وجود ظهر قوي يسنده. لذلك طلب منّي أن أفكر بأنّه مؤذن جامع السلطان أحمد. وقد كان تحقيقي لمطلبه ذلك ممكنًا في الحقيقة. بيد أنّي رفضت طلبه. ولكنّه لم يدعني وشأني. ففي اليوم التالي طرق بابي وهو يتأبّط إوزة وفي يده سلّة بيض وكرة زبدة. فاضطررت لأن أحقّق رغبته ولو جزئيًا. صحيح أنّه ليس مؤذنًا، إلا أنّه يعمل كمُعتَمد في جامع السلطان أحمد الآن. لكن يبدو أنّه نسي معروفي له، فهو لم يسأل عنّي أو يكلّمني منذ مدّة طويلة.

أمّا بشأنك ابني الحبيب، فأنت أيضًا لم تستطع أن تتجرّأ وتسألني» «من أنا؟ وكيف أعيش لأيام من دون أكل؟ ومن أين مصدر المال الذي أدبّر به أمرنا؟» أما عن مصدر المال، فها أنا أخبرك رغم أنّي أعرف أنّك لن تصدقني: كان يكفي أن أفكّر بمئة أقجة في جيبي حتى تصبح في جيبي مئة أقجة. ولا أريد أن أخبرك

بكلّ شيء حتى لا تتفاجأ. ولكن صدّق أنّ كلّ ما تراه وما تسمعه، كلّ شيء، هو عبارة عن أفكار في ذهن أبيك! فيما عدا بعض الأشياء بالطبع. خالك الكبير إحسان العربي مثلًا، ذلك الفتوّة العظيم، راسم خرائط الدنيا الحقيقية التي خاف من أن يخطو فيها خطوة واحدة جبان مثلي يدرس الفراغ والظلام، قد مات قبل سنين. ولكن ضحكته ما تزال ترنّ في أذني، وخياله يعيش في عقلي. لماذا فكرت فيه؟ ربّما لأنّي أردتك يا فلذة قلبي الوحيدة أن تتعرّف عليه، هذا كلّ ما في الأمر.

لأنّ كلّ أب يرغب بأن يعلّم ابنه شيئًا، وأن يريه الصواب والحقيقة. بينما لم يكن لديّ شيء أريك إياه غير أفكاري وخيالاتي. لذلك أعطيتك الكتاب الغريب الذي تمسك به الآن. لم أستطع أن أريك الدنيا للأسف. كنت أتمنّى أن أترك لك عملًا ككتاب أطلس مينور الذي ترجمه كاتب شلبي(148) باسم أطلس جهان نما وأهداني منه نسخة. ولكن ماذا يمكن أن يكون في عقل رجل أدار ظهره للدنيا مثلي غير الفراغ؟ لهذا كتبت أطلس الفراغ، أطلس فاكوي(149)، الذي خلقت منه أفكارًا، لتعيشه، لا لتقرأه وحسب.

أي بني الذي هو عبارة عن فكرة في عقلي! بهذا تكون قد عشت ما لم يعشه أبوك، ولمست ما لم يستطع لمسه. لم تكن بطلًا بالشكل الذي يريده أب من ابنه. كنت في غاية الرقّة والتواضع. مع هذا لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتدخّل بهيئتك وأهمس بكلمات لا تتناسب مع شخصيتك. فقد فضّلت ألّا أدعك تُهان أمام عابدي الفراغ على أن أحلم. أخيرًا عشت المغامرة التي تخيّلتها لك، وبهذا تكون قرأت الأطلس الذي كتبته من أجلك. والآن تكون قد تعلّمت آخر شيء تتعلمه منّي.

هنالك رغم ذلك بعض المسائل التي لم أتمكّن من حلّها. رندكار يستنتج وجوده من كونه يفكر. أنا أيضًا أفكّر، إذن أنا موجود، ولكن من أنا؟ أأنا إحسان أفندي الطويل المقيم في غلاطة بجوار خان الشراعيين؟ أم رجل حزين وحيران قليلًا يعيش في إزمير بعد ثلاثمئة سنة مثلًا؟ أيُنا خيال وأيُنا حقيقة؟ أنا أفكّر، إذن أنا موجود. أفكّر برجل يفكّر، وأفكّر بأنّه يعرف بأنّه يفكّر. يستنتج هذا الرجل أنّه موجود كنتيجة لتفكيره. وأنا أعرف أنّ استنتاجه صحيح. لأنّه هو فكرتي أنا. أفكّر بأنّ هذا الرجل الذي يستنتج، ومعه حقّ في ذلك، بأنّه موجود، يفكّر فيّ أنا. معنى هذا أنّ شخصًا حقيقيًا يفكّر فيّ أنا. هو حقيقي، إذن أنا خيال.

كم أردت أن أكون لك أبًا حقيقيًا، أن أمسح على شعرك وأقبلك. ولكن أيمكن لمس الأفكار؟ لهذا السبب أنا قريب منك جدًا وبعيد عنك جدًا في نفس الآن. وإنّ الوداع ليصعب عليّ كثيرًا يا بني. لذلك فإنّي ومهما كنت بعيدًا عنك، أريد أن أفكر فيك دائمًا، بوجهك الوسيم القديم، وأنت برفقة آغلايا.

الوداع يا ابني. الوداع يا خيالي العزيز الوحيد».

ابتسم بنيامين ثمّ أغلق الأطلس ووضعه في صدره. كان يشعر أنّه متعب لأقصى درجة. قبل أذان الفجر بقليل اقترب من الرجل الذي كان ما يزال يحك جسده وراح يكزه ليوقظه. كان ما زال يحرّك شفتيه بتأثير الحلم الذي كان يراه، ولم يكن نومه ينتهي. ولكنّه فتح عينيه لمّا هزّه بقوّة. كان الصباح قد طلع. جلس الحارس الذي استيقظ من نوم كأنّه دام مئة سنة، ولمّا نظر حوله لم ير من أيقظه. لأنّ الظلام كان يعمّ كلّ مكان. أوَليس كلّ ما يُرى ولا يُرى من الأفكار والأحلام هي الظلام بذاته؟

تفت

14 أيلول 1992

قارشي ياقا(150)

***

(1) السلطانية.

(2) جمع أتون، وهو المكان الواسع الذي يكون فيه موقد الحمام أسفل منه.

(3) الفرنجة هم الفرنسيون.

(4) لقب عربي قد يطلق على صاحب الأصل العربي أو السحنة الداكنة.

(5) سفينة تعمل بالشراع وبالتجديف.

(6) عذاب قابيسي Azapkapısı إحدى بوابات سور القسطنطينية.

(7) سماطيه تقع في حي قوجا مصطفى باشا

(8) نسبة إلى سفينة غليون. كما تعني القراصنة الذين ضُمّوا للبحرية العثمانية.

(9) كولّه هي قذيفة المدفع، وطوبوق كعب القدم. أي أنه نعت بأن له كعب كقذيفة المدفع.

(10) المشمل: السيف القصير.

(11) السروال الواسع.

(12) الزلوطة: عملة فضية عثمانية سُكّت على نمط العملة البولونية التي تحمل هذا الاسم.

(13) المنقور: وحدة نقدية أصغر من الآقجة.

(14) الشاقول: مِيزَانُ البَنَّائِينَ وَالْمُهَنْدِسِينَ لِلتَّأَكُّدِ مِن اسْتِقَامَةِ الحَائِطِ.

(15) Yelkenci han.

(16) Kürkçü kapısı: والمعنى الحرفي بوابة الفرّاء

(17) الزرد: حلقة الدرع.

(18) جمع جوشن، وهو الدرع الملبوس.

(19) لكلمة قبطي عدة دلالات في التركية، فقد تعني قبطي أو مسيحي أو غجري، لكن الأغلب أنها تعني غجري هنا.

(20) شراع صغير.

(21) طائر أسطوري عملاق.

(22) أي اليونان.

(23) تسمى أيضا هازارد. وهي لعبة قمار تُلعب بنردين، مجموعات 3-3 و 5-5 و 6-6 و6-5 تفوز. و 1-1 و 2-2 و 4-4 تخسر. والبقية لا تحتسب.

(24) نوع من مستخلصات الأفيون.

(25) الاسم القديم لحي بيوغلو.

(26) رجل القانون حافظ النظام الذي يطرح للفلقة السكارى ومن يمشون بلا قنديل في الليل.

(27) Barca Longa نوع سفن إسبانية.

(28) سفينة شراعية كبيرة.

(29) طبيب.

(30) Ahırkapı إحدى بوابات سور إسطنبول.

(31) الجلفاط: الذي يسد ما بين ألواح السفينة ويقيرها.

(32) صناع المضخات. كما تطلق على الإطفائيين.

(33) صلوات على الرسول عليه الصلاة والسلام تتلى من المنابر لإعلان الجنائز أو ليوم الجمعة.

(34) الغليونجية: أفراد البحرية الذين يُجمعهم كل سنة من أقضية معينة للقيام بالخدمات اللازمة لسفن الاسطول التي تسمى بالغليون.

(35) قسّم الجغرافيون القدماء العالم إلى سبعة أقاليم.

(36) خشبة تُعدّ النقود فوقها، يمكن النظر إلى صورها بالبحث عن Akçe tahtası في قوقل.

أكابر رجال الدين وكبار المؤلفين.

(38) قبعات الإنكشاريين عبارة عن لباد طويل منسدل نحو الخلف.

(39) ورق البردي.

(40) المقصود أنّه ترجم «نقاش في المنهج» بلغة عاميّة.

(41) اسم أوكسفورد.

(42) Ağa Çayırı.

(43) çemberlitaş

(44) اسم الخط وسط اليد.

(45) Kasım paşa.

(46) meyyit kapısı.

(47) Voyvoda Caddesi.

(48) تطلق على صفعة معينة كان يتدرب عليها الجيش.

(49) الدرهم مكيال صغير يعادل 3.17 جرام.

(50) فرقة حفّاري الأنفاق من الإنكشارية.

(51) القراءات خانة مقهى تُقرأ فيه القصص والحكايات كنوع من التسلية.

(52) أو عبد الله البطال.

(53) حقيبة يقلّد بها من تعلم القراءة ليحمل فيها مصحفه. لمشاهدة نماذج انظر، Cüz kesesi.

(54) دولتلو: صاحب الدولة. وهو لقب تشريفي كان يستخدم كثيرا في الخطابات العثمانية والعربية.

(55) المشروب الكحولي.

(56) تسمى أيضا الكجة والدحل والبنور والقلول.

(57) عظام مفاصل الحيوانات مربعة الأوجه تستخدم في اللعب.

(58) أي ابن أو من نسل افراسياب.

(59) أي السلطاني.

(60) عملة من فئة المجيدي، وهي صغيرة القيمة

(61) دار سك النقود.

(62) خدم الإنكشارية.

(63) الجلاد هو منفذ الإعدامات.

(64) من آلات الحرب القديمة ومفردها ضبر، وهي برج متحرك يستخدم للتقدم نحو الحصون واختراقها.

(65) هكذا تذكر الجملة الأصلية. قد يكون المقصود رواية الماء أثناء تبريد المعادن.

(66) عصا مربوط بها كرة معدنية بدبابيس.

(67) الأعمدة الهابطة والصاعدة المتكونة من تقاطر الماء لملايين السنين.

(68) القوات الخفيفة من الخيالة العثمانية التي تتمركز قريبا من الحدود عادة وتعتاش على الغنائم.

(69) المشاركين في الحرب من غير الإنكشارية والقابيقولية.

(70) Divan yolu.

(71) طوبقابي

(72) أصحاب الحمامات.

(73) مقر ثكنات الإنكشاريين الرئيسي بإسطنبول.

(74) كتخدا تطلق على المسؤول والوكيل والمعتمد والأمين والنقيب.

(75) الاسم المذكور في الكتاب خنزيريَدي، وتعني أكل خنزيرا.

(76) يقال للفارسيين عجم في التركية.

(77) الاسم الأصلي في الكتاب هو خنزير يَدي، ويعني أكل خنزير.

(78) بوابة الحديقة Bahçe kapı.

(79) السلاملك قسم استقبال الضيوف وهو مخصص للرجال، والحرملك قسم أهل البيت المخصص للنساء.

(80) التلييف.

(81) الاسم الأصلي (دَرْتلي): وتعني متعوس أو مغموم أو مهموم أو ذي مصيبة.

(82) معنى اللقب: باع العالم.

(83) المسؤول عن الأوراق والقرطاسية.

(84) البلبل المغرد

(85) Tahtakale.

(86) بمعنى المتدينين.

(87) جمع وهق، وهو الحبل في أحد طرفيه أنشوطةٌ يُطرح في عنق الدّابة والإنسان حتى يؤخذ.

(88) أي التلاميذ المتعلمين عند محترف المهنة.

(89) من مصطلحات النرد، وتعني ستة وستة.

(90) الخان: السوق أو النزل.

(91) Sahhaflar çarşısı.

(92) Mısır çarşısı.

(93) أوضون قابيسي. Odun Kapısı

(94) مدرسة القصر الداخلية، كانت تؤدي دور كليات العلوم الإدارية في الوقت الحاضر من تنشئة الموظفين ورجالات الدولة المستقبليين.

(95) Yedikule.

(96) مزاد تباع فيه ممتلكات المقتولين إعدامًا.

(97) يمكن مشاهدة عروض بنفس الفكرة بالبحث عن Anti-gravity wheel.

(98) أشد أيام الصيف حرارة.

(99) أحجار نرد مغشوشة يكون أحد أوجهها أثقل من البقية.

(100) من مصطلحات النرد، وتعني إثنين وثلاثة، وهو نرد خاسر في الباربوت. تُستعمل الأرقام الفارسية في النرد، وهي كالتالي، الواحد يك، والإثنين دو، والثلاثة سيه، والأربعة جهار، والخمسة بنج أو بيش، والستة شيش.

تسمى 1-1 هب يك، و2-2 دوبارة، و3-3 دوسيه، و4-4 دورجهار، و5-5 دوبيش، و6-6 دوشيش. والبقية تقال حسب أرقامها، مثلا 4-6 تسمى شيش جهار.

(101) 6-1.

(102) 6-6

(103) انظر: حساب الجمل.

(104) Divanyolu

(105) 1-1.

(106) 5-3.

(107) 2-2.

(108) 5-5.

(109) 2-2.

(110) 4-1.

(111) 5-5.

(112) 5-1.

(113) اسم عثماني يُطلق على الرومان ومن هم من نسلهم.

(114) ثلاثة واثنين.

(115) بوبين.

(116) 5-5.

(117) لرؤية أمثلة: انظر Çeşmi bülbül.

(118) انظر: Köçek havası.

(119) ملاحظة: تعني كلمة آغلايا بالتركية «ليَبكِ» من البكاء.

(120) Valide han.

(121) هذه القطعة واردة في الكتاب كجملة طويلة بلا أي نقطة فاصلة بينها.

(122) أي الحمالين الذين يستخدمون عصا على أكتافهم للحمل.

(123) تسمى أيضا المطرقة أو القادح.

(124) Barca longa. سفينة إسبانية

(125) صنف عسكري من النصارى كانت وظيفتهم الحراسة في الثغور وفي القلاع والنيابة عن الدولة في المناطق التي ليس بها سكان مسلمون، وقد توسعت صلاحياتهم مع الوقت وأصبحوا ينضمون للجيوش.

(126) اسم فرقة عسكرية.

(127) هم جنود فرسان عثمانيون على درجات، ويعتبرون «فئة سلاح الفرسان الثقيلة» في الجيش. كانوا يقيمون في الأراضي التي يفتحها الجيش العثماني، وكانوا يُعفون من كل

التكاليف مقابل الدفاع عن أهل تلك المناطق.

(128) لكل فرقة عسكرية عدة قادة بمسؤوليات مختلفة، أحدهم الشوربجي، ومعناها مسؤول الحساء. وهو لقب أطلق على أميرلاي الفرقة الانكشارية ويخضع لقيادته عدد كبير من ذوي الرتب العسكرية أمثال: الأوضه باشي ووكيل الخرج والبيرق دار (حامل اللواء) والآتي باشي (كبير الطهاة)

(129) مسؤول الغرفة التي تقيم بها الفرقة.

(130) حاملو الرايات والألوية.

(131) من «باش» بمعنى رأس، و«إسكي» بمعنى قديم. مصطلح أطلق على رئيس الجند في الفرقة، شرط أن يكون أكبرهم سنا.

(132) مساعدو الطباخ والمسؤولون عن التنظيف والترتيب وجمع الحطب وما شابه.

(133) المسؤولون عن الكلاب.

(134) المسؤولين عن كلاب الصيد.

(135) فرقة حاملي البنادق.

(136) مسؤولو المنجنيق.

(137) أي العظيم، وهو اسم أكبر مدفع ويستخدم في دك الحصون والأسوار.

(138) مدافع خفيفة تتميز بطول ماسورتها.

(139) مدفع سريعة الطلقات صغيرة القطر.

(140) من المدافع الثقيلة.

(141) Virtus vacui. هتاف لقوة الفراغ.

(142) كلمة Düş المذكورة في الكتاب في كلّ مرة قد تعني فكرة أو حلم أو خيال، والمقصود أنّها من نتاج العقل.

(143) نقيب.

(144) الاسم الأصلي بن بركت وتعني ألف بركة.

(145) اللفظة المذكورة: بير، تعني حرفيا الشيخ، ويقصد بها شيخ الطريقة الشعبانية الخلوتية شعبان ولي القسطموني.

(146) الجملة الأصلية تعبير مجازي (يستخلص الزيت من الذبابة)

(147) الإبساس صوت زجر الجمال.

(148) مصطفى بن عبدالله القسطنطيني.

(149) Atlas Vacui.

(150) Karşıyaka, izmir.

أطلس القارات الضبابية

إحسان أوقطاي أنار

كهلٌ بخيال متّقد في قسطنطينية القرن السابع عشر، يحلم -حرفيًا ومجازيًا- بالعالم من حوله. يرسم الخرائط تأمّلًا عن طريق البحث عن الواقع في الأحلام، ويسجل ثمار رؤاه في كتاب بعنوان "أطلس القارات الضبابية".

يحلم، ويحلم بأنّه يحلم، ثمّ يتساءل: هل النوم يقظة؟ أم اليقظة نوم؟ وهل تفكيره دليل على وجوده حقًّا؟ سيعيش ابنه بنيامين الذي أهداه أبوه هذا الكتاب مغامرة عجيبة غامضة. حيث وقعت -صدفةً- بيده، أثناء عمله مع إنكشارية الجيش العثماني، عملة سوداء غريبة قلبت حياته رأسًا على عقب.

بُني هذا الكتاب وفق تسلسل زمني متفجر، حيث تتقاطع مصائر شخصيات عديدة في المشهد، وتحيك خيوط القصة التي تجمع بين الفكاهة والدراما والسخف والمنطق.

يقدم لنا إحسان أوقطاي أنار رواية ثرية يجمع فيها بين تاريخ القسطنطينية في القرن السابع عشر وبين الإشارات الثقافية والدينية لذلك العهد، في بُعد فلسفي بحت يذكّرنا بكلمات ألبير كامو: "الحالمون هم من يغيرون العالم، أمّا الآخرون فلا وقت لديهم."

نُشرت هذه الرواية الفريدة التي تحتل مكانها في جميع قوائم أروع الروايات التركية لأول مرة عام 1995. وقد تهافت عليها القرّاء والنقاد، وتُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة مختلفة. لكنّها بقيت مجهولة للقارئ العربي حتى بادرت صوفيا بتعريبها وتقديمها له آملة أن تناسب ذائقته.

ISBN: 978-9921-721-35-5

+965 5222 4643
@sophia_kw1
info.sophia@gmail.com